الهمبتة في السودان

شرف الدين الأمين عبدالسلام

دار جامعة الخرطوم للنشر



الهمبتة في السودان

أصولها ، دوافعها وشعرها

شرف الدين الامين عبد السلام
معهد الدراسات الافريقية والآسيوية
الخرطوم

١٩٨٣

الناشـــرون
دار جامعة الخرطوم للنشر
جامعة الخرطوم
ص. ب ٣٢١

الطبعـــة الأولى
١٩٨٣

الطابعـــون
دار الطباعـــــة
دار جامعة الخرطوم للنشر

الاهـداء

الى والـدى ...

(المؤلـف)

المحتويات

مقـــدمة

إن الغرض من هذه الدراسة هو تسليط الضوء على ظاهرة الهمبته لكشف الجوانب الخفية فيها وإزالة مايكتنفها من الغموض وصولا الى جلاءصورتها الحقيقية كما فى الواقع.

والهمباته يمثلون مجموعة فولكلورية ينطبق عليهم جميع ماينطبق على تلك المجموعات ومن أبرز العناصر المميزة لهذه المجموعة هى أنها تقوم بعمل واحد هو نهب وساب الأبل. فالذى يميز الهمباتى من غيره هو اقتصاره على نهب الأبل . دون غيرها وكل من يفعل غير هذا ، وان كان نهبا ، لايعد منتمياً الى هذه المجموعة . والعنصر الثانى هوأ ن لهذه المجموعة قيمها المشتركة التى تجمع بين جميع أفرادها ويتحلى بها كل فرد ينتمى إليها أما العنصر الثالث فهو اللغة . فبالرغم من ان اللغة التى يستعملها الهمباته فى شعرهم هى لغة البادية الرعوية فى السودان ، الا أن هناك بعض الألفاظ والتعابيرالخاصة بهم المميزة لهم عن سواهم . فللهمباته فى هذا المجال مايمكن ان نسميه بالقاموس الخاص . والعنصر الرابع يظهر فى أن هذه المجموعة تنقل هذه المعلومات والقيم عن طريق تداولها وتوارثها . والتداول – فى نظرى – من اهم مميزات المادة الفولكلورية وبالتالى المجموعة الفولكلوية ولكل ذلك فإن الدراسة التي نقدمها هنا تدخل ضمن الفولكلور .

كيفيـــة جمـــع المــــــادة :

عندما فكرت فى كتابة هذا البحث عن ظاهرة الهمبته فى السودان ، لم تكن صورتها واضحة تماماً فى ذهنى وبعد اطلاعى على ماكتب فى هذا المجال ، وجدت أن ذلك لايعدو أن يكون محاولات لالقاء الضوء على هذه الظاهرة . وهذه المحاولات هى – فى الواقع – مجرد إنطباعات تفتقد الدعم العلمى . ومن هنا أيقنت أن دراسة هذه الظاهرة تستلزم أن يوفر لها الانسان المعلومات من منبعها الأصلى ، أى البادية ، ومن أفواه المشتغلين بها أنفسهم أو المتصلين بها إتصالا مباشراً ، الذين شهدوا احداثها وعاصـروا فرسانها . وكان العمل الميدانى هو الوسيلة التى لا تضاهى فى توفير مادة الموضوع .

وعلى هذا الأساس بدأت فى استجلاء الأمر لمعرفة المناطق المشهورة بهذه الظاهرة واستطعت ان اتوصل الى انها توجد اساساً فى باديتى كردفان والبطانة . وهما منطقتان

واسعتان تقطنهما قبائل عربية تعتمد فى حياتها على تربية الماشية . فلابد ان يشمل الإختيار نماذج من المنطقتين البدويتين لايجاد نوع من مقارنة المادة المستمدة من المنطقة الاخرى ، ثم لتكثيف المعلومات وصولا لافضل النتائج .

كانت الزيارة الأولى لمنطقة الجعليين فى بادية البطانة . وكان لاختيار هذه المنطقة سببه ، وهو ان هذه المنطقة هى التى عاش فيها الطيب ود ضحوية ، وهو أشهر الهمباته وأشعرهم . وشعره يعبر بحق عن الخطوط الأساسية لهذه الظاهرة ، بل يتعدى ذلك لأدق التفاصيل الخاصة بحياة الهمباته ، مما يجعله نموذجاً لهم . وبعد الاطلاع على ما كتب عن المنطقة المعينة وتوفر المعلومات عنها ، سافرت الى هناك . غطى عملى المنطقة الواقعة على الضفة الشرقية للنيل ، مابين مدينة شندى فى الجنوب ومدينة العالياب فى الشمال . وكانت حصيلة هذه الجولة مجموعة من شعر الطيب ودضحوية وبعض أشعار الهمباته الآخرين ومعلومات وافيه عنه ، ومعلومات عامة عن ظاهرة الهمبته فى مختلف جوانبها .

اما الزيارة الثانية فكانت لمنطقة الكواهلة فى بادية البطانة أيضاً . وهى المنطقة الواقعة بين نهرى الدندر والرهد وغرب نهر الدندر إبتداء من قرية « نور الهادى » جنوباً وإنتهاء بقرية (الحريز) — على طريق القضارف ، مدنى — شمالا . أما سبب أختيار هذه المنطقة فيرجع الى ان نشـأتى قد كانت بالقرب منها ، وكنت أسمع عن عدد من الهمبـاته من قبيلة الكواهلة . وفعلا وقفت عند زيارتى للمنطقة فى مقابلة كل الذين ذاع صيتهم فى المنطقة وجمعت من أفواههم كل المعلومات ذات الفائدة فى دراسة هذه الظاهرة .

وكانت الزيارة الثالثة لمنطقة قبيلة حمر فى كردفان . أما سبب اختيار هذه المنطقة فيرجع الى ان اشتهارها بهذه الظاهرة أكثر من مناطق كردفان الأخرى . والجديـر بالتسجيل هنا ان كل المادة التى حصلت عليها فى تلك المنطقة كانت من افواه الهمباته المسجونين والمنتظرين بسجن مدينة النهود . وكان وجود عدد منهم بين نزلاء السجن أول مؤشر الى حقيقة كانت غامضة لبعض الشىء عن استمرار هذه الظاهرة واستشرائها فى مناطق كردفان فى الوقت الحاضر . وكانت حصيلة هذه الزيارة عددا كبيراً مـن الروايات ومن المعلومات عن الهمبته ومشاهير الهمباته فى المنطقة .

اما الأسلوب الذى أتبعته فى جمع المادة فقد كان أسلوب المقابلة . فقد كنت أقوم

بإجراء مقابلة مع الراوى وأطرح عليه عدداً من الأسئلة الواحد تلو الآخر . وكـانت الأسئلة الرئيسية تتركز حول المعنى ، والأصل وتاريخ النشأة ثم أشهر القبائل والأفراد فى القبيلة والمنطقة ، والبادية السودانية عامه . وكان جانب من هذه الأسئلة يدور حول الدوافع والأسباب ، نظم الهمبته وقواعدها ثم القيم السائدة فى مجتمعها . ويلى ذلك السؤال عن الشعر . وكان بعض الشعر يرد اثناء الرد على الأسئلة السابق ذكرها . ولم تكن طريقة توجيه السؤال تتقيد بهذا الترتيب للأسئلة ، اذ احيانا كان يقتضى الموقف تقديم سؤال قبل سواه أو تأخيره . كما ان هذه الطريقة لم تكن لتقف حائلا بين الراوى والاسترسال فى الحديث . فأحيانا يترك الراوى السؤال المطروح عليه جانباً ويتحدث عن شىء لايمت للسؤال بصلة . وهنا تقتضى الضرورة تغيير صيغة السؤال أو السؤال عن شىء آخر وهكذا .

تلك كانت مرحـلة جمع المادة من منابعها . وبعدها كانت مرحـلة تفريغ المادة من الأشرطة الى الورق . وقد عملت على نقل كل المادة من الأشرطة عن طريق الكتابة الصوتية — والواقع أننى كنت عقب كل زيارة أعمل فى تفريغ ماتجمع لدى حتى أكملت نقل كل ماتجمع عندى من مادة . ثم انتقلت بعد ذلك الى مراجعة النصوص وضبطها ، واثبات المعانى وتحقيقها . وحين فرغت من ذلك أصبحت الصورة عندى واضحة تماما .

أما اساس المنهج الذى أتبعته فى كتابة البحث فهو دراسة الجوانب المختلفة لظاهرة الهمبته كما يعكسها شعر الهمباته وأخبارهم ورواياتهم والروايات الأخرى التى تروى عنهم . ولهذا المنهج ثلاثة جوانب :— يتناول الجانب الأول دراسة الهمبته من حيث معناها وأصلها ونشأتها ودوافعها ومسبباتها وذلك من خلال الشعر والأخبار والروايات والجانب الثانى عبارة عن دراسة لشعر الهمباته للوصول الى ما يعبر عنه من افكار وآراء وفلسفات . ثم استخلاص ظواهر وخصائص هذا الشعر الفنية والموضوعية . اما الجانب الثالث فهو مقارنة بين ظاهرة الهمبته والصعلكة العربية لاستخلاص مافيها من السمات المشتركة والاختلافات الجوهرية .

وفى الختام أتقدم بخالص الشكر والعرفان لكل من مـد لى يد العون وأنا أقوم بإعداد هذا البحث فى مختلف مراحله . وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور سيد حامد

حريز لارشادته وتوجيهاته المفيدة . كما أشكر الأستاذ الدكتور عبد الغفار محمد أحمد لاطلاعه على جزء من هذا البحث وابداء ملاحظاته المقدرة كما لايفوتنى أن اجزل الشكر لمعهد الدراسات الافريقية والآسيوية ودار النشر بجامعة الخرطوم لجهدهم المقدر فى نشر هذا الكتاب

وأخيراً آمل أن يكون هذا البحث قد وفق فى كشف جانب من جوانب تراثنا الشعبى . والله المستعان .

« المـــؤلـــف »

رموز الكتابة

استعملت فى كتابة النصوص بالإضافة الى الوسائل التقليدية من ضمة وفتحة وكسره وتنوين وهمزة وتشديد الرموز التالية : —

/ ترمز للامالة وترسم فوق حرف الإمالة كما فى كلمتى يَوم ولَيل وهما يوْم وليْل

ـــ ترسم فوق الحرف وتدل على اهمال نطقه .

ڨ تعبر عن الصوت الحنجرى المدغم فى الواو .

ح• تعبر عن الجيم المعطشة كما فى الفعل (كجن) بمعنى كره وتنطق كما فى كلمة Chair

• التاء المربوطة ، منفصلة كانت أو متصلة ، تنطق تـــاء اذا كانت منقوطة ، واذا كتبت من غير ان تنقط فإنها تنطق هاء .

• فى حالة المفرد المذكر الغائب يحذف الضمير فتكتب مشي له « مثلا مَشّىَ لُو » وقال له « قالْ لُو » . وفى حالة الأسماء تكتب « سيفُو » بدلا عن « سيفه » و« حالُو » بدلا عن « حاله » .

• استعملنا قوسين هكذا (   ) للدلالة على ان هذه الكلمة غير واضحة .

الهمبته

✡ معناها والألفاظ الدالة عليها

✡ اصل الهمبته ونشأتها .

الهمبته : معناها والالفاظ الداله عليها

استعمل لفظ « همباته » ليدل على جماعة من البدويين كانت تمارس النهب والسلب فى البادية . ورغم رواج وتداول اللفظ ، ففى قواميس المناطق والقبائل التى عرفت هذه الظاهرة عدة ألفاظ تدل على نفس الجماعة . ولعلنا لانحس بالدهشة إزاء وجود عدد من الألفاظ المختلفة التى تدل على معنى واحد ، لما نعلمه من تميز السودان بتباين واختلاف اللهجات حتى بين المجموعة العربية نفسها. اما لفظ « همباته » ومصدره « همبته » فهو من ألفاظ غرب السودان . وفى قبيلة حمر فى كردفان — تعرف هذه الجماعة بـ« السراجه » أو « السروجية »بينما تعـرف فى منطقة البطـانة بـ « المهاجره » و « النهاضين » أو « النهاض » .

(١) الهمبتــة : —

فى « قاموس اللهجة العامية فى السودان » همبت همباته (س) ، الهمبته طريقه فى الحياة تقوم على سلب أموال الأغنياء كما كان يفعل صعاليك العرب والجماعة همباته وهى تطلق على من يتخذ هذه الحرفة خاصة سرقة الجمال وهناك قبائل فى وسط السودان وغربه مشهورة فى وصف الهمبته — لعل اللفظة من نهب قلبت من نهباته الى هنمباته . وقيل ان لفظة هنبوتى وهنباتى ، وهو سارق الأبل ، منسوبه الى الصحراء والفلاة والسهول الحلوية قال ود الحسين الجعلى : —

ياشبــه البسادرن فــوق عــلى الهنبوتى

ولعلها من الهنبته (ف) الأمر الشديد والداهية (١)

ولكنا نرى أن هذا المعنى لايفى بالغرض تماماً وهو تعريف غير دقيق . وتعليلنا لهذا الزعم هو ماجاء فى بقية النص فى قوله « وقيل ان لفظة هنبوتى وهنباتى ، وهو سارق الإبل .... » فهو هنا يحدد المعنى بصورة أكثر دقة اذ يقول بان الهمباتى هو سارق الابل . وهناك بالطبع ، فرق بين أن يختص إنسان بنهب الإبل ولاتمتد يده الى غيرها

---

١ — الدكتور عون الشريف قاسم ، قاموس اللهجة العامية فى السودان ، شعبة ابحاث السودان ١٩٧٢ ص ٨١٩

وبين ان ينهب الشخص كل مايقع فى طريقه . وهذا يدلنا على ان المعنى الذى أعطـاه القاموس للفظى الهمبته والهمباته هو تعريف ناقص ، لأن عبارة « طريقة فى الحياة تقوم على سلب أموال الأغنياء »توسع دائرة المعنى لتدخل فيها من الأموال غير الأبل وحتى إضافة عبارة « كما كان يفعل صعاليك العرب » لاتضيف للمعنى جديداً بل تزيده ابهاماً وغموضاً — لأن الصعلكة فى الجاهلية كانت تقوم على سلب ونهب أموال الأغنياء بكل أنواعها ، وان كان الغالب فيها هو نهب الإبل . (١) ولذلك فإن المعنى المشار اليه ينطبق على جماعة « الصعاليك » أكثر من انطباقه على جماعة « الهمباته » . هذا « وكان الصعاليك طائفة من قطاع الطرق كانوا منتشرين فى أرجاء الجزيرة العربية ينهبون من يلقونه فى صحرائها ويتخطفونه ويأكلون ماله » (٢)

(٢) الهمبـــاته : —

يخطو القاموس خطوة كبيرة نحو المعنى المراد بالهمباته حين يقول : « والجمـــاعة همباته وهى تطلق على من يتخـــذ هذه الحرفة خاصة سرقة الجمال . » وكان ينبغى أن يقول « وهى سرقة الجمال » بدلا من « خاصة سرقة الجمال » وهو أوشك ان يقول ذلك !

وهناك محاولات أخرى للتعريف بالهمباته . ومن هذه المحاولات ماورد فى كتاب « التراث الشعبى لقبيلة البطاحين » حيث جاء فى الحديث عن المهاجره « وهم لصوص الإبل » (٣) . وفى مقال بمجلة الخرطوم لعلى احمد صديق جاء ان الهمباته :— « هم جماعة من مختلف القبائل أشداء وشجعان مسلحون كان ديدنهم نهب الإبل لجمع المال بكافة السبل » (٤) . وفى هذا التعريف الأخير شيء من الدقة .

ان الهمبته — فى نظرنا — هى طريقة فى الحياة تقوم على نهب وسلب الابل — والذى يمارسها يسمى « همباتى والجماعة همباته » . أما كيف توصلنا الى هذا التعريف

١ — الدكتور يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩م ص ١٤٨ .
٢ — الشعراء الصعاليك ص ٢٤.
٣ — الطيب محمد الطيب ، التراث الشعبى لقبيلة البطاحين ، معهد الدراسات الافريقية والآسيوية ١٩٧١م ص ٦ .
٤ — مجلة الخرطوم عدد ديسمبر ١٩٦٩م مقال لعلى أحمد صديق ، ص ٦ .

فإننا استخلصناه من شعر هذه الجماعة ومن الروايات الشفوية التى تتحدث عن الهمبتــه وجماعة الهمباته . وهذا طرف من تلك الأشعار والروايات والقصص التى تروى عنهم :—

١ — أشعـــارهم :

يقول الطيب ود ضحوية : —

يُومَاً فى بَسِط (١) عِنْد المُزَنْد عَــاجَه (٢)
ويوَم غَربْتَبِين (٣) مِنْ جَبْره (٤) شَايِل كَاجَه (٥)
لاتْهاد دِنْيى يافبْطِى السِّجِن مُو(٦) حَــاجَه
بيَشْ (٧) نَرْضيهَا غيرَ الْبل جَدَايْة البَاجَه (٨)

فهذه المحبوبة التى تشبه الظبية التى ترعى فى أرض يغطيها الماء والكلأ ، ليس هناك سبيل يكسب رضاها غــير الإبل . ومادام هو يسعى دائما ليحتفظ بمحبوبته راضية ومتعلقة له ، فان التهديد والوعيد لن يقف بينه وبين تحقيق مايصبوا إليه وهو رضاء المحبوبة ، أما الوسيلة الى ذلك فهى نهب الابل ، ويقول أيضاً : —

يُوَم جَالْسِين مع الدِّيقَة (٩) البَقود حِرْتيهَا (١٠)
ونِيَاة بنَقْرن أم شَعَفَة ونَشق بَى التِّيهَا (١١)

و« أم شعفة » كناية عن الناقة . ويقول فى موضع آخر : —

١ — بسط : فرح وطرب
٢ — العاج : السوار وهو حلية تلبسه المرأة فى زندها أو معصمها والمزند عاجه كناية عن امتلاء الجسم
٣ — غربتبن : أى سرت بهن ناحية الغرب
٤ — جبره : مكان فى منطقة الكبابيش
٥ — كاجه : قبيلة فى كردفان
٦ — مو : بمعنى ليس وتعنى لا أيضا .
٧ — بيش : بأى شىء ويقولون ايش يعنون أى شىء
٨ — جداية الباجه : الظبية . والباجه : الأرض المنخفضة التى بها الماء والكلأ — وهى أيضا الخلاء
٩ — الديقه : الصيد البكره
١٠ — حرتيها : الحرب : الشعر . (١١) التيها : الخلاء

الْكَة (١) البَتِل (٣) ايدُو زمكضمْ (٣) سيَفُـو
وَاسقى انياقو (٤) مين تَرْعة(٥) وَسَدْ زْبى قَيفُو(٦)
فِي تقطّــع (٧) مَجَالِسْ هتمَّلَنْ من صَيفـو
يوَم بَعَتَنَالُو (٨) بى السَاحِرْ (٩) وابزَعِلْ كيَفُو(١٠)

والشاهد فى قوله « واسقى نياقو » اذ ان انياق هى جمع ناقة . فهو هنا يتحدث عن ذلك الذى أهمل إبله بعد ان أوردها الماء وأنشغل عنها بالحديث فى المجالس — ومثل هذا سوف ينقض عليه فى يوم من الأيام فيفسد عليه مزاجه ويدخل القلق الى نفسه . ويقول آخر : —

واخدِين فِي البيُوتْ بى فَرُوج الجَداد (١١) بِرْضُوهِـنْ
واخدِينْ (المبيُكْرات) بى القَوافِى (١٢) مَلوهِـنْ
حَدْ الإنجليز قَطَعُوا بى السَكَه (١٣) ماسَاموهِـنْ (١٤)
وَقَفَنْ زومه (١٥) ياحَسَنْ (١٦) العِليقاتْ (١٧) جوهِـنْ

والشاهد فى قوله « العليقات جوهن » . فالعليقات ومفردها (عليقى) هى قبيلة شمالية مشهورة ببيع الجمال . وقال الكاهلى : —

١ — الكه : المغلق الذهن
٢ — تل : هز ومال وتمدح المرأة بتل اليد
٣ — كضم : ضم فاه وسكت (٤) أنياقو : أنياق جمع ناقه
٥ — ترعه : بركة الماء
٦ — تقطع : من قطع فيه : اغتابه ومنها القطيعة وهى الاغتياب .
٧ — بعتالو : من عتى : قصد
٨ — قيف : شاطىء النهر حيث يقف الانسان
٩ — الساحر : أحمد جمال الطيب ود ضحوية
١٠ — الكيف : المزاج والسرور
١١ — فروج الجداد : الفروج فرخ الدجاج . والجداد الدجاج
١٢ — القوافى : القيافى (١٣) السكه : الطريق
١٤ — ساموهن : سام الشى : عرضه للبيع
١٥ — زومه : متجمع ومتشابك (١٦) حسن : زميل الشاعر
١٧ — العليقات : قبيلة شماليه مشهورة .

نَاس عبد الله علّوا وْشَدوا فَوقْ تياس (١)
بقِيتْ حَيْران وزَهْجَان (٢) مِنْ خِدمةْ الفاس
ألبَكْره (٣) العَلى جيهةْ الجُبالْ يا أبْ راس (٤)
بنْجِيبها لى الحَجبُوها (٥) مِنْ عين الحَسُودْ والنّاس

هذا على سبيل المثال لا الحصر — فكل شعرهم يتحدث عن نهبهم وسعيهم الدائب لارضاء محبوباتهم اللاتى يكمن رضاؤهن فى جلب الإبل مقياس الثراء فى مجتمعهم .

أما قصصهم فيكفى أن نورد منها هذه القصة دلالة قاطعة على انهم لاينهبون غير الإبل. يقول الراوى وهو يحكى عن السريرى أحد همباتة الكواهلة : « قالوا جاء وشافْ ليهُو حرَكةْ عِرِس فى حِلة بَدْرِى . وبعَدين مَعَاهُو رفيقاً لى . قال لى النقيل هنى — النشوف السيره (٦) نستناها (٧) قالْ لى : آزول إنتَ آزول مسحبْ (٨) وآنتَ آزول الحكُومَة كايسَة ليك ومِستنى شنُو فِي العِرس ؟ . قالْ لى : لا كدى ألنَستنا امكن السّيرُه تَجِى ويجَن فُوقها بناتاً سمحات نهز فُوقهن ياأخى ونخرت (٩) لينا دَهَب ونقُوت. قال لى: آزول دِى مابنقدر نسيها(١٠)قال لى: على الطلاق الا أسيها أنا — بس أنت أمسك لى الجمال . عندو من السلاح بندقيــة أب جقرَه (١١) وعندو سيف وعِندو درقة وعِندو فرار(١٢)يشيلو فى جراب(١٣) يكسر بِى يحطب بيهو

١ — تياس : جمع تيس وهوالجمل .
٢ — حيران : من حار فى أمره اذا جهل وجه الصواب فيه
٣ — البكره : الصغيرة من الابل
٤ — أب راس : الجمل
٥ — حجب : أفقى وحفظ
٦ — السيره : من سار العريس اذا ذهب فى زفة الى بيت العروس
٧ — نستناها : ننتظرها .
٨ — مسحب : هارب ومطلوب القبض عليه .
٩ — نخرت المال : انتزعه دون حق
١٠ — نسيها : من سوى : عمل .
١١ — أب جقره : سلاح نارى قديم
١٢ — فرار : فأس
١٣ — جراب : وعاء من جلد

شان يسوىْ الجبنة (١) ينجض لحـم ، يسوى بليلة (٢) عشان ياكل بى فى الخلاء .
وعنْدُو سكّينو . قال: لبس سكّينو وشال سيفو وشال دَرَقتو وقال لى امسك الجمال.
والسّيَرة جات .

قال : مشى هزّ فوقهن وضرب ليهُم طلقة داير يوريهم معنى أنو البندقية صالحـة للاستعمال . ودخّل فيها الطلقة الثانية ومشى على النسْوان واحدة عندها زمام شالُو . ديك عندها فدوه (٣) شالَـها ، عندهن سوار شالـهن ، بس العجبو عندهن عِدّتيهن شالها . والناس زحوا منو . أمر الناس بأنو يزحُوا بعيد ـ الرجال وزحوا بعيد من النساء وسوى الحركة دى . واخُو هو بارك هناك بى جَملُو حتو هو ماساك بُنْدقيتُو نامين (٤) شالهن واتقدم . قال لى : آزول جيب الفروة (٥) ، لى أخو هو المعاه . دا جابْ لى الفَروَه قال ليهن : آبنات أعمى والله بسْ أنا قصْدى منكنْ تعرفنْ إنكن الرّجال المعاكن ديل ماهُم كفايه . وانْتن تدقنْ لهُم فى الدلّوكة (٦) وتعرّضْن فيهُم . ديل نسْوان زيكن . أنا ما بشيل عدّتكن دحين أنا هـدْ طرَفى منها حرَم تجنْ تشيلن عدّتكن لاكينْ داير ساىْ أوريكن . إنْت ودْ العشا وانْتَ ودْ المرور إنْت كدى كتباها ليهن جنْ شالن عدّتهن وفاتنْ . (٧)

هذه القصة تقف برهاناً على ان الهمباته لم يكونوا ينهبون كل مايصادفهم كما كان يفعل صعاليك العرب فى العصر الجاهلى ـ الذين كانوا يتعرضون للقوافل التجارية ـ ويتعرضون لكل من يسوقه حظه العاثر الى مناطق تربصهم . الهمباته ينهبون الإبـل ولايرضون بغيرها بديلا ولايسعون الى مادونها من الاموال ، بل ويحتقرون من يتعرض لغير الإبل ـ ويعتبرون ان عمله هو سرقة وحراما بينما يرون فى عملهم فروسية وحلالا.

١ ـ الجبنه : القهوه
٢ ـ بليله : الذره وغيرها من الحبوب يبل وينغل فيؤكل .
٣ ـ فدوه : حلقه تلبس فى أعلى العنق .
٤ ـ نامن : حتى .
٥ ـ فروه : جلد الشاه أو البقره يدبغ مع الاحتفاظ بصوفه ويتخذ للجلوس عليه
٦ ـ الدلوكه : نوع خاص من الطبول يستعمل فى الافراح .
٧ ـ أرشيف معهد الدراسات الافريقية والآسيوية شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٢ .

وقد كانت الابل هى مادة الصراع بين أصحاب المخائض والهمباته لانها الثروة الأساسية فى المجتمع البدوى ـ وهى كانت كذلك بالنسبة للصعاليك ـ ولكن عند الصعاليك لم تكن الابل هى الثروة الوحيدة التى دار حولها الصراع فان ايدى الصعاليك لم تكن تمتنع عن أية غنيمة تعرض لهم ، وان كانت أخبارهم وأشعارهم تحفل بالحديث عن تعرضهم للإبل ونهبها (١) .

وفى الرد على التساؤل حول ما ينهبه الهمباته ، كانت الاجابات كلها تقول بأنهم ينهبون الابل ولاينهبون غـيرها . ومن تسع رواة اجابوا على هذا السؤال ، أضاف أثنان فقط أن الهمباته ينهبون الرقيق كذلك . وهذا لايؤثر على القاعدة ـ اذ ان القاعدة هى أن الهمباتى هو الذى ينهب الإبل كما وضح فيما سقناه من شعر وقصة وفى الاجابات علـى السؤال السابق .

ان الذى نرمى إليه من وراء ذلك كـله هو أن نصل الى تعريف جامع مانـع لهذه الجماعة وطريقة حياتها . واعتقد إننا الآن فى وضع يمكننا من وضع تعريف مناسب فقد عرفنا أن الهمبته هى نهب وسلب الابل ، والذى يقوم بذلك يسمى « همباتى » وأن مسرحها بوادى السودان . واذن نستطيع أن نقول بـأن « الهمباته جماعة من مختلف القبائل البدوية فى السودان تقوم بنهب وسلب الابل وتفتخر بذلك . ويعرف هذا السلوك القائم على النهب والسلب بـ(الهمبته) . وللهمبته قواعد خاصة يلتزم بها المشتغلون بها ولها قيمها وشعرها الخاص المعبر عنها . ومن خلال هذا الشعر تنعكس صورة حياة الهمباته بكل مافيها من مغامرات وركوب للأخطار ، كما تبرز من خلال هذا الشعر قيم هذه الجماعة ومواقفها من الحياة ولم يغفل هذا الشعر عن كشف الدوافع وراء هذا النوع من السلوك .

بقى أن نعرف مصدر لفظ « همبته وهمباته » . ومصدره كما يظهر من الأدلة التى سنوردها ، هو غرب السودان . ولكن هذه التسمية وجدت من الشيوع والتداول مانفى عنها صيغة المحلية ، فصار الناس يعرفون هذه الجماعة بالهمباته بينما ظلت الألفـاظ الأخرى الدالة عليها ، محلية الإستعمال . ولايمكن هنا أن نغفل عن دور أجهزة الاعلام فى ترويج لفظ « الهمباته » وسيادته على غيره .

١ ـ الشعراء الصعاليك ص ١٤٨ .

ودليلنا على ان مصدر تلك التسمية هو غرب السودان هو أن كل الذين طرح عليهم السؤال عن الاسم الحقيقى لهذه الجماعة فى منطقة البطانة ، أجابوا بأن أصل لفظ « همباته » هو من الغرب . ومن أمثلة تلك الردود : ألهمباته دِى من الغرب ...... يقُولوا لك دا همباتى ماهُولَنا » (١) ، الهمبــاته سمعناها بــى الغرب ، اعندنا (٢) بعدين مسألة همباتى وكدِى دى نحن زمان بنَسْمع بيها حقَيقتها زَىْ جايانه من لى وراء يعنى زَىْ من غرب السودان . » (٣)

وفى منطقة كردفان يسمونهم « الهمباته » فقد وردت كثير من الاشارات اليهم بهذا الأسم فى شعر قبيلة حمر الشعبى ، رغم أن الحمر يطلقون عليهم اسما غير هذا — إذ يسمونهم « السراجة » والكلمتان مستعملتان معا إلا أنهم يستعملون « السراجة » أكثر من الهمباته . ومن الاشارات قول النساء فى الحسيس (٤) :

كركـر دود العصـير (٥)

همباتــه ســاروا بــى الليـل

تنــبر جـد أم سـير

تنــبر جـد أم سـير

والمرأة أكثر الناس تأثيراً فى حياة الهمباتى وتأثرا بها — منه أيضاً قولهن

همــباتــه شايلـــين الحـــلا (٦)

سيد أب روحـين ولاتجونى بـــلاه

مما تغنت به النساء أيضاً :

ألدُّومة وَدْ قَنْدُول (٧) تَغْدَّنْ بى الصُّقُورْ

ألسَّبَقُو الطَّيار هَمبَاتَه أبُو النَّـــور (٨)

١ — الارشيف شريط رقم م / د / أ / أ / ١٩٠٣

٢ — الارشيف شريط رقم م / د / أ / أ / ١٩٠٥

٣ — الارشيف شريط رقم م / د / أ / أ / ١٩٠٢

٤ — الحسيس : ضرب من الغناء الشعبى فى كردفان بعضهم يقول الحسيس والهزيز

٥ — محمد أحمد ابراهيم : ملامح من التراث الشعبى لقبيلة حمر شعبة ابحاث السودان ١٩٧١ م ص ١٤٤

٦ — نفس المصدر

٧ — الدومة ود قندول : أحد الهمباته فى منطقة حمر .

٨ — ابو النور : أبوالنور اسم قرية .

السَّراجَه :—

فى القاموس (١) : « سراجه (غرب) الهمباته : لصوص الابل لأنهم يركبون سروج الابل دائماً ويسمون أيضاً السروجية . قالت المغنية الحمرية :

منْبارِى الســراجه

كان مت مش حاجة !

والسراجه أو السروجيه هو اللفظ الذى يميز الجماعة التى تعمل فى نهب وسلب الإبل فى قبيلة حمر . وواضح ان اللفظ مشتق من السرج » وهو الرحل . فسموا السراجه » لمداومتهم الركوب على السرج أى هم المداومون على السرج .

يقول الراوى : « لاكين مِنْ جاتْ التركيه — السلطه الزرقاء انْتَهتْ ، ضَلت (ظلت) مَغَارَاتْ سَاكِتْ يا السَّرَاجه دِيل . أَحْنَا (نحن) مَنْقُول ليهُم السَّراجَه ديل الهَمْبَاتهْ . ويقول فى موضع آخر : « نِحْنَ نقُولُو لى السَّراريق دى السَّراجه . ويقول عن سبب تسميتهم بالسراجه : « سَمُّوهم السَّراجَه عَشَانْ بِرْكَبُوا فــى السُّروج وُجمالْنهُم صُهْب (٢) وُبشَارِيَاتْ (٣) وُكان طَردوهُم بِسْبقُوا وكان طَردُوا بِلْحَقُوا دِىَ إسمْهُم ألسَّراجَة (٤) ومما ورد فى الشعر قول أحدهم :—

بَشُوفْ السَّراجَة رِكْبتْ فَرّتْ (٥)

بَشُـــوفْ شِيخكُم ألليله فوقْ ألعَنَابِرْ بَيَتْ (٦)

فهذا أحدهم وقد ألقى به فى غياهب السجن يتخيل زملاءه وقد اعتلوا ظهور جمالهم وانتشروا فى الأرض يبحثون عن الغنائم بينما هو يقضى ليله فى السجن وبه حنين اليهم .

يقول راوى آخر : « الهمباتى دى أسمه السروجى ، السروجى البركب دا أسمه الهمباتى » ويقول عن سبب تسميته بالسروجى « عشان بنهب ، عشان بشد جمل يومى بركب » .

١ — قاموس اللهجة العامية فى السودان ص ٣٤٧ .

٢ — صهب : جمع أصهب : الذى يخالط لونه حمرة

٣ — بشاريات : نسبة الى قبيلة البشارين فى شرق السودان

٤ — الارشيف شريط رقم أد/أ/أ/١٨٩٦

٥ — فرت : فر : سرح وانطلق يمرح

٦ — العنابر : جمع عنبر حجره فى مستشفى ونحوه ويقصد هنا عنابر السجن .

سروجي
من هنا يتضح أن لفظ « السراجه » أو « السروجيه » ومفردها سراجي سروجي يعني الذي يعمل في نهب وسلب الإبل . وهي تتفق في معناها مع لفظ « الهمباته » أي أن السراجة في حمر هم الهمباته .

المَهَاجْرَه : —

في القاموس : « مهجر (س) سرق ونهب وخاصة البقر والإبل . مهاجراوي (س) مهجراوي (بطانة) الذي يهاجر طلباً للسلب والنهب ويفتخر بذلك قال احدهم :—

لا يجيبوا الإبل الا أولاد مهاجره وزادهم الدخان (١)

من هذا النص : مهجر تعني نهب وسلب البقر والإبل والذي يقوم بذلك مهاجراوي أو مهجراوي . والمهاجره في منطقة البطانه هم الهمباته أي الذين يقومون بنهب وسلب الإبل ويتخذون من ذلك حرفة هذا وقد حفل شعرهم هم انفسهم بالافتخار بما يقومون به من عمل وبخصائل جماعتهم ومن ذلك قول أحدهم :—

إتملّى البحير واطّامَنُوا العجمَان (٢)
أنا في سدّر الحويري كَمْ جبتهن أقْرَان
مابيجيبوهن جتنوا بيرعوا الضّان
إلا أولاد مهاجْره وزادهم الدّخان

« العجمان » هنا إشارة الى الهدندوة و « البحير » من البحر وهو نهر عطبرة و « الحويرى » جمله . فهو يفتخر بأن الابل لا يقوى على الاتيان بها الا المهاجره أما أولئك الذين يعملون في رعي الضأن فلا طاقة لهم بدروبها ومسالكها الوعرة المحفوفة بالمخاطر .

ومما يروى أن الطيب ود ضحوية كان في منطقة ما وقد حدث ان قبض على بعض المتهمين بسرقة بعض الإبل . وفي أثناء التحقيق تخاذل المتهمون وذكروا انهم أضاعوا المال الذي حصلوا عليه بعد بيع الجمال في بيت إحدى الإماء وتدعى « شمة » ولم يعجب الطيب هذا التصرف من هؤلاء الناس فأنشأ يقول :—

جنيات المهاجره المابختوا (٣) الشّمتنة (٤)

١ — قاموس اللهجة العامية في السودان . ص ٨٠٦ .
٢ — الدكتور عزالدين اسماعيل الشعر القومي في السودان ، بيروت ١٩٦٨م ص ٢١٦ (٣)ختّ : وضع
٤ — الشمته : من شمت بفلان اذا فرح ببليته .

عند الحاره (١) مايطروا الجلوس (٢) والسمته (٣)
حلف بي الله العظيم وبي الذات العليه قسمت
مايجيب شمه (٤) لي حللي ان بقي اتقسمت

ويروى أيضاً ان احد هؤلاء المهاجره ويدعى « المكيدي » أراد أحد ابناء عمومته الخروج معه فحذره ولكنه أصر . ولما أدركهم أصحاب الإبل « الفزع » لم يقو إبن عمه هذا على تحمل الموقف ، فظهر عليه الفزع والخوف والارتباك .وهنا أنشأ المكيدي مفتخراً بجماعته(٥)

جنيات الزمن ما بيحماوا الأدراك (٦)
ولمن (٧) كان بقول يامكيدي سوقني معاك
بكيرات (٨) البشاري البرعن شقوق الباك (٩)
بيجيبوهن مهاجره وزادهم التمباك

ومن شعرهم ايضاً : —

ياساتر على ركب المهاجره اللفوا
وبلتموا الغنماه في نياق البدان يشفوا (١٠)
بسوقوا (أم دانقيس) الريشها الهبوب بزفوا (١١)
يصبح سيده يخمش في التراب ويسفوا

والدليل الثاني على ان اللفظ الدال على الهمباته في منطقة البطانة هو « المهاجره » رواياتهم — ففي منطقة الجعليين يقول أحد الرواة : « بنقول نحن المهاجره .... سميناهم مهاجره على شان شادين سمح وراكبين سمح وهدومهم (١٢)

١ — الحاره : الحرب وكل أمر صعب (٢) الجلوس : المجالس
٣ — السمته : الوقفه الكريمة والسماح والشرف .
٤ — شمه : احدى الغواني
٥ — من بحث لعبدالسلام سليمان سعد في مسابقة السلماني .
٦ — الأدراك : الأخطار (٧) لمن : عندما
٨ — بكيرات : جمع بكره وهي الصغيره من الابل .
٩ — شقولا الباك : الشقوق جمع شق وهو فتحة الوادي والسهل . والباك مكان بعينه في شرق السودان .
١٠ — تشفى من فلان : اذا انكى في عدوه نكاية تسره
١١ — زف : أسرع
١٢ — هدوم : ملابس

سَمْحات وَحالتُهم كُلّها كُوَيْسَة » (١). وجميع روايات الكواهلة والبطاحين تدعوهم « المهاجره » . وهناك من يقول « المهاجريه » والمفرد « مهجراوى » — وهناك من يقول « مهاجرى » « ومهجارى » . يقول أحد الرواة « الأصل مَتَهْجَراوِى » . مَهْجَراوى دى تَحَنْب لى مَعَنَاها ، لى حَرامِى أحْسَن مِنْ يِقُولُوا حَرامى شازة (٢) لاكِين لامِنْ يقول مَهْجَراوى مَعَنَاها ألزّول اليمَهْجِر وِيجيب بى المَهْجَر هيل الغَيْرُو فَسَمّوهُم كَدِى » (٣) . وعن سبب تسميتهم بالمهاجره يقول راو آخر : « ألمَهَاجْرَه . مابين المَهْجَراوى والسّراق فِى فَرِق . أولا السّراق دا بِبْرَى (٤) بِى هِنَا وِبِبْرَى بى هِنِى يِقُولُوا السّراق . وِياكِين المَهْجَراوى دا مِكرّب جَملُوا ، بُنْدِقيتو وِسِيفُو ودَرَقْتُو وِطاش (٥) بى الخلاء » (٦)

يلاحظ فى هذا النص الأخير أن المتحدث ركز على التفريق بين المهجراوى واللص . فاللص هو الذى يأتى فى الخفاء مستتراً بالظلام أو غيره . ومنطقة نشاطه محدودة النطاق، ولكن المهجراوى غير ذلك . فهو المتسلح الضارب فى الفيافى والقفار . وهو الذى لايعد عمله هذا سرقة وانما هو دليل الشجاعة والقوة والفروسية .

النُهّــاض : —

فى منطقة البطانة يطلق على جماعة الهمباته أيضاً اسم « النهاض والنهاضين » والمصدر منها « النهيض » . جاء فى القاموس « نهيض (س) القيام لسفر أو لغارة . قال ود ضحوية يهجو : —

ماضاق النهيض والشقة بى العتمور

والنهاض هو الهمباتى أو المهجراوى . قال البطحانى : —

نحن اتنين نهاضين (٧)

١ — الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٩

٢ — شازه : شاذة

٣ — الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٢

٤ — ببرى : من بارى : اقتفى أثره وتبعه .

٥ — طاش : من طش : تاه وذهب على غير هدى

٦ — الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠١ .

٧ — قاموس اللهجة العامية فى السودان ص ٧٩٣

النهيض المشار إليه فى الشطره الأولى هو الهمبته أو المهجر أى الخروج بغرض نهب وسلب الإبل . يقول الراوى : ألطَيّب أبُو هُو أكان بَراهُو النهيض جربو » . ويقول معلقا على بعض الأسماء التى وردت فى مثل حديثه عن أشهر المهاجرة « ديل كُلّهُم أكانُوا أوّل يَعَنِي نَاس نُهّاض (١) » . ويقول راو من البطاحين : « داك يقُولُوا مهْجَارى وِنَهّاض .» يعنى الذى ينهب الإبل . ويقول بأن غير هذا يقال له « ســراق » . (٢) .

أما النهيض بمعنى الهمبته فيرد كثيراً فى شعر الهمباته ومن ذلك قول الطيب ود ضحــوية : —

جِنْيات(٣) ألزّمن خَرَبُو (٤) ألنهِيض ياعَبْيدْ (٥)
وِيــاتْ مِــنْ بِقُــول لىَ أمْــومانِى وْليــدْ
لاتَحَسْبُــوهُوا سَــوق ألبِــل تِكتّــل صَيــدْ
كاسْيات ألرجــال مِــن ألّلبَــد (٦) والقيـــد

يخاطب زميله « عبيد » قائلا : ان شباب هذا الزمن أساءوا الى هذه الحرفة (خربواالنهيض) — وذلك — طبعا — بعدم التزامهم بأسسها وخرقهم لقيمها . ودليل الفوضى التى حدثت فى عالم النهيض أن كل من هب ودب أراد أن يكون « نهاضاً » . واذا كان أولئك يعتقدون أن النهيض لايعدو ان يكون مجرد صيد فقط أخطأوا التقدير فهو يحتاج الى القوة والشجاعة والصمامة وذلك ما يفتقر إليه هؤلاء .

وهنا لابد ان نلاحظ أن الشاعر قد جعل النهيض يعادل « سوق ألبل » والمقصود « بالسوق » هنا النهب والسلب . فالنهيض اذن هو « سوق ألبل » — فهو الهمبته — وبذلك تكون الهمبته هى « سوق الإبل » . وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه فى معنى الهمبته .

١ — الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٩

٢ — الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥٠ .

٣ — جنيات : جمع جنى : الشاب

٤ — خرب : أفسد الشىء وغير مظهره

٥ — عبيد : أحد زملاء الشاعر

٦ — اللبد : جمع لبده : ما يجعل على ظهر الفرس تحت السرج .

يقول الشاعر الهمباتى الآخر : —

جنيات الزمن ألْ لى الغنَيم (١) يدَبُّوا (٢)
ماضاقُوا (٣) النَهيض فوقْ البِرّدْ خَبُّو (٤)
ألسَاحِرْ (٥) قبَضْ بَكَرْ الدَرِب يلْعَبْ بُو
طَالِبْ الأدْعَجْ الكَبْدَه العَسَيْنَه (٦) مَهَبْو

ومرة أخرى تأتى المقارنة بين شباب الزمن وبين النهاضين الأصليين . فبينما هؤلاء — يتلصصون لسرقة الأغنام ، كان أولئك ينهضون على ظهر ذلك الجمل القوى السريع . وفى هذا اجابه على السؤال عن كيف « خرب » أبناء هذا الزمن النهيض — والسبب هو سرقتهم لغير الإبل لأن هذا يعد خرقاً لقوانين الهمبته وخروجاً عن قاعدتها الأساسية وهى الاقتصار على نهب الابل . ومن الناحية الاخرى هو خرق لقاعدتها الثانية وهى العلانية فى النهب . اذ ان شباب اليوم أخذوا يجثون خفية « يدبوا » وكل ذلك خروج عن الهمبته ويعتبر عيباً كبيراً فى عرفها .

حكى لى بعضهم• أن احد المهاجره من الشكرية حضر الى رفاعة ووجد بعض الشبان يزرعون فى « الجروف » . فوقف معهم وسألهم عما اذا كانت هذه هى حرفتهم فعلا ؟ فأجابوا بالايجاب . فقال فى ذلك : —

ألْجِنّيَاتْ ألْبِتْغنّى وَصنْعَتَها أنْمَارُوقْ (٧)
وماوبَطُوا البِلاوى لى النَهيض وَالسُوقْ
بِنْدايهن عطَاشْ مِنْ العَتَامِيرْ (٨) فُسوقْ
بِنْبِيع بى قَلِيلْ ما بِنْصَنْع ورَقْ فى سوقْ (٩)

---

١ — الغنيم : الغنم وهى الشاه .
٢ — دب : تدبى : مشى كالحيه أو على الرجلين واليدين
٣ — ضاق : ذاق وجرب . (٤) الخب : المشى السريع .
٥ — الساحر : اسم الجمل .
٦ — العسينه : من العسين وهو ضرب من الشجر أخضر
• حكى لى هذه الواقعه الشيخ محمد أحمد حسن (الحمى) .
٧ — الماروق : الروث يتخذ سباخا للزرع .
٨ — العتامير : جمع عتمور وهو الصحراء .
٩ — يعنى أنهم لا يتقيدون بطرق البيع السائده بل يتجنبون البيع فى الأسواق كما أنهم لا يطلبون ثمنا غالياً

هذا إفتخار بحرفته وهى « النهيض » وإحتقار واستهجان لمهنة الزراعة التى امتهنها أولئك الشبان — وذلك كثير فى شعرهم . ونلاحظ هنا أيضاً ورود كلمة « السوق » التى جاءت أيضاً معادلة لكلمة « النهيض »

ميزاتهم ومواقفهم : —

الهمباته رجال أقوياء وشجعان جردوا أنفسهم للغزو والإغارة بغرض نهب وسلب الإبل . واتخذوا من بوادى السودان مسرحا لنشاطهم . واشتهرت باديتا البطانة وكردفان على وجه الخصوص ، بوجود هذا النوع من الرجال بين قبائلها .

لم يكن الهمباته فقراء فى حياتهم . ولذلك فان الحديث عن الفقر فى شعرهم وحياتهم قليل . فلم يقل أحد منهم أنه خرج ينهب ويسلب لأن الجوع قد امتص امعاءه ولم يكن المجتمع ظالما لهم ليبادلوه العداء كما فعل صعاليك العرب . بل كان مجتمع القبيلة يحتوى الفرد منهم ويقره على عمله بل ويحرضه عليه . وكانت تقاليد القبيلة تدفع أفرادها دفعاً لانتهاج هذا النهج فى الحياة . وكانت المرأة سوط عذاب على من يحيا حياة القعود . بل ان القبائل تتفاخر بوجود هذا الصنف من الناس بين أفرادها وتحتفل بهم حين يعودون بعد رحلة موفقة . وكل هذا سوف يتضح لنا بصورة أكثر وضوحاً حين نتحدث عن دوافع الهمبته وأسباب نشأتها .

وازاء نظرة القبيلة والمرأة لهذا الموضوع ، كان الهمباته أمام أمرين : فأما ان يسعوا بالقوة لارضاء القبيلة والمرأة وأما ان يرضوا بالاحتقار وتقليل الشأن . ولكن نفس البدوى أقوى من أن تقبل الذل أو الإحتقار ، والبدوى يعيش حياة قوامها عدم الاستقرار والجفاف فى كل شىء . وهى حياة محببة الى نفسه ، فهو يبغض حياة الاستقرار وكل ما يتصل بها من عمل ويؤمن بأن حياة الرعى والصيد والنهب هى الحياة المثالية . وهذه الأعمال هى وحدها التى تليق بالرجال اما عداها فهو عمل الضعاف . ومن هنا كانت حياة البدو تعتمد على الرعى وهى ثروة غير مضمونه . وحياة كهذه جعلت مقياس الثراء هو ضخامة العدد الذى يملكه الفرد من الإبل . والمرأة فى المجتمع البدوى تهوى صاحب المخائض وتغنى له وتقبله خطيباً وزوجاً وعشيقاً . وهذا ماوجدته فى شخصية الرجل الهمباتى الذى يمتاز

بالقوه والشجاعة ويمتهن مهنه ذات عائد مضمون رغم انها محفوفة بالمخاطر .

وهكذا فان البادية كانت هي مسرح نشاط هذه الفئة ولكنهم على وفاق مع قبائلهم فهم لذلك لايتعرضون لها بنهب ، كما انهم لا يتعرضون لنهب جيرانهم وهذا حدد حركة نشاطهم واتجاهها . وهي حركة ليست ذات اتجاه واحد محدد . فلم تكن حركتهم تتجه مثلا ، من الشرق الى الغرب ، أو من الغرب نحو الشرق ، كما زعم الدكتور عزالدين إسماعيل حين قال : «ومع ذلك ففي إستطاعتنا أن ندعي من خلال تفحصنا لشعرالنهاضين ان حركتهم تتجه من الغرب نحو الشرق ، ولاغرابة في هذا اذا كنا نعرف أيضاً أن المواوير والقريات بصفة خاصة من العرب الرحل في غرب السودان هم أصل كثير من النهاضين (١)». ويحكى كثير من هؤلاء الهمباته مغامرات لهم بين مختلف القبائل . فهم مره يغزون قبائل الهدندوه والبشاريين في شرق السودان ومرة يتجهون الى قبائل الدندر والرهد :

ألدَنْدر (٢) كَرَبْ (٣) كيفْ القُعاد وَالراحـــه
أبقى لَزُومــه يابكيــرهَ البَــدُو السَــراحَه (٤)
الخ........

ومرة أخرى في أقصى الغرب :

إتوَجَهْنَـــا مِـــنْ دار بَرْتِي والبَقّـــاره (٥)
وأمسى بَنَاتِي فـــي القَلْعَـــة ام قرود (٦)لايْسَارَه
الخ......

ومرة ثالثة هم في منطقة الفونج :

شقينــا البلد لى الدالى والمــزمـــوم (٧)

١ – الشعر القومى فى السودان ص ٢١٤
٢ – الدندر : نهر الدندر
٣ – كرب : يقولون البحر كرب : اشتد فيضانه
٤ – السراحه : من سرحت البهائم : ذهبت للمرعى .
٥ – دار برتى والبقاره : أسماء قبائل فى كردفان .
٦ – القلعه ام قرود : مكان بعينه .
٧ – الدالى والمزموم : مناطق فى منطقة الفونج بمديرية النيل الأزرق .

فهم في حركة دائبة لا تتقيد بإتجاه معين : يوماً في بلاد كاجة واليوم الآخر « متوجهين دار فور » وفي اليوم التالي عند أهل « الكول والكمبو » وأخيراً يطيب المقام عند الزبيدبه في شرق السودان :

مايقســن دروب نـاس عابـــده بـــت عـــواد (١)

والواقع أن بعض هؤلاء الهمباته كانوا أكثر حركة من غيرهم . ونتيجة لذلك كانوا أشهر من غيرهم في عالم الهمبته . ولعل أصدق مثال لهذا النوع شخصيتي الطيب ود ضحوية من الجعليين ، وطه الضرير من البطاحين . فهما معروفان لدى كل القبائل التي تربى الإبل في السودان . كما انهما يذكران في شعرهما أسماء مناطق في أقصى الشرق والغرب والشمال والجنوب . وقد ذكر طه الضرير أنه وصل الى ليبيا في الغرب والحدود الحبشية – السودانية في الشرق . وهذا ماسوف نتعرض له في حديثنا عن الشهرة في الفصل الثالث من هذا الباب .

ويتميز الهمباته بصفات جسدية ونفسية معاً . ففي الناحية النفسية نجد أنهم جميعا يستهينون بالحياة في سبيل تحقيق الهدف . والموت عندهم أمر لا مفر منه . ومن شعرهم في هذا المعنى : –

ألوَلَد البِدُور فُوق القَبِيلة يِشْـكَرْ
بِخَلِف ساقُـو فوق بَنْدْ العَدُو وِيتُوكَرْ(٢)
أمَن جَابْ رُضْوَة (٣) البَهَم (٤) ألهَيجُو(٥) مَسكَرْ(٦)
وآما ابْ صَلعَه (٧) فـوقْ ضُلاعُو تيتل (٨) وُكَرْكَرْ (٩)

١ – عواد : أحد « الملا » من الزبيديه . وعابده بنته .
٢ – الوكره : المكان الموحش
٣ – رضوة : رضى .
٤ – البهم : يعنون بها الصيده الصغيرة .
٥ – الهيج : تصغير لهجه ويعنى الثغر .
٦ – مسكر : من السكر
٧ – أب صلعه : الصقر .
٨ – تيتل : مشى فى كبرياء ويخصون بها الصقور .
٩ – كركر : أحدث صوتا

ومنـه :ـ

الوَلَد البِدور فى قفَاهُو (١) ما بِشنّف (٢)
ألنّحَجم (٣) قُجة (٤) ألشّق (٥) ألطويل ومقنّف (٦)
أما بحيب رُضى السّمتانة (٧) ما بتخنّف (٨)
ولا أم رُوبة لا حوابن (٩) تكوُفتو (١٠) مصنّف (١١)

فهذا هو المبدأ : شكر القبيلة ورضاء المرأة أو الموت . فليس هناك مجال للحلول الوسـط فى حياتهم .

ومن مظاهر قوتهم النفسية كذلك عزوفهم عن الأعمال التى يرون فيها ضعفـاً وهواناً . وهذا ما عبروا عنه كثيراً فى شعرهم ـ وأكثر الأعمال التى تعرضوا لها بالتحقير والإستهجان هى الزراعة . وذلك لأنها البديل المباشر لحياة الرعى سيما ومنهم من جربها .

يقول الطيب ود ضحوية :

اللّيلة التّغمّد (١٢) يا حَسَن (١٣) مفقود
كِنز قاسِى فوق لوز التّبس (١٤) والعُود (١٥)

---

١ – القفاء : مؤخرة العنق . وهى الخلف
٢ – شنف : عاب
٣ – يحجم : من حجم يعنى يربطه عند مؤخرة الرأس .
٤ – قجة الابل : ذروة سنامها .
٥ – الشق : من لشق طاقة الجمل : رفع الخشبة التى يقع عليها السرج فوق سنام البعير لتستقر وترتاح .
٦ – قنف وأقنف : مرفوع الرأس
٧ – السمتانه : المرأة الطيبة السوية .
٨ – حنف : لام ووبخ
٩ – حولين : من حول : العام والسنه
١٠ – كوفت الشعر : ضفره ضفرا كبيرا غير متقن والضفر بهذه الطريقة (الكوفات) .
١١ – مصنف : منوع .
١٢ – التغمد : النوم
١٣ – حسن : زميل الشاعر
١٤ – التبس : القطعة من الزرع ذى السيقان حين يقطع وينشف .
١٥ – العود : الغصن بعد أن يقطع

كانْ مِى قِسْمهْ (١) يا الدَّبْقة الوَضيبة (٢) بقُود
ما خسّانا (٣) بى زَراعة ودَى مَسْعُود (٤)

ويقول أيضـاً :

كَمْ عتمرتين (٥) فوق قَجة العبادى (٦)
وكَمْ غوصتلين (٧) مِن الدّنادر وغادى (٨)
كانْ مِى قِسْمة يا الدّبقة أم قرِيناً نادى (٩)
ما خسّانا بى زراعة الفشق (١٠) و الوادى

ويقول أحد همبانة حمر :

مِن جريبان (١١) قُمنا . . . . . . جماعة
عقَدنا الشُورة صدر القوز قُصاد القاعة (١٢)
البكرة العليها الطقة و الطباعة (١٣)
أنا بعيش فيها سيبك (١٤) من هُموم ز زراعة

ولم يقف الأمر عـلى الزراعة وحدها ، بل حظيت أعمال أخرى بهذا النوع مـن التحقير . يقول الطيب ود ضحوية :ـ

---

١ – قسمه : النصيب . ما قسمه الله
٢ – الوضيب : الشعر
٣ – ما خسانا : ما خصانا : ما يهمنا
٤ – ودى مسعود : ودى تصغير وادى . ووادى مسعود أحد الأودية التى يزرع بها الصحواب
٥ – عتمر : ضرب فى الصحراء
٦ – العبادى : جمل .
٧ – غوص من غاص فى الماء اذا غطس . ويقصد البعد .
٨ – غادى : بعيد .
٩ – قرين : تصغير قرن وهو الشعر . ونادى من الندى .
١٠ – الفشق : لعلها من الفاشوق وهو جزء من الساقيه
١١ – جرنبان : بلدة فى منطقة حمر فى كردفان
١٢ – القاعة : مكان بعينه
١٣ – الطقه والطباعه : وسم لقبيله معينه
١٤ – سيبك : دعك .

صِنعتِي حَلِيبْ (٣)
أنا مانِي (١) التَنْبَلْ (٢) أل في البيتْ
بَدُور ألشدّة فوق إبلاً شوافِي (٤) ونِيبْ (٥)
إن حَرّنْ تحتْ ألشكرة ما بنعيب
وإن بَرَدَنْ نكافِين (٦) سوالفْ (٧) أم طيبْ (٨)

يمثل الكرم جانباً من ميزاتهم الحسنة. فهم يمدون أيديهم بالعطاء دائماً لأبناء عشيرتهم يكسون العريان ويطعمون الجوعان، ويعملون على حل المشاكل التي تنشأ بسبب «القروش» وكما ظهر هذا الكرم في حياتهم ، ظهر أيضا في شعرهم . فتغنوا به وأعابوا الغني البخيل وجعلوه دائماً هدفاً لغزواتهم . يقول الطيب ود ضحوية مخاطباً جمله :-

بالكْ (٩) فاضِي (١٠) في رُوبة الغُصُون (١١) بِتقلّمْ (١٢)
وبِيك مِتْملّي (١٣) يا الساحِرْ (١٤) عليكْ مِتْكلم
ألزول العلي كَشّ (١٥) النُقُود مِتْعلّم
نهجم ديرتو (١٦) في القَبْسة (١٧) ألضياها مُضلّم

---

١ – مانى : لست
٢ – التنبل : القصير القامه البليد الكسلان
٣ – حليب : من حلب الشاه اذا أخرج ما في ضرعها من اللبن
٤ – شوافى : قويات
٥ – نيب : جمع ناب وهو الناقه المسنه
٦ – كافى : جازى
٧ – سوالف : جمع سالف وهو ماتقدم من معروف واحسان
٨ – أم طيب : المرأة المعطره
٩ – بال : الخاطر والقلب
١٠ – فاضى : خالى
١١ – روبة : الشجر وتستعمل لغصون الأشجار
١٢ – قلم : قطع
١٣ – متملى : مفتخر ومعتمد
١٤ – الساحر : اسم الجمل
١٥ – كش : كش من الشيء كشه اذا أخذ منه بقدر ما يملأ يده
١٦ – الديره : المكان
١٧ – القبسه : من قبس وهو شعلة النار .

وروى طه الضرير أن الطيب ود ضحوية كان مرة في الحراسة وبدأ أحد الناس يكذب ويقول أني فعلت كذا وفعلت كذا ، التفت الطيب اليه وأنشد :-

مانِي التَنبلْ ألقاعِد بِقُول سوّيتْ (١)
وأشْهَدْ خالقِي كانْ يُوم السُعال قرّيتْ (٢)
إنْ بَرَدنْ نُقُود مانِي البَخِيل صرّيتْ (٣)
وإنْ حَرّنْ بُكار (٤) ماهِنْ صفائح زيتْ (٥)

من الناحية الأخرى كان الهمباتة يتمتعون بقدر كبير من الشجاعة والجراءة وقوة الجسد . وأخبارهم وأشعارهم خير شاهد على ذلك . ففي أخبار الطيب ود ضحوية : كانْ مرّة عِندُو جَمَل بِقولُوا عليهُو العالْيابي وجايبي مِنْ بَلد التِلْيشان راكب فوق جَمَلُو دا جَمَل فاعِلْ تارِكْ . بَعَدين ربطُوا لُو جَماعة . لمّا الجماعة ديل رَبطُوا لُو قِدّامو بِقُول لُو .. يَعنِي قالْ لَهم الدَرِبْ أزحفوا الدّرب الشي الفلاني والشي الفُلاني . سَلّوا سَحَبُوا سُيُوفْهُم وعارضُوهُوا وقايلُوهُو . هُو عَتَل جَمَلُو ونزَل عليهُم وقايلهُم . لا غايّة ألهبشُو هبشُو والجِفل جَفَل رِكِب فوق جملُو ومَشَى .

يصف الطيب هذا الحادث فيقول :-

يا العالْيابِي (٦) أختر ما عليكْ بِي الهَمْ
وأطرى (٧) المُدة عِندْ سِتكْ وأخرتْ ألزَمْ (٨)
يوم الحارّة (٩) عِند رَسنكْ بموتْ حرمْ (١٠)

---

١ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥١
٢ – السعال : السؤال . قريت من قر : اعترف
٣ – صر الصره : ربطها .
٤ – بكار : جمع بكره وهى الناقه
٥ – ماهن : لسن
٦ – العاليابى : نسبة الى العالياب وهم فرع من الجعليين
٧ – أطرى : تذكر
٨ – الزم : الزمام وهو مايزم به أى يشد مثل زمام الجمل
٩ – الحاره : الحرب والأمر الصعب
١٠ – حرم : يقولون حرم وعلى الحرام ويعنون أن المرأة طالق اذا حدث الأمر

أخلوا ألدبرة (١) أسيادك وجوه الدم (٢) ، (٣)

ومن أمثلة شجاعتهم كذلك أن أحدهم ويدعى « عثمان ود على ترتر » قد ضرب بالرصاص فى يده اليمنى فسقط سيفه فتناوله بيده اليسرى وقاتل حتى إنهارت قواه . (٤)

ومن قصص السريرى يقول الراوى : « بترضو عمنا ألحاج ود ألشيخ كان مسين و عاقل فى رواينو و صادق فى قولو. قال لى : مرة طلعونا ليهو (يعنى السريرى) فى زمن الإستعمار (٥) . ونحن كان كنا فى الهجانة (٦) . وبعدين قال لقينا هو مقيل (٧) .وقال نحن ستة جانا إشورنا قلنا : ألراجل دا كان مشينا جارينا هو (٨) بى حاجة يمكن يودر (٩) فينا وما بفيف لينا دحين أحسن نتكلموا ساكت -قال : واحد مننا قال لينا : آجماعة ما نبقى زى دوار جمل نسيتو . قال : قلنا لى : دوار جمل نسيتو شنو ؟ قال : كان لقى يغنى و كان مالقى يغنى لأنو جمل نسيبتومو موجعو كان لقاهو بجى يغنى وكان مالقاهو بجى يغنى . نحن أصلنا ما بى الحيل (١٠). دامين مرسلننا كمرة(١١) لى ود أعمنا مضاربنو فى شنو ؟. قال : هو لا من صحا قال لينا : آجماعة هى أنا جاهز وأنتو بتشاوروا على قبضى ، على الطلاق أل يمد إيدو على بندقيتو هو فى الاخرة، وأنا بعد ما أشيل تارى(١٢) أصلى - أملى لى ستة قبور قدركم ؟ أبدا دحين أصلكم كان ناس بيضاء

١ - الديره : الساحه
٢ - وجوه الدم : يطلق على « الضحواب » لشراستهم فى القتال
٣ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٧
٤ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٢
٥ - الاستعمار : يعنى الاستعمار الانجليزى فى السودان
٦ - الهجانه : العساكر الذين يركبون الجمال
٧ - مقيل : من قيل استراح فى القيلوله .
٨ - جارنياه : حاولناه
٩ - ودر الشيء : أضاعه
١٠ - الصحيح ان المثل يقول : « زى ودار جمل نسيتو كان لقى يغنى وكان ما لقى يغنى » ويقا للذى لا يهمه الأمر الذى هو فيه .
١١ - كفره : الكفار من كفر ضد آمن فهو كافر وهم كفار أو كفره
١٢ - تارى : ثارى

أختونى ، وكان ناس سوداء هسع بسودها عليكم . قال : قلنا بس ألراجل دا نعقبو . لاكين قال شوفيان ليهودا ، ألحاجة أل فى و شو دى ، ألناموس أل ليلو ألجانا ميو دا شعرنا بأنو الرجل دا يعتى نحن ألستة بغلبينا . (١). فهذا دليل على قوة هذا الرجل الأمر الذى جعل ستة من الرجال يتجنبون الوصول اليه أو محاولة تعطيله وهى المهمة الرئيسية التى أوفدوا من أجلها. ونلاحظ من الرواية أن رجال الشرطة كانوا يهابونهم ويتجنبون الصدام معهم ، رغم ما ترصد لهم من حوافز فى حالة القبض عليهم . ولكنا نلاحظ عنصرا آخر فى الموضوع حين ذكر لهم أحدهم أن هذا إبن عمهم والذين أرسلوهم للقبض عليه غرباء بل يصفهم بأنهم « كفرة »، ولذلك فلا داعى لإيذاء إبن العم . وربما كان هذا أحد المعوقات فى طريق الحد من هذه الظاهرة .

ولم يغفل الهمباتة فى شعرهم مثل هذه المواقف مع رجال الشرطة. فقد كانوا يختلقون لهم الألقاب إستهتارا و إستخفافا وسخرية وتشهيرا مثل « ناس قمبور » و « ناس طرطور » و « أبو طبيق » ، إلى غير ذلك من التسميات والألقاب . من ذلك قول الطيب ود ضحوية

كبسنوا (٢) البحر ومشلهبات (٣) يباس (٤)
والغول (٥) نوى بى الهرمة وردف عباس (٦)
النادرة (٧) ألطلع عشوانها ما لو قياس
صدوا قماحة (٨) ناس قمبور (٩) مع القصاص (١٠)

لم تكن مثل هذه المواقف تقتصر على مواجهتهم لرجال الشرطة ، بل كانت لهم مواقف مشهودة حتى داخل المحاكم وأمام المفتشين الإنجليز وغيرهم وتدل تلك المواقف

١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٢
٢ - كبس : ملأ وزحم .
٣ - شلهب : الشخص احترق من الحر أو العطش أو نحوهما .
٤ - يباس : من يبس : كان رطبا فجف.
٥ - الغول : اسم الجمل وهو من جمال الطيب ود ضحويه
٦ - عباس : زميل الشاعر ويرد ذكره كثيرا فى شعر الطيب ود ضحوية .
٧ - النادره : الموقف الطريف .
٨ - قماحه : من القماح وهو الخسارة .
٩ - قمبور : ذيل من الشعر فوق الرأس . وناس قنبور يقصد بها رجال الأمن اشارة لقبعاتهم .
١٠ - القصاص : قاص الأثر ، وتقصى أثره : تبعه .

وما دار فيها من نقاش جاد ، على أنهم على دراية واسعة بإجراءات المحاكم ومهـــام مختلف الفئات التى تعمل فى حفظ الأمن وتحقيق سيادة القانون كجهاز المخابرات مثلا ـ ولطه الضرير قصة مع المستر روبرتسون الذى كان آنذاك مفتشاً لمركز الكاملين ، تفيض بالتحدى والمواجهة القوية . ومما جاء فى هذه القصة : « المُفتّش أنا قُتْ لو يا ديـــك باحَرة إنْتَ الإنجليزى الجابَك عَيّنك إنْتَ ساكْ مفتّش ترد ظلومة السودان مِنُو ؟ والإنجليز الجابُوكْ إنْتَ بَسْ آزول جرُوك من العسكرية ختوك هِنَا . إنْــــت حَكَمْتَنى بى شِنُو؟ قال لى : بى المخابرات . قُتْ لو إنْتَ حالتو جابوك للأحكام إنْت شُفت لكْ مخابرات بِتحاكم ؟ المخابرات بَسْ تَعرف حالة الزُول ماشى كيف بيعمل كدِى . الدَخلها فى سَرِقة الأبِل شِنو ؟ » (١)

هذه القصة ترينا إلى أى مدى كانت المواجهة بين المفتشين الذين كانوا آنـــذاك يمثلون السلطتين الإدارية والقضائية ، وبين هذه الفئة المتمردة المتمرسة . فبجانب الشجاعة كانوا على علم بحدود مسئولية كل جهاز من أجهزة الحكم . فهو هنا يفرق بين عمـــل رجل المخابرات وعمل القاضى مثلا . هذا وقد كان المستر روبرتسون عنيفاً مع الهمباتة . وقد ذكر هو نفسه ذلك ، فكان يأخذهم بالعنف القانونى وغير القانونى أحياناً كثيرة ، ورغم ذلك ظل نشاطهم فى تزايد مستمر كما لاحظ هو ذلك . (٢)

وأناس هذا حالهم كان لابد أن يقعوا يوماً فى يد السلطات وأن يطبق عليهم حكم القانون . فكانوا يساقون إلى السجون لفترات تختلف بين الطول والقصر . ولكن المهم هو أنهم لم يكونوا يستسلمون أو يضعفون ، بل كانوا يسخرون من الإجراءات والأعمال التى يكلفون بها داخل السجن . ولم يكونوا يأبهون لما يلاقيهم ، بل هم يتوعدون أصحـــاب الإبل الذين جاءوا بهم إلى السجن . يقول الطيب ود ضحوية وهو فى السجن :ـ

الليلة السّجن جابْ لو إنكتامة (٣) وحرّة (٤)

١ ـ القصة كاملة فى ارشيف معهد الدراسات الافريقية والآسيوية شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥٠

٢ ـ Robertson, J, Transition in Africa, London 1974, P. 19

٣ ـ انكتامه : الكتمه وهى شدة الحر .

٤ ـ من مجلة الاذاعة والتلفزيون والمسرح ، الخميس ١١ يوليو ١٩٧٤م ص ٣١ مقال عن الطيب ود ضحوية لعلى أحمد صديق .

ونحنَ جرَارقُوا (١) حدّثْ لىَ الجنين ألبْرة
سَحار الغُروب راجينا كاضمْ (٢) . . . الجرّة (٣)
بَلحق بيك مُراح (٤) حَسْبُ الله (٥) وبَن ما فرّة (٦)

فهو يتوعد صاحب القطيع الذى جاء بسببه إلى السجن بأنه سوف يلحق به أينمـــا ذهب . ولم يكتفوا بذلك ، بل كانوا يتواصون بالصبر لأن مدة السجن محدودة سرعان ما يعودون بعدها لممارسة عملهم منطلقين فى الفضاء الرحب الفسيح ليقضوا أطيـــب الأوقات مع محبوباتهم :ـ

يَوماً فى السّجن ويَوماً رُقاد متْحدّرْ (٧)
ويَوماً بىَ الصّفايح لىَ البَحر بِنْبدّرْ (٨)
ألقَيد والحَبس قَطْ لىَ القَلب ما بُودّرْ (٩)
أطَرى الليْنَة يا طهَ الضرّير لا تُودّرْ (١٠)

إن هذا اللون من الحياة ، الذى يقوم على المغامرة ، لابد أن يفيض بقصص الغزو والإغارة . وهذا النوع من القصص يحتل حيزاً كبيراً فى أخبار الهمباتة وشعرهم . فهم يحكون عن هجمات قاموا بها أو مآزق وقعوا فيها فكانت وسيلتهم للخلاص هى القــوة والحيلة معــاً . وهم غير ميالين إلى إزهــاق الأرواح الا إذا إضطرهم الموقف إلى ذلك. يقول أحدهم عن تصرفهم حيال مطارديهم « بنَتورعُهم يا زول أرجع يا زول أرجع . إن بِقَى ما رَجَع بتضْرُب الجمَل كف بِترمى . إن إتختروا عليك ما بترفعهــم . نحن زوَل ما بنكتلُوا دايرين رزق بَسْ . زوُل ما بنكتلوا بِنخاف مِنْ الذمـــة

١ ـ الجرق : الثور الذى يجر الساقية والمحرات وتعنى أيضا المجرب .

٢ ـ كضم : ضم فاه وسكت .

٣ ـ الجره : ما يخرجه البعير من جوفه ليمضغه مرة ثانية .

٤ ـ المراح : القطيع (٥) حسب الله : شخص بعينه .

٦ ـ فـــر : هنا بمعنى ذهب .

٧ ـ من مجلة الاذاعه الخميس ١١ يوليو ١٩٧٤ م ص ٣١

٨ ـ بدر : ذهب فى الصباح الباكر

٩ ـ ودر الشىء : أضاعه

١٠ ـ لاتودر : تقول فلان ودر اذا كبر وخرف .

المحَرمَنها اللهُ ». (١)

ومن قصصهم المتداولة فى مثل هذه المواقف ما يرويه طه الضرير حيث يقول : نهضْنا هِناك وإنفَرَعنْا عند جبَل القدين . . . ألشَرق شَرْق أتبرة ـ الحُـدُود ـ مِنْ هِناك وإنفَرَعنا . ألطَيِّب شَاف ألفرَع ترَى أليقُول لينا . آى :

زَمَنَك كُلهُ تَاكُل باردة ما ضُقْ حارَة (٢)
وأطرى الليلَة يا طَه أم حمَد والسارة (٣)
دُرَق البَازة (٤) جاكْ زِىْ السَّحابة الجارة
وَحس أبْ جِقرة والقَربين (٦) صواقعا كارَة

أنا هنا بقول لو :—

بَاكُل حارَة ما ضُقْ بَاردة ماكْ دَاريـنى ؟
وأسْعَل (٥) مِنّى رُبعَاىْ (٦) أليعَرفوا قرينى
حِسْ أبْ جِقرة والقربين دوام بَارينى (٧)
أنَا أخُو اللينةْ كان يبقى الحديث عانينى

. . . والله لمُّوا فينا والله فكانا . أكلناهم . . . ضربناهُم خَوفناهُـــم . هم أربعة ونحن إثنين . صدّوا ما أديناهُم يَا هِن . (٨)

وهناك رواية أخرى لهذه القصة . يقول الراوى : « فى قِصة بتاعة طَه الضَريـر والطيِّب ود ضحوية . كانُوا سَاقُوا ليهم إبل مِنْ البازه ـ عرب البَازة . مَشُوا فى نفس المسَافة لاقوا . . . ألفَرَع لحق عندهُم فى محل أرضُو كترة وشقوق فيهـر

١ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٥
٢ – الباردة عندهم الكسب بدون قتال . والحاره الكسب بعد قتال .
٣ – ام حمد والساره : من الغوانى .
٤ – البازه : قبيلة فى الحدود السودانية – الحبشيه .
٥ – اسعل : اسأل .
٦ – ربعاى : الرباع : الزملاء والرفاق .
٧ – بارينى : من بارى : تبع
٨ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥٢ .

بَباحة . بَعدين فى الدَورة دى الطَيِّب إتلفَتْ شَاف ألفرَع ما داير يقُول لى زولُو ألفرَع لحق قال لُو :—

لبَك زمَنَاً عَديد ياطَه تَاكُل بَاردة ما ضُقْ حَارَة
ترى دَاكْ دَرَقْ البَازة جَاكْ مِثل السَحابة الجارَة
فِيهُو ضَرْب أبْ خَمسَة والقَربين صواقعاً كـارَة
أرْكز (١) لى التجيك أطرى أم حَمَـد والسـارَة

بعدين طه قال ليهُو :—

دَرَق البَارة شُفناهُو وعقدنا طرُوفنا (٢)
نحنَ ركزنا لَوْ كانْ هِى أم حَمَد بتشُوفنا
ضَرْب أب خَمسَه والقَربين لَوْ يدَلىَ كتوفنا
ما بهدْنا ترى سَاكتْ بيامِنْ (٣) خوُفنا

بعدين ألعَرب هَدوا (٤) فيهم ضربوهم طلقَة . بعدين قَالْ لى : إدرع لينـا بَطن الكترة دى . إندسوا (٥) بَطن الكترة (٦) . إدلى طه ضَربهم طلقة وطبَق ليهم جلوا قالوا بحاوتوا الكترة غرَب . بعدين علَول (٧) هُمّ ما حَوتوا غرب هُو قَالْ لى : إنْتَ سُوق ألبِل صبح . جروا صبَحوا . ألضلام بقى بيناتهم . بعدين طـه ركب لحق زولو . بعَد ما لحقا خَبتهن سُوط جيت (٨) قَالْ ليهِنْ :—

هِىء (٩) جَاكْ جقَلة (١٠) المتنى وريدَها (١١)
سَمِح ألمُوت حَلال فيـها يوم الضيقـة
فِى الكترة أم شقُوق إتقابلنا نحن وسِيدَها

١ – اركز : من ركز : ثبت
٢ – عقدنا طروفنا : اتعاقدوا الاطراف : تكاتفوا
٣ – يامن : يهدىء ويقلل (٤) هدوا : هجموا
٥ – اندس : اختفى واستتر (٦) الكتره : ضرب من شجر العضاة .
٧ – علول : ما أن (٨) جت : تعبير صوتى .
٩ – هىء : كلمة اعجاب (١٠) جقله : لقب الناقه
١١ – الوريد : عرق فى العنق

يبقى أباها ولا شاف يا نكير (١) أبو جلية الجدعنو بعيدة

بعدين داك قال لي :ـ

هيء حلالى سوق ألبيل يدور لو تدرس
على إلا نجيبها (٢) شايل ليلو كلو تكرس (٣)
إن حرت سجنها .. بجرس (٤)
وإن بردت حلاوة (٥) وإن عزب بتعرس (٦) ، (٧)

هذا المشهد الدرامى – يمثل طبيعة حياة هذه الجماعة بكل ما فيها من ركوب للخطر ومن جرأة وإقدام وسرعة فى التفكير للمخادعة والحيلة للخلاص من أقسى المـــآزق وأحرجها . ويجيء الشعر عارضاً للصورة بكل ألوانها . وهى صورة للحياة التى كانت تقوم على الإغارة للنهب والسلب وذلك الصراع الدامى الذى يخوضه الهمباتة فى شجاعة وجلد . وهم يروون أقاصيص هذه الغارات والغزوات ويملأ نفوسهم الفخر والإعتداد بطولتهم وصمودهم مثلما كان يفعل صعاليك العرب فى الزمن القديم :

طلعن بى البطاين(٨) ولعن نيرانهن
الحسك (٩) النضيف (١٠) قلمنوا فوق كبرانهن (١١)

---

١ – بانكير : لعله يقصد السلاح النارى .
٢ – انقيب : الراعى الصغير يساعد الراعى الكبير أو راعى الابل عموما
٣ – كرس : طرد
٤ – جرس : عرض لا متحان قاس لم يحتمله
٥ – حلاوه : الطعم الحلو
٦ – عزب غير متزوج
٧ – عرس : أعرس اتخذ عرسا
٨ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٨٩٩ .
٩ – البطاين : جمع بطن . والبطن ومنها البطانه الأرض الفضاء المعشبه .
(١٠) الحسك : النبات الشائك
١١ – النضيف : النظيف
(١٢) كبران : جمع كور وهو الرجل.

خبتناهن (١) ردايف (٢) و زلقن (٣) حيرانهن (٤)
فى ليلة نكد (٥) رقد البدق زيرانهن (٦)

كان الهمباته يجوبون أرجاء الصحراء ، يصعدون « القيزان » وينحدرون فى السهول زادهم الصبر وعزاؤهم إن بعد الضيق الفرج وأحياناً لايكون معهم من الزاد سوى الماء وأحياناً أخرى تستبد بهم الحاجة إلى جرعة ماء :ـ

قمنا مشرقين (٧) برا (٨) المويــة ما فيش زاد
على الخالقنا يا الدخرى الخنـــون أجواد
حادفين (٩) (البرتنق) وعندنا القـــداد (١٠)
نحن أخوان سالمة (١١) عند ضيق الوجوه بولاد (١٢)

وهم على معرفة بأسرار الصحراء وشعابها ودروبها ومسالكها ومواقع مياههـــا . وهم على مقدرة كبيرة للأهتداء فى مجاهلها ومتاهاتها وقديماً قالوا عن صعاليك العرب أنهم « أهدى من القطا » . وكان منهم من يعرف الأرض التى هم فيها بشم ترابها . كما كانوا يهتدون بالنجوم فى تحديد إتجاه غاراتهم ، وفى طريق العودة وكانوا لذلك يفضلـــون الســـير ليلا :ـ

من جبال حفرة إنراوح المــزروب (١٣)
إتجفل كرى ديك النعـــام متضـــروب

---

١ – خبت : من خبط : ضربه ضربا شديدا .
٢ – ردايف : من ردف تراكم . وهى أيضا جمع ردف الكفل والجز فى الدابة .
٣ – زلقن : من زلقت المرأة الجنين اذا أسقطته .
٤ – حيران : جمع حوار وهو ولد الناقه قبل أن يفصل عنها .
٥ – نكد : تكدير العيش .
٦ – زيران : جمع زوار : وهو أعلى وسط الصدر .
٧ – مشرقين : متجهين شرقاً .
٨ – برا : بلا
٩ – حدف الشيء : وضعه فى حكره (١٠) القداد : السيف
١١– ساله : احدى الغوانى
١٢– بولاد : الحديد الصلب – كناية عن القوة .
١٣– ملامح من تراث حمر الشعبى ١٤٣ .

قبالة النجمة ديك مرتع العشوب
ليلك يوبى يا أب ساقاً تقول مصنبوب

الخلاصة :-

وخلاصة القول أن ظاهرة الهمبتة التي نحن بصدد دراستها وتفسيرها ، هي طريقة في الحياة تقوم على نهب وسلب الإبل . وقد إتخذت من البوادي الرعوية في السودان مسرحاً لها ، وكانت لها أصول في المجتمع القبلي في البادية . كما كان لها أبطالها من الرجال من مختلف القبائل البدوية وقد عرف هؤلاء بالهمباته « والسراجة » ، وكان يقال لهم أيضاً « النهاضين » « والمهاجرة » — وهي ظاهرة تتميز بأن لها نظمها وقواعدها وقيمها الخاصة .

أصل الهمبتة ونشاتها

رأينا في الفصل السابق أن الهمبتة هي طريقة في الحياة تقوم على نهب وسلب الإبل . وأن هذه الظاهرة إتخذت من البادية السودانية مسرحاً لها . وفي هذا الفصل ستعرض لبعض الظواهر التي كانت تسود المجتمع البدوي قبل ظهور الهمبته . ومن خلال ذلك نحاول أن نرى إلى أي مدى إرتبطت ظاهرة الهمبته بتلك الظواهر ، وكيف استمدت أصلها منها . ومن ثم نحاول أن نصل إلى النقطة التاريخية التي برزت فيها هذه الظاهرة إلى حيز الوجود .

أ — الأصل :-

(١) القيمان :-

جاء في القاموس : (١) « قيمان (س رباطاب) الحروب بين القبائل — وهي من القوم (ف س) الجيش . قال المرغومابي :-

سيف ود بله حالا فرتك القيمان

وقال يخاطب البطانة :

يوم قيمان ركرنك الفيك بدور يسوح

وقال الحمري :-

نشيل الصعيد منجيب قيمان

ويقصد هنا جماعات ودفع الإبل التي ينهبوها

وقال الجعلي :-

القيمان نلاقيها والوفا نسوقا

يتضح من النصوص التي أوردها الشارح تدعيماً للفظ « قيمان » أن المعنى نفسه غير دقيق . ذلك لأننا لا نستطيع في النص الأول ، مثلا ، أن نقول أن سيف ود بله قد فرق «الحروب بين القبائل» . وكذلك الحال في بقية النصوص — ولعلنا نلاحظ في النص الذي

١ — قاموس اللهجه العامية في السودان ٦٤٥

أورده الشارح على لسان الحمرى أنه يشير إلى جماعات ودفع الإبل كما مر . وهذا يبدو معنى غير الذى أراده الشارح ، معنى يحمل فى طياته الإشارة إلى جماعة ما ! ويمكن أن تكون جماعة المحاربين – وهذا ما تدعمه النصوص التى جاءت مصاحبة للشرح . وإذا كنا نعترض على المعنى الذى ساقه القاموس ، فما معنى لفظ « قيمان » إذن ؟

جاء فى « كتاب الطبقات » فى الحديث عن إدريس بن محمد الأرباب بن على « ومنها أخباره للملك بادى بن رباط حين جاء سيد القوم للملك عدلان ولد آية . . . »(١) وقد علق محقق الكتاب على هذين اللفظين بقوله : « يربط الرحالة بروس هاتين الكلمتين بوظيفة رئيس الحجاب أو الخدم فى بلاط ملوك الفونج » ويمضى فيقول : « وقد قرن بعض الباحثين بين مهمة الجلاد هذه وبين بعض العادات المتفشية بين القبائل النيلية كما ربطها آخرون ببعض عادات العبدلاب ». ثم يشير بعد ذلك إلى أن كلمة قوم وتجمع « قيمان» تعنى فى اللهجة العربية السودانية فرقة من المحاربين وهو يرجع هذه الظاهرة من الناحية التاريخية إلى عهد الفونج .(٢)

وقد أشار ماكايكل كذلك إلى كلمتى «سيد القوم» وهو يتحدث من عادة قتل الملوك. يقول ماكايكل أن هذه العادة موجودة بين القبائل النيلية فى السودان ، كما أنها كانت موجودة فى مروى حتى القرن الثالث قبل الميلاد. وبمعنى آخر يقرر بأن هذه العادة كانت توجد لدى الفونج كذلك، وأنه كان يوجد رجل يجمع بين وظيفة مدير شئون القصر الملكى أورئيس الخدم، وبين وظيفة قاتل الملك ، وأن هذا الموظف يكون عادة من عائلة الملك نفسه ويدعى . سيد القوم » (٣)

وفى الأدب الشعبى والتراث الشفوى لبعض القبائل توجد إشارات كثيرة إلى ما يعرف بعهد « القيمان ». فمن روايات الرباطاب أن « أبو حجل لقالو ولد صغير مرمى فى الكتلات القدام غسلو ونضفو ورباهو وطهرو. الولد قالو: أنا سمعت بى أهلى ودابر أقصهم . أبو حجل وافقو ومضاهو . وأبو حجل فيهو صلاح . قش وش الولد وقرا على جبهتو أبو يجيب ناس ويغيروا عليهو . قالو أبو حجل : داير تجيبلك « قوم » تجى غايرنى

١ – كتاب الطبقات تحقيق يوسف فضل حسن ، دار الطباعه جامعة الخرطوم ١٩٧١م حاشية ٢ ص ٦٤ .

٢ – نفس المصدر ص ٦٤ .

٣ – Mack Micheel, H. A, A History of The Arabs in Sudan, Vol. (1) London 1967, p.50

بيها؟ . رد عليهو إن شاء الله قوماً أجيبو ليك الكتل فى أولو » (١) . ومعنى الرواية إلى أن تاتاى « وهو أسم الولد » فعلا جاء على رأس « القوم » مغيراً ، ولكنه لقى مصرعه على يد أبى حجل، وتقول رواية أخرى أن : « الملك نصر الدين مشرد . وجه إلى الترك أصلو بنى عمو الملك على – قريب أتبره – كانوا دايرين ياخدو منو الملك فى زمن « القيمان » وكان يخاف أنو يفقد ملكو » .

ويأتى ذكر لفظ « القوم » مرتين فى تاريخ العبدلاب . مرة فى رواية عن « إبراهيم ود الكاسر والجرانيس وقومه ود النو » ومرة أخرى فى رواية عن «غارات الإنقرياب » تقول الرواية الأولى أن إبراهيم هذا وفد من أرتولى وسكن فى الباوقه . والجرانيس كانوا هم سكان الباوقه . وقد كثرت ذرية إبراهيم هذا حتى خشى الجرانيس أن يتفوق عليهم فدبروا مكيدة للتخلص منه . وكانت خطتهم تعتمد على إستنفاره ضد ما يسمى بقومه ود النو ، وأن يقدموه هو وأولاده فيلاقى القوم فتقضى عليه بعد أن يكون قد أضعفها . وهنا يأتى دورهم هم فى القضاء على « القوم » ولكن إبراهيم وأبنه فرح ، بعد أن سقط هو برصاص عقيد القوم، إستطاع الصمود فى وجه القوم » :– « وكت فرح عصر فى القوم ، عقيد القوم وفر عليهو إتلقاهو قالو :– يا فارس ختينا لك الختة السوده نختك مننا . وقف منهم بعيد . العقيد قالو : يا فارس جاتك أمانة الراجل دا بقالك شنو ؟ قالو : أبوى .قالو : والله أياهو أبوك إنت وإنت ولدو » (٢) . هذا وترد الإشارة إلى القوم أيضاً فى رواية أخرى بعنوان : « غارات الإنقرياب »(٣)

فى « دراسات فى تاريخ السودان » يذكر يوسف فضل أن « عقيد القوم » تعنى رئيس المقاتلين. ويقول أن من معانى لفظ القوم فى العربية السودانية وتجمع « قيمان » الفرقة من المحاربين ويأتى بشواهد من الشعر الشعبى السودانى منها :–

نحن بلانا مين جاتو رتب مخصوصه

و « القيمان » نلاقيها أن بقت لا بوسه

١ – أحمد عبدالرحيم نصر تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية ، مطبعة جامعة الخرطوم ١٩٦٩ ص ص٥٦ .

٢ – المصدر السابق ٥٦ .

٣ – نفس المصدر ٥٧ .

ومنها ، كما يقول ، ما يروى عن الشاعر أبو دقينة الذى يزعم أنه عاش فى عهد الفونج :-

يسلم عوض الكريم ليوم الضغينة
يسوق الخيل صباح سقلة ويمينة
جاب تار أب على وحسان فشه الغبينة
عقب مامون على (القوم) بالتجينة

ويقول فى موضع آخر أنه إعتماداً على الروايات الشفوية والأدب الشعبى لبعض القبائل مثل الجعليين والرباطاب والعبدلاب والكبابيش ودار حامد ، يتضح أن عهد « القيمان » عبارة عن إغارة الجماعة من قبيلة ما على قبيلة أخرى بقصد الإستيلاء على نعمها . وتطلق أيام «القيمان» على كل الزمان التاريخى الذى كان فيه مثل هذا النشاط الحربى ذا عائد إقتصادى »(١) . أما من الناحية التاريخية فأن يوسف فضل يرجع ظاهرة الإغارة بغرض الإستيلاء على النعم بين القبائل والتى عرفت بـ «عهد القيمان » إلى عهد الفونج . يقول : « ويبدو لى أنها (أى أيام القيمان) تطلق على فترة الفونج وهى فترة لم تظهر فيها سلطة الحكومة المركزية قوية وواضحة لردع المجموعات القبلية شبه المستقلة من الإغارة على بعضها البعض. ورغم أن هذا النشاط قد إقترن بمملكة الفونج ، الا أن بعض الدلائل تشير إلى إستمراره حتى أوائل هذا القرن » (٢) . وقد رأينا فى الرواية الشفوية آنفة الذكر من أدب الرباطاب الشعبى إشارتها إلى الملك نصر الدين ملك الميرفاب وإلى إتصاله بالأتراك فى مصر داعياً لهم بغزو السودان خوفاً من أن يسطو بنو عمه على ملكه فى «زمن القيمان». وهذا يدعم الرأى القائل بارتباط « عهد القيمان » بمملكة الفونج التى حدث الغزو التركى للسودان فى أواخر أيامها .

يتضح مما سبق ، وخاصة حديث يوسف فضل ، أن لفظ « القيمان » يدل على إغارة جماعة من قبيلة ما على قبيلة أخرى بغرض « النهب والسلب» ، وأن « القوم » يشير إلى الفرقة من المحاربين وتجمع « قيمان » . ومن الناحية الأخرى فأن عهد القيمان هو كل الزمان الذى كان يحدث فيه مثل هذا النشاط . ثم أن عهد القيمان يرجع تاريخياً إلى مملكة

١ - يوسف فضل حسن،دراسات فى تاريخ السودان ج (١) مطبعة جامعة الخرطوم ١٩٧٥ ص ١٠٣
٢ - نفس المصدر ١٠٤

الفونج . وتعريف يوسف فضل هو المعنى الصحيح للفظ « القيمان » . وبهذا التعريف نريد أن نجد الرابطة بينه وبين الهمبته .

قلنا فى بداية حديثنا أن الروايات الشفوية تربط بين ما عرف بـ « القيمان » من ناحية وبين ظاهرة الهمبتة ، التى تعرضنا لمعناها فى الفصل الأول ، من الناحية الأخرى . والان نورد طرفاً من تلك الروايات لنتبين كيفية الربط الذى أشرنا اليه .

جاء فى إحدى روايات الكواهلة : « أصلُو المَوْضُوع (يعنى الهمبتة) بدأ بمسألة القيمان من تاريخ بعيد شوية . . . وا . . مسألة القيمان كانت مُشْتَهِرَة ومَعْرُوفة لكل النّاس خاصةً فى السودان. فكانوا يقولُوا مثلاً القوى ياكُل الضّعيف. الضّعيف مؤكد ألرّاجُل ألمّا وراهُو ناس، ألمّا عِنْدو العَتاد ، ألمّا عِنْدو ألسلاح. دا يُعتبر ضعيف. والله مَشَتْ المسألة دى لامِنْ وِصْلَتْ ألتَّمَوِّى براهُو القوى برا يقُومُوا يقُومُوا منو ويسُوقوا منُو. وأمتَد ألمَوْضوع دا . فَدليل من بقاياهم زاتهم فضْلُوا مُعْتَمْدين على قَوْمهم دى إعتماد شامل كامل وأخدوها قاعدة بالنسبة ليهم. لىَ غاية ما وصلُوا درَجة ألمُهَجْر. مُهَجْر دى لا جُوليهُو عن طريق عطَالة ولا جُوليهُو عن طريق فاقة . أبداً ناس أغنياء من أحسن ما يكُون، بُويتات من أحسن القبائل. لكِنو ما دامين هُم وارثين قوة وسامعين جُدُودهُم يسُوُوا شنو . ما لِقُوا وقت القيمان. والله فيهُم واحدين فى عهد الحكم الثنائى جُوا لاكين جُوا بى طريقة مُبسّطة شوية. بعنى بدل ما يقُوم يسُوق. لاكنهُوا قريبة لى قوم لأنو يصادف يسوق المُراح كُلو يصادف يسوق المُراح كلو »(١)

وفى سؤال عن العلاقة بين ظاهرة الهمبتة والقيمان. أجاب أحد الرواة بأن العلاقة هى الدم. وهذا أمر واضح . إذ يعتمد كلاهما على الإغارة . وهذه الإغارة قد تحدث فيها المواجهة بين المغير والمغار عليه فتراق الدماء وإن كانت إحتمالات المواجهة فى مسألة القيمان أكبر منها فى الهمبتة . المهم أن هذا نوع من أنواع العلاقة بين القيمان والهمبتة.

ومن البطاحين يقول أحد الرواة : « ألمُهَجر إنتَ إنْ سَعَلْتَ منو ألمُهَجر قبل ألمغاورة . أبهاتنا وجدودنا . دى مغاورة إغيروك وتر. ألوتر فى ماواك

١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٢

ومَرْعَاكْ . سَعِيتَك قِدّام بِيتَك وبِيوتَك مَبْنَيَاتْ أَلقُوم دِى وكِتّين تجى ما بِتْعَاين لى مَنْطَرْفَة بِتَغِير أَلْوِتير . أَلْوِتير دا يَعْنى محل أَلنِسْوَان و محل أَلسَّعِية و محل أَلْوِلَيْدات و محل أَلسَّكْنَة . بِغيروا كَدِى ولاَ فى دِيل ولاَ دِيل . وكِتّين إرفَعْ(١) دا جاء أَلمتهجر والنُهاضى أَلنَهيض . (٢) .

من هذه الروايات ومما سلف من حديث، يتضح أن كلا من القيمان والهمبتة عبارة عن إغارة بغرض النهب والسلب. ولكن الفرق هو أن « القيمان » عمل جماعى من القبيلة بينما عمل الهمباته فردى، وأن كانت القبائل تقره ، ومن الناحية الأخرى فان الإغارة فى الحالة الأولى تكون فى القبائل المجاورة بينما عدم نهب الجار يعد من أهم قواعد الهمبتة . ثم أن أغارة القيمان لا تقتصر على الإبل فقط أو حتى على البهائم. ويمكننا أن نقرر إعتماداً على تلك الروايات ودلالاتها ، أن الهمبتة كانت بصورة ما تعويضاً عن ظاهرة القيمان . وتعليل ذلك – فى نظرنا – هو أن المقدرة والطاقة القتالية لدى أفراد القبيلة فقدت المتنفس بانقضاء عهد القيمان . فكانت ظاهرة الهمبتة وسيلة لإستهلاك تلك الطاقة وإشباع الرغبة الكامنة فى نفوس هؤلاء الرجال فى القتال والمغامرات . ولابد أن أفول ظاهرة القيمان يرجع إلى ظهور سلطة الحكومة المركزية فى الفترة التى أعقبت إنهيار مملكة الفونج بواسطة الغزو التركى فى بداية القرن التاسع عشر . هذه السلطة عملت على ردع المجموعات القبلية للحيلولة بينها وبين الإغارة على بعضها البعض . ولكن هذا لا يعنى أن الحكومة الجديدة قد تمكنت من القضاء على هذه الظاهرة تماماً، ولكنها بلا شك حدت كثيراً من مثل هذا النشاط . وفى ذلك يقول يوسف فضل: « ورغم أن هذا النشاط» يعنى القيمان » قد إقترن بمملكة الفونج الا أن بعض الدلائل تشير إلى إستمراره حتى أوائل هذا القرن » (٣). ولعل الدليل على ما أقول به من أن الهمبتة كانت بصورة ما إمتداداً لذلك النوع من النشاط الذى عرف فى تاريخ القبائل العربيةالبدوية فى السودان بـ «القيمان» أو « أيام القيمان » أو « عهد القيمان »، هو ما سنراه فى الباب الثانى من هذا البحث فى موقف القبيلة حيال ظاهرة الهمبتة ونظرتها للشخص الهمباتى وفقاً لقوانينها الإجتماعية التى تنظم حياة أفرادها، والتى هى نظرة المؤيد والمشجع بل والمحرض ، كما

١ – ارفع : ترك .
٢ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥٢ .
٣ – دراسات فى تاريخ السودان ١٠٤ .

سيتضح فيما سيأتى من حديث فى هذا المجال .

(٢) النهيض :–

النهيض فى منطقة البطانة يعنى الهمبتة ، أى نهب وسلب الإبل، كما رأينا . أما فى كردفان فأن للنهيض مدلول آخر. وذلك يظهر بصورة واضحة فى تراث حمر الشعبى . فهو عندهم عبارة عن غارات متفرقة كانت تحدث بين القبائل المتجاورة بغرض نهب الإبل . ففى « ملامح من تراث حمر الشعبى » جاء أن من ضمن أسباب حرب العقال « بين قبيلتى حمر والكبابيش ، هو ما يسميه حمر «النهيض» فما هو النهيض وكيف كان نظامه ؟

«يحكون أنه عندما تنوى مجموعة النهيض تقوم بتجميع عدد كاف يتراوح بين الخمسين والمائة والخمسين فارساً بالتقريب، وتسير هذه المجموعة بعد تحديد هدف لها أو تسير باحثة عن قنصها حتى تجد مجموعة مناسبة من الإبل تغير عليها وتأخذها بعد قتل من معها » (١). وتضع هذه المجموعة – كما هو متوقع – كل إحتمالات الموقف – وأولها إستنجاد أصحاب الإبل المنهوبة بباقى قبيلتهم ولذلك فإنه بعد أخذ الإبل يسوقها عدد قليل من الفرسان بينما تنتظر الأغلبية من المقاتلين ويسمون « الدفين » لصد النجدة التى قد تأتى لإسترجاع الإبل . ومن نظامه كذلك أن الإغارة دائماً تكون فى الصباح حيث لا يكون الإستعداد كافياً فى الطرف المهاجم . وهذا ما يعرف بعنصر المباغتة – » ويبدو أنه بعد تملك نظام الدولة وإشاعة الأمن ، تقلصت حركة النهيض هذه إلى ما يعرف بالهمبتة فأصبح الهمباتى يعمل على نفس المنهاج مع فارق المجموعة خشية إنكشاف الأمر وأصبح الهجوم ونهب الإبل فى الوقت المناسب حسب إمكانية المجموعة الصغيرة المسلحة إستعداداً للقتال إذا لحق بها أصحاب الإبل » (٢).

إذن، النهيض هو إغارة بغرض النهب – بل ونهب الإبل . وتتم هذه الإغارة علناً ويقوم بها عدد من الفرسان من قبيلة ما على قبيلة أخرى مجاورة . وقد كانت هذه الظاهرة من أسباب حرب العقال المشهورة فى تاريخ حمر والكبابيش – ثم أنه – على حسب ما جاء فى النص السابق – قد تقلصت هذه الحركة إلى ما يعرف بالهمبتة .

١ – ملامح من التراث الشعبى لقبيلة حمر ص١
٢ – ملامح من التراث الشعبى لقبيلة حمر ص ١

هذا والروايات الشفوية التى بين أيدينا تربط ربطاً واضحاً بين حركة النهيض هذه وبين ظاهرة الهمبتة. تقول أحدى الروايات وهى تؤرخ للهمبتة فى منطقة حمر : «بَدَتْ من سَنَةْ . . . . كان حَمَرْ يَنْهَضُوا علىَ القبائل ، علىَ الكبابيش ، وكَتَّيها دَاكْ عَدَاوةْ » ، والسَّلْطنة الزرقاء – يَعَنى هُمَ بكتلُوا الكبابيش بجيبُوا منهم والكبابيش بكتْلُوا حَمَرْ بِشِيلُوا مِنَهُم إبل. لاكِين مِنْ جَاتْ الترْكية، السَّلطنة الزرقاء إنْتَهتْ ضَلّتْ(١) مَغَارات سَاكِت يا السرَّاجة ديَل . نحن مِنْقُول ليهم السرَّاجة ديَل الهمبْاتَه. ألهَمبْاته ديَل بِشيلُو سلاح ممنوع وَيروحوا أن كتلوهُم كَتلوهم وكان هُمَ كتلوا بجيبُوا إبل من القبائل ، لاكِين ما فِيشْ سَرِقَة داخلية أبداً »(٢) .

وتقول رواية أخرى من نفس المنطقة: « والله يا زولَ ألحكايَة هِيِ ألحاجَة دِى بَدْرى بَدْرى إلاّ زَمَانْ داكْ بِغيرُوا جدُودْنا وَيجيبُوا ألبِل وَيموتُوا فِيهِن طَوَّالى عِلىَ عينَكْ يا تَاجِر ما بْسيرُوا » (٣).

نلاحظ فى الرواية الأولى الإشارة إلى أن موضوع الهمبتة بدأ بما كان يحدث من غارات بين القبائل المتجاورة. وأنه عندما ترك النهيض جاءت الهمبته كبديل له . وهنا أيضاً نجد نفس الفرق الذى لاحظناه بين ظاهرة القيمان والهمبته. فالنهيض هو عمل إجماعى من قبل القبيلة بينما الهمبته عمل فردى. والهمبته تكون فى القبائل البعيدة بينما يكون النهيض فى القبائل المجاورة. أما الملاحظة الثالثة فهى أن الرواية قد حددت زمن النهيض بالسلطنة الزرقاء وأنه إنتهى بنهايتها، وهو نفس ما لاحظناه فى موضوع القيمان . وهذا يؤكد ما ذهبنا اليه من أن الهمبته هى إمتداد أو هى بديل لها ، وإنها برزت إلى الوجود بعد نهايتها التى كانت توافق سقوط مملكة الفونج على يد الأتراك فى بداية القرن التاسع عشر .

ب – النشــــأة :–

رأينا فى حديثنا عن ظاهرتى القيمان(١) والنهيض أن الهمبته كانت بصورة مـــا

١ – ضلت : ظلت

٢ – الأرشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٨٩٦ .

٣ – اذا رجعنا الى طبيعة هذا النوع من النشاط فاننا نلاحظ انه ليس هناك فرق بين القيمان والنهيض ولذلك فانى أعتقد أنها ظاهرة واحده وان اختلفت التسميات .

إمتداداً لهما – أو هى تعويض عنهما . وأنها بدأت من حيث إنتهتا . ومن تتبعنا لتاريخهما رأينا أنهما إستشرتا فى أيام مملكة الفونج حيث كان الأمن ضعيفاً والسيطرة على نشاط القبائل العدائى فى بعضها غير ممكن ، لأن تلك القبائل كانت تعيش فى شبه إستقلال عن سلطة الحكومة المركزية . ولما جاءت التركية إستتب الأمن إلى درجة أقوى مما سبق لبروز سلطة الحكومة المركزية بوضوح أكثر ، فكان لابد لهذا النوع من النشاط من التقلص والإنكماش . وتقلص هذا النشاط ثم إنقراضه أوجد فراغاً فى حياة أفراد القبيلة فتلك الطاقة التى كانت تستهلك فى الغارات الجماعية من قبيلة على الأخرى، ما زالت موجودة ولابد لها من – تفريغ – ولم يكن من الممكن العمل على نفس النظام السابق لأن يد الحكومة إمتدت إلى تلك القبائل شبه المستقلة . ونتيجة لهذا تكونت مجموعات أصغر فى حجمها من تلك وإنتهجت نفس الأسلوب القائم على النهب والسلب عن طريق الإغارة . ولكن لابد لنا من أن نلاحظ بعض أوجه الإختلاف بين ذلك النشاط الجماعى المتمثل فى القيمان والنهيض وهذا النشاط الفردى المتمثل فى الهمبته .

إن الغرض فى الحالين واحد، وهو النهب . ومسرح النشـاط واحد وهو البادية . ولكن هذا النهب فى حالتى القيمان والنهيض يحدث فى القبائل المجاورة ، الا أنه فــى فى حالة الهمبته يحدث فى القبائل البعيدة . وعدم نهب الجار هو من القواعد الأساسيـة للهمبته . ومن الناحية الأخرى فأن العدد فى الحالة الأولى أكبر منه فى الحالة الثانية ، التى قد يسير فيها الشخص الهمباتى بمفرده – وقد يسيرون فى جماعات ، بينما لا يكون النهب فى الحالة الأولى إلا فى جماعة . ومن القواعد المرعية فى مسألة الهمبته أن الهمباتــه لا ينهبون غير الإبل مهما كانت الظروف بينما « القوم » لا تتقيد بتقيد مثل هذا ، وإن كان الحديث عن نهب الإبل يبدو ملفتاً للنظر فى هذه الغارات . ولعل هذا يكون أكثر وضوحاً فى حركة النهيض فى كردفان .

نعود للحديث عن نشأة الهمبته فنقول أن أول إشارة تاريخية لهذه الظاهرة قد ظهرت فى الحديث عن القيمان والنهيض ، حيث أنهما إقترنتا بمملكة الفونج وإنتهتا بانتهائهـا . ولكن القول بانتهائهما بانتهاء مملكة الفونج ليس قطعاً ، لأن هناك من يشير إلى إستمرار القيمان مثلا حتى أوائل هذا القرن كما ذكرنا . وإذا كانت بدايتها تكون ببداية الحكـم التركى فى السودان فى أوائل القرن التاسع عشر . وليس بين أيدينا روايات عن أشخاص

مارسوا الهمبته فى فترة الحكم التركى، إلا ما جاء عن « أولاد فتر » فى تراث البطاحين الشعبى . حيث جاء أن أولاد فتر هما عبد الله والماحى وهما من أشهر المهاجرة فى تاريخ البطاحين وأنهما إشتهرا فى العهد التركى ومارسا حياتهما فيه رغم أنهما عاشا شطراً من صباهما فى أواخر السلطنة الزرقاء (١) . فهذه تعتبر أقدم إشارة تاريخية لظاهرة الهمبتة . هذا وقد جاء شعر ولدى فتر هذين حافلا بألفاظ تدل على بعض الرتب والألقاب التى إرتبطت بحكم الأتراك ومن أهمها لقب « باشا » . فمن شعرهم :—

ألبَاشَا البِيعـنُولُوُ
شِنْ عَرْضُوَ وَشِنْ طُولُـو
كان خلو لو حلو لو
حت شرق الله البارد هولو ؟

فلفظ « باشا » الذى ورد فى هذا النص من الألفاظ التى إرتبطت بحكم الأتراك فى السودان ولم تكن معروفه قبله . ليس ذلك فحسب ، بل هى نفسها تركية فقد جاء فى القاموس : « باشا » (تر) اللقب المعروف الجمع (س) بواش » (٢)

أما فى الفترة المهدية فأن روايات القبائل تذكر أشخاصاً عاشوا فى تلك الفترة ومارسوا الهمبته . وأستمر الحال كذلك إلى أن جاء الحكم الثنائى . وهنا تبدو الصورة واضحة تماماً فى الشعر والروايات وفى كتابات المفتشين الإنجليز الذين قضوا جزاً من حياتهم بين هذه القبائل يحاولون وضع حد للظواهر التى تتسبب فى إضطراب الأمن . ومن ذلك ما ذكره جيمس روبرتسون وهو يتحدث عن فترة خدمته فى السودان والمشاكل التى واجهته حيث يقول : « إن الجريمة والنهب والشغب العام كانت تأخذ جل وقتى . وفى الكاملين كنت مشغولا وباستمرار بالنشاط الدائم لشبكة اللصوص المتخصصة فى سرقة الجمال . . . . (٣) » . ويمضى فيقول بأنه قام بجهود جبارة للحد من هذه الظاهرة حتى أنه لقب بـ « تمساح الحرامية » ولكن جهوده والجهود المشتركة مع المسئولين فى أقليم كسلا ، كانت تبؤ بالفشل . إذ أن هذه الظاهرة ظلت كما هى ولم يحدث أى إنحسار فى

١ – التراث الشعبى لقيلة البطاحين ١٥١ .
٢ – قاموس اللهجة العاميه فى السودان ٤٦
٣ – Transitian in Arfrica P-18

حوادث سرقة الجمال مدة وجوده مفتشاً لمركز الكاملين (١) . ويبدو من حديث روبرتسون أن ظاهرة الهمبته كانت بالحجم الذى عجزت عنه إمكانات الحكومة ولذلك فأن كل محاولات الحد من هذا النشاط قد باءت بالفشل . وهذا يعنى أن تيارها كان جارفاً وإستشراها كان عظيماً .

وفى الشعر يتحدث الهمباته عن إصطدامهم بالمسئولين من الإنجليز ويسخرون منهم ويتحدونهم . يقول أحدهم :—

أبوكْ يَا الزِّينَة (٢) بَى دَرْب الدُراهِم هَافِى (٣)
أنا يا مستر أبُو فَاطْنَـةْ العَقِيد (٤) ألشَافِىْ (٥)
مَسَكْ ألقايْـدَة (٦) تمسَاحْ الدَنَاقلَة مقافـى
نوْوا العـوْدَة لىَ زُوْلاً حَنين مُـو مجافِـى

فلفظ « مستر » فى اللغة الإنجليزية يعنى « سيد » وهو من ألفاظ الإنجليز . يضاف لهذا أن بعض الألفاظ ، مما لم يكن معروفاً قبل الحكم الثنائى ، قد وجدت طريقها إلى قاموس الهمباته ، ألفاظ مثل « الرادى » و « الطيارة » وما اليهما . فمن شعرهم :—

يا مَدَنى ألرَّشَـايم (٧) قَامَـنْ
سيد أم قُجَة (٨) من الرَّادِى (٩) ما بِسْتَامَـنْ (١٠)

ومنه :—

يا ودْ ألتكِّيتْ (١١) هَبنْ هبَايِب جَـبرَة

١ – عمل جيمس روبرتسون مفتشا لمركز الكاملين فى الفترة من ٢٢– ١٩٢٥م .
٢ – الزينه : اسم فتاة . وهى بنت طه الضرير والشعر له .
٣ – هافى : من هيف : رحل وهجر وأهمل .
٤ – العقيد : قائد الجيش أو القوم
٥ – الشافى : القوى .
٦ – القايده : القيادة .
٧ – الرشايم : النوء .
٨ – ام قجه : الناقه
٩ – الرادى : المذياع . وهو اسم للجمل كناية عن سرعته .
١٠ – بستامن : يطمئن (١١) ود التكيت : أحد الهمباته

سـيد أم قُجّة من الرّادِي خَنَقْ الْعَـبْرة (١)

ومدنى المشار اليه هنا هو مدنى محمد عويضة صاحب الجمل الملقب: « الرادى ». ومدنى هذا من الهمباته المشهورين فى المنطقة حول سنار . وهو من البطاحين القاطنين « جبـل دود » غرب مدينة سنار . وهو موجـود اليوم ومن المشهود له بالكرم والشهامة . يقول عنه أحد الرواة بمنطقة الكواهلة : « بطحانى من جبل دود من ناس النايب عثمـان . من أشهر الناس شهرة فى الكرم ومن خيرة الناس . لاكنو الليلة تايب لوجه الله ويزرع التلتمية والأربعمية جدعه . وهسع نضمى معاك دا هو فى المدينة » . يعنى إنه ذهب لحج بيت الله الحرام.

الهمبتـة اليـوم :-

قلنا أن الحياة البدوية القائمة على الرعى هى أنسب مناخ يمكن أن تنمو فيه مثل هذه الظاهرة وتزدهر . وتغيير هذا المناخ يؤدى إلى ضمور هذه الظاهرة وإضمحلالها ثم إنقراضهـا تماماً مثل الزرع . وفى السودان بدأ يطرأ تغيير فى حياة البدو قوامه تحولهم من حياة الرعى والترحال طلباً للماء والكلأ إلى حياة مستقرة تقوم على الزراعة . وفى مناطق البدو الـتى تأثرت بمثل هـذا التحول الجديد فى الحياة ، لم تعد القيم التى كانت تسـود الحياة القديمة تحتفظ بوزنها السابق بل أصابها إختلال إقتضته طبيعة الإنتقال الذى حدث فـى حياتهم . وعليه فأن ظاهرة الهمبته ، التى إرتبطت بقيم البداوة الرعوية ، قد تأثرت فـى إستمرارها والإحتفاظ بمكانتها فى تلك المناطق ، بينما بقيت فى المناطق التى لم يطرأ على حياة القاطنين بها تغيير جذرى أو نسبى فى أسلوب الحياة والعلاقات الإجتماعية . ولنترك الحديث للرواة من مختلف المناطق والقبائل لنرى موقف الهمبته اليوم على ضوء رواياتهـم وعلى ضوء واقع الحال التى هم فيها اليوم . والسؤال الذى يشترك الرواه فى الإجابة عليه هو : هل ما زال فى القبيلة من يمارس الهمبته ؟

فى إطار الرد على السؤال المطروح يقول راو من منطقة الجعليين : « فى الزمن دا ؟ واللهِ كتيرين أتْنَاطَطُوا وأتْنَاطَطُوا كتيرين أولاد ما عليهُم الإعتِمـاد الأول

١ – العبره : الحزن بلا بكاء . وعندنا مقرون بشهيق مكتوم .

دَاكْ » (١) الحقيقة التى تقررها هذه الرواية – هى أن هناك الكثيرين ممن لا زالوا يمارسون هذا العمل . ولكن الراوى يصفهم بأنهم « أولاد ما عليهم الإعتماد الأول داك » . فما هو الأعتماد الأول . ؟ لابد أن يكون هناك إختلاف فى صورة الممارسة القديمة والممارسـة الحديثة للهمبته . ولكن تثبت الرواية عموماً وجود الهمبته بصورة ما .

أما فى منطقة الكواهلة فأن جميع الروايات التى بين أيدينا تنفى وجود هذه الظاهرة وسط تلك المجموعة اليوم . ويذكرون لذلك أسباباً ساعدت فى إنقراض ظاهرة الهمبته فى المنطقة . تقول إحدى تلك الروايات : « لا . لا . فى زَمنّا ماكُلّهُم ألنّاس عِرفُـوا . عِنْدَهُم بِقَتْ فَضِيحة وعَيْب . هَسّ أغْلبَهُم بِقَى فَحّامه هنا . . . . »
ويمضى فى تعديد الأسباب الأخرى فيقول : « يخافُوا قَعَدُوا (٢) يخافُوا الله . عِرفُوا زمان مُوهُم مسَادِيداً(٣) تَعَمِيهُم. زَمنّا نحنَ مسَاديد لاكِين ألجنيات دِيل فَتَحُوا بِقُوا قرايَة وُمدَارِس » (٤) يستخلص من ذلك أن النظرة الحالية للهمبته وسط هـذه المجموعـة لم تعد كما كانت فى الزمن السالـف . فأذا كانت فى الماضى مدعاة للثنـاء والإفتخار ، فأنها صارت اليوم عيباً وفضيحة . وهذا بالطبع تغير كبير فى المفهوم القديم لدى القبيلة تجاهها . وتذكر الرواية أن من أسباب الإنصراف عن الإشتغال بالهمبته إنتشار التعليم . وتضيف إلى ذلك ان أسلوب الحياة لدى هذه المجموعة قد تغير فصاروا يعتمدون على الزراعة بينما صار الرعى عملا ثانوياً بالنسبة للفرد فيهم . ويقول راو آخر مجيباً : « لا . لا . مافِى إنْتَهُوا » . وعن السبب يقول : « عِرفُوا قبيّل ما عَارِفين – ألنّاس ألقَبَل ما عَارِفين جَاهِلية . لاكِين هَسّع ألنّاس عِرفُوا القانُون وعِرفُوا الأهَل وعِرفُوا كُلّو حَاجَة . واتْحَانَنُوا فى بَعَضُهم . ألنّاس القبيل بياكلوا منهم حَسّع (٥) سَوّوهُم أحْباب وأتْواصَلُوا واتْناسَبوا (٦) وكُلّو حَاجَة . بَسْ وَقَفُوا مِـن المَوْضُوع ألبتِل (٧) دَا . عِرفوا ما قَالْ الله وُ ما قَالْ ألرّسُول . وُ عِرفُوا دَا حَرَام

١ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٧
٢ – قعدوا : بمعنى صاروا
٣ – مساديد : جمع مسدود وهو الرجل المغلق الذهن .
٤ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٣ .
٥ – حسع : يقولون حس وحسع وهس وهسع ويقصدون الأن أو فى الوقت الحاضر .
٦ – ناسبه : تزوج احدى بناته أو قريباته ٧ – البتل : الذى مثل

وٚ دا حلال » (١) . يتضح من هذا الحديث أن تلك الأسباب تتمثل فى : ارتفاع درجة الوعى بينهم ، ادراكهم لقيمة القانون فى حياتهم ، ثم الناحية الدينية التى يبدو أن قوانين القبيلة الإجتماعية كانت تطغى عليها . ومن الجهة الأخرى فان العلاقة العدائية بين القبائل بدأت تنحسر وتحل محلها علاقة جديدة قوامها التآلف والتآخى . وإنه لمما يلاحظ أنه حتى الإحساس بالعصبية القبلية قد بدأ يخف لدى هذه المجموعة وفقاً لما طرأ على أسلوب حياتها من تغيير . وذلك يرجع لاختلاطهم ببعض الناس من خارج قبيلتهم مما حد من التمسك المميت بالقبيلة إلى درجة ايذاء الآخرين إمتثالا لأمرها ورفعاً لشأنها .

تقول رواية أخرى : « ونَظَرَ القبائِل فى ذلك الموضوع وٚقَبُل ما يَكُون بَسيط بى شكلوا دا كانوا ألنَّاس ألبِـسَوُا الحاجَات دِى والله مُكَرَّمِين عنْد أهَلَهِم وٚ فيهُم ناس حتَّى مِن بيوت دِينية . لاكِنُو هَسَّع مُعْظَم ألنَّاس نسبة لى العلْم إبْتَدَوا دبَـــل كمَان (٢) يختَفُوا مِن طَبِعُهم زَاتُوا . إهِـبْشُوا ألجَار ، إهَبْشُوا ألمسْكِين ، ألزُوّل ألهنَاى . دَا بَرْضَها ضِعفُوا يَعَنِى زَىْ ما عَادَتَهم الأصلِيَة »

والذى يظهر من هذا الحديث ، أنه قد حدث تغيير فى قواعد الهمبتة وقيمها ، وهـذا التغير أدى إلى استهجان الذين يعملون بها . ومن هذه القيم أن الهمباتة فى الزمن السالف لم يكونوا ينهبون الجار مثلا . وبالتالى لم تعد صورة الهمبتة هى تلك الصورة الحسـنة المستحسنة التى تحتفل القبيلة بها . ويمضى الراوى فيقول : « فَعَلى كُلاَّ ألمَوْضُوع هَسَّع إتبَسَّط شوِية شئ فى شَىْ – يَعَنى زَىْ بِقَتْ ألمسَألة سَرِقَة وٚ سَرِقَة والله مـا مُسْتَحسَنَة حَسَّع . لأنهم ألنَّاس ألذكَرْنَاهُم فى الأول كانُوا بِيَحمُوا ألجَـار وٚ كانُوا بِيَحمُوا ألضَعِيف . وٚ كان مِنْ ألليلُهم(٣) بِركِّبوا وٚيكْسُوا ألعِريَـان وٚ كانوا بِسُّوا حَاجَاتْ سَمْحَة جِداً . لاكِنو هَسَّعْ والله مِينا مَبْسُوطِين مِنهُم وٚ ماهُم مَشكُورِين . بِقُوا الواحد إتقَوْى فى أمَان الله وٚ يِسُوق جمَل جَارو . دِى بِقَتْ عاد مِيَها سَمْحَة وٚ مِيَها أصْلية (٤) » . هذه الطريقة فى الحياة التى كانت لها قوانين تنظمها ضعف قانونها ولم يعد هناك التزام بالقواعد . وبالتالى فأن المجتمع الذى

١ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٥

٢ – كان : بمعنى أيضا .

٣ – الليلهم : الذى هو حقهم – ويقولون هيل أى حقى .

٤ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٢

نشأت فيه والذى كان بقوانينه الإجتماعية يعطيها عمقها الإجتماعى ، هذا المجتمع لم يعد يقرها فأدى هذا إلى أن ينصرف أعضاؤه عنها .

تتميز بادية كردفان بأن ظاهرة الهمبتة ما زالت تمارس فيها بصورة واسعة . وهم ما زالوا يتحدثون عن العديد من الفتيان الذين يعملون فى نهب وسلب الابل . ليس ذلك فحسب بل هم يتحدثون عن إستشراها وعن حـداثة عهدهم بالإشتغال فيها . يقول أحدهم : « والله زَمَان يَعنى حَمَر ما فيهَا سَرَاجه ، ما فيها كِدَا . بَعَديـن كانُو فى ناس قَدِيمين جِداً لاكِين ألزَمَن ألعلينا دَا ألبَلَد بِقَتْ يَعنِى أغلبيتْها يَعنـى فى أىّ بَعَض يَعَنى بِتلقَــى ألسَرَاجَة . وٚ تَلقَــى دَا كويِّس وٚدَا بَطّال يَعنى . يَعَنى أغلبيةْ يَعنى بِقَتْ يَعنى ماكَيف (١) ألزَمن ألفَات . زَمَان يَعَنى ألواحِد بِكُون حَرامِى يكُون واحد مَنْدُور (٢) فِى البَلَد كُلَّها . يكُون مَنْدُور يِضْرَبُوا لِيَك بى ألمَثَل فُلان . لاكِين قَامُوا ألسَّنين بَزَر (٣) ألسَّنـين ألجَاء دِى (٤) بَزَر عَجِيب كُلُّو كُلُّو » ويمضى فيقول : « لاكِين ألبَزَره ألقَامَت جَدِيدَة دِى لا ريحت كَاجَه (٥) ولا ريحتْ . . . يَعَنى بَزَره قَامَت بَزَر طقهاشين أول بادِى جَمَلك كان بِقَى يَعَنى مربُوط فى رَاسَك بِسلُوا منك . وانْ بِقَـى جَمَلك مَقَيد فى شِقَك يَعَنى عِندهُم عليَك طُغُومَة (٦) يِخَبطُوا منك . يَعَنى بِقُوا يخيطُوا خَيط شين » (٧) . وهكذا فأن هذه الرواية تشير إلى تفشى هذه الظاهرة بصورة واسعة فى وقتنا الحاضر هذا فى منطقة حمر . ولكن لابد أن نلاحظ أن تشويها فى الصورة قد حدث كالاشارة إلى سرقة الجمل المقيد . وهو ما يسمونه « جمل القيد » وذلك مما كان يعير به فى نظام الهمبته القديم .

ويقول راو آخر وهو يتحدث عن تاريخ الهمبته فى حمر : « والله يا زَوَل الحكاية

١ – ما كيف : ليس مثل

٢ – مندور : من نادر . وتعنى مشهور .

٣ – بزر : من بذرة : الحبة التى تزرع .

٤ – دى : بمعنى ذا أو هذا وهى من ده بمعنى هذا .

٥ – كاجه : قبيلة فى كرفان . يقو حمر أنهم تعلموا الهمبته منها .

٦ – طغومه : لعلها خصومة .

٧ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٨٩٧ .

هِى الحاجة بَدْرِى بَدْرِى . نحن مما قُمنا لقِينا ألْ لقِينا ألزّمن كَدِى . لقِينا أخوانا أليسُوقُوا بينسمعُوا بيهُم مما ستة و ستين نحن إبتدينا منقوم منسُوق ألنيل مِن ستة و ستين و جاى منسُوق ألنيل شديد » (١) . اذن ليس هناك مجال للقول بانقراض هذه الظاهرة فى منطقة حمر وبادية كردفان عموماً .

وعلى العموم من الصعب أن نزعم أن الهمبتة قد انقرضت . ولكنا نستطيع القول بأن هناك عدة عوامل ساعدت فى تخفيف حدة وطأتها فى بعض المناطق ، كما أن هذه العوامل بالتأكيد سوف تستمر تؤثر فيها حتى تتلاشى .

كان البدوى فى الماضى فى مأمن من سلطة الحكومة وكان من الصعب السيطرة عليه .وذلك لأن البدوى كان منعزلا ودائب الحركة وذا مقدرة قتالية عالية . ولكن مع نمو تطبيق « التكلنولوجيا » الحديثة بدأ البدوى يفقد هذه المميزات وصار فى متناول يد الحكومة . فقد صارت الحكومات تمتلك أحدث وسائل المواصلات ، مما جعلها أقدر على الحركة من البدوى . وهذا أدى بالتالى الى تقليل درجة عزلته ومقدرته على الهرب من وجه القانون ثم أن ما تملكه الحكومات من اسلحة وعتاد حديث قد أدى الى اضعاف القبائل البدوية . يضاف إلى ذلك أن وسائل الاتصال الحديثة قد أقنعت البدويين بتقبل اذواق وعادات كانت قاصرة على المدن . وهكذا فان التطور التكنلوجى قد لعب دوره فى التأثير فى المجتمع البدوى بتجريده من وظائفه . وان استعمال وسائل النقل الحديثة بدءاً بالسيارات وانتهاء بالطائرات مع الحرص على تحقيق الأمن الجماعى - كل تلك عوامل مؤثرة فى الحياة البدوية وما ارتبط بها من ظواهر اجتماعية (٢) .

ان الاتجاه الى تغيير وجه الحياة البدوية القائمة على الرعى له اكبر الأثر فى تغيير المفاهيم القبلية التقليدية . ففى الاماكن التى شملها التطور الزراعى فى السودان ، مثلا ، لم يعد امتلاك اكبر كمية من الابل هو مقياس العلاقات الاجتماعية . وقد رأينا كيف أن انتقال البدويين فى منطقة نهرى الدندر والرهد من حياة الرعى الى حياة الزراعة قد أثر فى مفاهيمهم وفى نظرتهم للهمبتة ، كان نتيجة ذلك انقراض الظاهرة ، أو على

---

١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٨٩٤

٢ - Morroe, B. 'The Arab Wrold To day 1962 ' P. 71

الأقل لم يبق منها الا بقايا فى طريقها الى الانقراض .

اننى أعتقد أن بقاء مثل هذه الظواهر رهين باستمرار نوع الحياة التى نشأت فيه . ومتى ما أمكن تغيير نوع الحياة فان إختفاء هذه الظواهر يأتى تلقائيا . وفى الحالة التى نحن بصددها يمكن القول بأن القضاء عليها يمكن أن يتم فى اطار الاتجاه نحو توطين العرب الرحل . وتوفير احتياجات الحياة الحديثة لهم . ويتبع ذلك « بث أيدلوجية جديدة بينهم . أى تغيير موقفهم - لمفهوم النهب والسلب » (١) ، وغرس مفاهيم جديدة تواكب التطور وتسائر طبيعة الحياة الحديثة .

ولا بد أننا ندرك أن للبداوة ظروف انسانية وطبيعية وجغرافية خاصة وتركيب اجتماعى معين يرتكز على العصبية . والتوطين يعنى الاستقرار فى مكان واحد بدلا من التنقل الدائم وراء الماء والكلأ . ولكنه يعنى أيضا الاتجاه نحو محو القيم البالية المرتبطة بالحياة غير المستقرة . وهذا ينسحب على الجانب الاقتصادى وطبيعة العمل . والجانب الاجتماعى الذى يرتبط بها ينظم حياة البدو من عادات وقيم وقوانين ونظم ونماذج سلوك. هذا ولابد للتوطين حتى يحقق مختلف مهامه من التركيز على جانبين هامين مادى ونفسى : يتضمن الجانب المادى تغيير مختلف نظم الحياة الاقتصادية البدوية ، بما فى ذلك أساليب البدو فى تكسب ارزاقهم ، مع تغيير مساكنهم التقليدية وطرق انتقالهم الخ . . . . أما الجانب النفسى فهو عملية تكيف البدوى نفسيا وحضاريا لاقامة علاقات جديدة تختلف بالضرورة اختلافا كبيراً عن قيمه وعلاقاته السابقة »(٢) .

يذكر الفوال أن « للتوطين عدة مهام رئيسية من ابرزها تحقيق تحول الجماعة البدوية عن الترحال بمختلف أشكاله وصوره وتأثيراته ، وبما يصاحب هذا التحول من تغيير فى الأنماط السلوكية البدوية ، وبما يستتبعه من تأثيرات على مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية » . ومن هذه المهام أن التوطين يمكن البدو من الاندماج فى المجتمع ككل دون الارتباط بالقبلية . وهذا يؤدى الى اختفاء النعرات القبلية والعصبية ويقوى الوحدة الوطنية . ومن الناحية الاقتصادية يتيح الفرصة للتخطيط السليم

---

١ - الدكتور محمد محمد الزلبانى ، تجديد التقاليد . وزارة الثقافة والاعلام السودانية ١٩٧١م ص ٢٠١

٢ - صلاح مصطفى الفوال ، علم الاجتماع البدوى ، من سلسة علم الاجتماع والتنمية ١٩٧٤ ص ١٠٥

للتنمية . أما فى الجانب الاجتماعى فيقول : « النظام القبلى بما له من قيم خاصة يخضع البدوى لاجراءات معينة تتعلق بالمدافعة والقضاء والغزو والسلب . . . الخ . وهذه كلها أمور تباعد بين البدوى وبين الاحساس بالأمن والطمأنينة ، حيث على كل بدوى فى حد ذاته وفى نطاق عائلته وقبيلته أن يكون مستعدا للحرب اما عاديا او مدافعـا ، والتوطين يحد من شوكة هذه النظم ويخضع البدو كلهم لاجراءات أمن موحدة وطرق تعامل جديدة ، ويضمن لهم خدمات ومؤسسات توفر لهم مختلف إحتياجاتهم وتمنحهم إياها بغير حرب أو عناء ، وتكون النتيجة فى النهاية مجتمعاً متماسكاً ومتساوياً فى الحقـوق والواجبـات » (١)

ان مجرد استقرار البدو فى مكان واحد لا يعنى شيئاً . ولكن أهمية الاستقرار مما ينتج عنه . فعدم الاستقرار يولد فى نفوس البدو شعوراً بالوحشة والإضطراب النفسى مما يدفعهم لتصرفات تتصف بالخشونة واللامبالاة . وكل ذلك أمر تحتمه الظروف التى يعيشون تحت سطوتها . ومتى ما أمكن تغيير صورة الحياة القديمة فأنه يتبع ذلك تغير فى السلوك والمنهج الحياتى المرتبط بذلك النوع من الحياة – وتختفى بالتالى من حياتهم الصور القديمة للعلاقات الإجتماعية والمفاهيم والقيم التى كانت تسود المجتمع القديم وتفرض سيطرتها على أفراده .

١ – صلاح مصطفى الفوال علم الاجتماع البدوى، من سلسلة علم الاجتماع والتنميه ١٩٧٤ ص١٠٣–١٠٤

دوافع الهمبتة ونظمها وقيمها

- دوافـع الهمبتـة وأسبابها
- نظم الهمبتة وقواعدها وقيمها

دوافع الهمبته وأسبابها

كانت وراء ظاهرة الهمبتة عدة دوافع وأسباب . ومن هذه الدوافع والأسباب ما كان اجتماعياً ومنها ما هو اقتصادى . وللهمبتة أيضاً دوافع خاصة تتصل بشخصية الفرد الهمباتى نفسه . وكل هذه الدوافع نابعة من طبيعة المجتمع البدوى الذى نشأت فيـــه الهمبتة ، بكل ما فيه من عادات وتقاليد وقيم ، تمثل القانون الإجتماعى الذى ينظم حياة الأفراد فيه وبكل ما فيه من تركيب اقتصادى مبنـــى على أسس تلعب الطبيعة فيها دوراً رئيسياً . ولعل الصورة تتضح وتنكشف حين نبدأ تفسير هذه الدوافع واختبار الأسباب وتحليلها .

القبيلــــة :

كان المجتمع البدوى فى بادية الجزيرة العربية يقوم فى تكوينه الإجتماعى عـــلى وحدات اجتماعية تعرف واحدتها باسم القبيلة . فكان هذا المجتمع يستند فى صورتـــه الإجتماعية البسيطة على العصبية القبلية . وهذه العصبية تعنى ببساطة الالتصاق بالقبيلـــة وتنفيذ أمرها وفقاً للقوانين المتعارف عليها والتى استنت لتنظيم حياة أفراد القبيلة مبينـــة حقوقهم وواجباتهم ، وموضحة لكل فرد فى المجتمع القبلى الدور الموكول اليه القيـــام به .

وكان الشخص المثالى فى مثل هذا المجتمع هو الملتزم بالقوانين المشار اليها والتى تشمل الدفاع عن القبيلة ونصرتها فى تضحية ونكران ذات . وفى مقابل ذلك فان من واجب القبيلة أن تقوم بحماية الفرد والذود عنه بمالها ورجالها .

كانت تلك هى صورة القبيلة فى المجتمع العربى فى الجزيرة العربية . وقد وفـــد العرب إلى السودان وعاشوا فيه بنفس الصورة التى كانوا يعيشون بها فى جزيرتهـــم . وكانت القبائل العربية التى إنتقلت تبحث فى المقام الأول عن مكان يتوافر فيه الماء والكلأ . وكان ذلك هو الأساس الذى استوطنت فيه القبائل العربية بقاع السودان الشاسعة ، وظلت حياة الترحال وعـــدم الاستقرار هـــى المعلم الرئيسى فى حياة هذه القبائل ، لأن هذه

المواطن التي اختارتها القبائل لنفسها، هي في الواقع مواطن مؤقتة، فاذا ما عم الجفاف وانعدم الكلأ انتقلت القبيلة الى بقعة أخرى. وهكذا احتفظت القبائل الوافدة إلى السودان من الجزيرة العربية بنفس الصورة القبلية الأولى.

والصورة التي نعنيها ونريد الحديث في اطارها تتمثل في الآتي :-

(١) يكون أساس القبيلة أسرة جميع أفرادها من صلب رجل واحد يؤمن كل أفراد القبيلة بانتمائهم اليه ويعملون معاً لحماية القبيلة ودفع الشرور عنها.

(٢) هذه الوحدة يجب أن تظل قائمة وكل من يمس بها يعتبر خارجاً على القبيلة ويترتب على ذلك عواقب ليس في مصلحة الفرد.

(٣) نتيجة لهذه الوحدة يتحتم على كل فرد أن يلتزم بالتقاليد الاجتماعية التي تنشأ أساساً لتكون مرتكزاً لحفظ وحدة القبيلة وتأكيد تضامنها. وهذه التقاليد في مضمونها تشكل الدستور الذي يرعى حقوق أفراد القبيلة ويحدد واجباتهم. وهذا بالتالي يلزم الفرد بالعض على هذه التقاليد بالنواجز وفيها يكمن رضاء القبيلة وتأكيد الإنتماء لها.

(٤) كل ذلك جعل أفراد القبيلة يكونون في موضع الالتزام بالتجمع ماديا ومعنويا للحفاظ على تماسك القبيلة. أما في الجانب المادي فعلى كل أفراد القبيلة التجمع في مواجهة الظروف القاهرة التي تجابهها حبا في البقاء فيعمل كل أفرادها معا ويحاربون معا (١). وفي الجانب المعنوي أفراد القبيلة ملزمون بالتصرف وفقا لقيم وتقاليد وعادات القبيله وتحمل نتائج كل ذلك. ولا يقف الأمر في هذا الجانب عند حد الرعاية لما ورثوه من عادات وتقاليد وقيم، بل عليهم أن يعلموا ذلك لصغارهم سواء بالتلقين أو بالممارسة وتلعب الأساطير ومآثر الآباء والأجداد وحكاياتهم دورا مهما في هذا الشأن (٢).

ومن هنا كان ارتباط البدوي بقبيلته امراً لازماً. هذا وقد أوضحت الكثير من الدراسات التي تناولت المجتمع البدوي ومكوناته مدى الارتباط الوثيق بين البدوي

١ - صلاح مصطفى الفوال علم الاجتماع البدوي، من سلسلة علم الاجتماع والتنميه ١٩٧٤م ص ١٧٥

٢ - نفس المصدر ٢١١

وقبيلته. فقد ذكر بيرجر – مثلا – أن البدوي مع تقديره الشديد لذاته الى حد المبالغة، الا أنه مع هذا شديد الانصياع لقبيلته ولمعاييرها الجماعية (١). والارتباط بالقبيلة يعني الانقياد لتقاليدها ونظامها. ويقول الدكتور الزلباني في هذا الشأن: « وأبسط تعريف للتقاليد أنها اتفاق على الاتيان ببعض المظاهر يسود بين الافراد في محيط معين، وهذه المظاهر السلوكية تميز الجماعة أو الطبقة بطابع خاص بالنسبة للوسط الاجتماعي الذي ينتسبون إليه وتؤكد الوحدة والتضامن بينهم » (٢) ويمضي فيقرر بأن سطوة التقاليد تزداد في المجتمعات الريفية عنها في المجتمعات الحضرية وكلما كانت الجماعة محلية محدودة العدد منعزلة كليا أو نسبيا عن المدن، كمجتمع القبيلة أو القرية أو البلدة الصغيرة، كلما اشتدت سيطرة التقاليد وكلما كان الإفلات من قبضتها صعبا بسبب نظام الأبوة ولأن الناس يعرف بعضهم بعضا وجها لوجه (٣). ومن ثم فان كلا منهم يراعي خواطر الآخرين ويخشى غضبتهم عليه أو سخريتهم منه أو مخاصمتهم اياه، و اغتيابهم له اذا هو خرج على ما أجمعوا عليه من تقاليد. ويساعد صغر حجم المجتمع في اكتشاف أي انحراف عن معايير المجتمع وتقاليده مما يتسبب عن ذلك حدوث ضغوط فردية وجماعية على الفرد (٤).

على ضؤ هذه الرؤية يمكننا أن نختبر وضع الهمبته في المجتمع البدوي ومجتمع (الأبالة) أي أصحاب الإبل، على وجه الخصوص. فهي بصورتها التي تمارس بها وبرسوخها في ذلك المجتمع تصل إلى درجة التقليد المتوارث. وربما يتضح لنا الأمر بوضوح أكثر حين نخضع ذلك للمعايير السائدة في المجتمع القبلي – وذلك بالنظر في الخلفية الاجتماعية لهذه الظاهرة من خلال حديث الرواة.

يقول راو من منطقة البطاحين عن سبب اشتغالهم بالهمبته: « اَلْسَبَبَ بَغَرَ من أجْدَادْنَا. فُلان جد و فلان أبُو فلان قبيِل بِيَعْمَل بِيَعْمَل هُو بِعَزِم يَعْمَل

١ - M. Berger The Arab World To day, London 1962 P64

٢ - الدكتور محمد محمد الزلباني، تجديد التقاليد، وزارة الثقافة السوانية ١٩٧١م ص ٤.

٣ - تجديد التقاليد ٤

٤ - نفس المصدر ٤

كانْ أبو يَعْمَل زَىْ أو كانْ جِدو و يَعْمَل زَى فِعِل جِدو » (١) . فهى اذن بهذه الصورة تقليد تورّثه الأبناء والأحفاد عن آبائهم وأجدادهم وقديماً قالت العرب :

ومن شـابه أباه فما ظلم

ولكن السؤال الذى يفرض نفسه هنا هو : ما هو موقف القبيلة من هذا النوع من السـلوك ؟ .

نجيب على هذا السؤال عدة روايات . من ذلك ما قاله أحد الرواة من منطقة الكواهلة : « نَظَرَ ألقَبَائِل فى ذَلِك المَوْضُوع (يعنى الهمبته) وْ قَبُل ما يَكُون بَسِيط بَس شَكْلُو دا كانُوا ألنّاس ألبِسوا ألحَاجَات دِى والله مُكْرَمين عند أهَالِيهم وْ مِنهُم ناس حتّى من بيوت دِينية » (٢) . ويقول راو آخر من نفس القبيلة : « عِندِنَا ألْ ماينقوم خويَويف وْ مسَيدِيد والبنَات يكَجَفن (٣) أمْوُ » (٤) . ويقول راو ثالث : « قبل كلو والله كان يبتى المره (٥) الما ركبت » . ويمضى فيقول : « فى الزمن الفات متباغرين فيها كلهم مره واحدة ، والما بسرق ، الما يقوم يسرق مو راجل كان » (٦) . فهى اذن ظاهرة سلوكية يشترك فيها كل أفراد القبيلة باستثناء النساء لأن طبيعة العمل لا تتفق مع تركيبهن البيولوجى . والتركيب البيولوجى هو أحد أسس توزيع العمل فى المجتمعات البدوية (٧) . فالحرب والنهب والسلب من الأعمال التى اختص بها الرجل دون المرأة ، وان كان للمرأة دور فى ذلك ، فأنه لا يتعدى أن تثير الحماس وتلهب المشاعر وتدفع الرجال دفعاً — لما لها من وظيفة اجتماعية — إلى الاستبسال فى الحرب أو التمادى فى أعمال النهب والسلب على نحو ما سنرى .

نلاحظ فى بعض الروايات السابقة أن الهمبته ارتبطت فى مفهومها ببعض القيم السائدة فى المجتمع البدوى والتى تشكل احدى خصائص الشخصية البدوية كالشجاعة .

١ — الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥٠
٢ — الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٢
٣ — كجن : بأجيم المعشه : كره وبغض .
٤ — الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٣
٥ — المره : المرأة .
٦ — الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠١
٧ — علم الاجتماع البدوى ٢٩٧

فالرجل الذى لا يمارس الهمبته هو رجل جبان وضعيف الرأى وناقص الرجولة « مو راجل كان » . وفى بعض المجتمعات القبلية فى البادية كانت الهمبته هى السلوك الذى يبرهن به الفرد على بلوغه قدر الرجال . فمن تقاليد البطاحين — مثلا — أن الفتى منهم عندما يبلغ سن الرشد فان عليه أن يثبت ذلك عمليا بوضع بصمته على ابل الغير التى يأخذها عنوة واقتدارا وجهارا نهارا (١) . وهنا فقط يعترف له المجتمع ببلوغ قدر الرجال .

تلعب الماشية دوراً رئيساً فى المجتمع البدوى الذى يعتمد اقتصاده على الرعى فهى التى تحدد مكانه ودور الفرد فى ذلك المجتمع لأنها أهم عناصر الثروة فيه . ولذلك فانها تلعب دورا رئيسيا فى مختلف مناشط الحياة الاجتماعية : فهى مصدر الغذاء والكساء والمأوى « وهى العملة المقبولة عند التبادل أو دفع المهر أو الدية أو ماإليها » (٢) . وهذا الدور جعل الماشية محط فخر وسعادة البدو ومصدر السلطة والغلبة فى مجتمعهم . فكان — تبعا لذلك — أن كانت الماشية هى ميزان قيمة الفرد أو الجماعة ، أى أنه كلما ارتفع عدد مايملكه الفرد من الماشية كلما سمت مكانته فى مجتمعه ، وكلما كانت الجماعة البدوية تمتلك قدرا كبيرا من الماشية كلما كان قدرها كبيرا وسط الجماعات الأخرى .

ونسبة لهذا الدور الذى تؤديه الماشية فى المجتمعات البدوية ، كان الحصول على اكبر قدر منها واجبا تقتضيه الضرورة ويحتمه الواقع المعاش . وقد كان الحصول على الماشية فى المجتمع البدوى فى السودان يأخذ أشكالا شتى . ومن هذه الأشكال الغزو الجماعى والاغارة من قبيلة ما على قبيلة أخرى ، كما رأينا فى «القيمان» و«النهيض» ، ومنها الغزو الفردى المتمثل فى الهمبتة وغيرها من الأساليب الفردية الأخرى . فهى تشكل — فى نظرنا — جانبا من جوانب الصراع الدائر فى المجتمع البدوى بين اصحاب المخانص من جانب ، وبين اولئك الذين لم تمن عليهم الطبيعة من فيضها بشىء وبالتالى تضاءلت منزلتهم فى المجتمع .

ورغم أن الهمباتة عموما لم يسعوا الى جمع الأموال ولم يكن تكديسها هدفا لهم ،

١ — التراث الشعبى لقبيلة البطاحين ١٤٨ .
٢ — علم الاجتماع البدوى ٢٥٩ .

الا أن هناك من الشواهد مايدل على أن هناك فئة منهم قد سعت فعلا الى جمع كميات كبيرة من الابل عن طريق الهمبتة . وشاهدنا على ذلك أن هناك جماعة يسمون « أولاد حليلات » هم اليوم من الثراء بمكان حصلوا عليه عن طريق النهب – على حد قول الرواية – يقول الراوى وهو يتحدث عن أحدهم ويدعى « العطا ود حليلات » : « دِىَ إلْبِلْتَهْ (١) هو عندُو مراحَين إبل(٢) والبِلْتَهْ كان وَدّ ولو كِبيرى ببيعها (٣) بى فلوسو ويقول في موضع آخر : « متراجى آىْ وُ كُلُّو ما لهُم هُمْ مُسْتَةْ سَبَّمَة كلهم ما لهم دَا عَمَّاْوه بى السّرقَة » (٤). ويقول أحد الرواة من الكواهلة وهو يتحدث عن أول عهده بالهمبتـه : « أدلِيتَ أتبِره نفسَها أول قُومَه لَىْ ، وُمِنْ اتبرة كِبِيْت وُجيت مِدّلى فى الدّنْدِر وُ وَ سَتَنْهِن شَمْرَة وُ شَخَلُوب وُ سَعِيتِهن » (٥) . وهذا يدل على أن منهم من كان يقوم بضم الإبل المنهوبة إلى إبله ويقوم بتربيتها . ولكن مع ذلك نقول بأن هذا لم يكن هو الهدف الأساسى وراء الهمبتـه إذ أن معظم الهمباته ، أو على الأصح كل الذين قابلناهم ممن مارسوا هذه المهنة لسنين عدة هم اليوم مـن الفقراء المعدمين ، ولم يبق لهم مـن ممارستهم الطويلة لمهنـة الهمبتة إلا شتات الذكريات وجملة أشعار هى كل رصيدهم فى الحياة .

هكذا نرى إلى أى مدى كانت الهمبته ترتبط بتقاليد القبيلة وقيمها . ومن هنا كانت الهمبتة ، وكان العمل بها يجلب للفرد شكر وثناء القبيلة بينما تجلب حياة القعود والتسكع اللوم والتحقير . ولذلك حرص كل فرد فى القبيلة على أن يكون موضع ثناء ومادة اشادة . ولعلنا نلاحظ ذلك بوضوح أكثر فى شعرهم الذى جاء حافلا بالحديث عن شكر القبيلة للذى ينهب ويسلب ولومها للذى لا يفعل ذلك . ومن هذا قول أحدهم :

أَلْوَلد ألْبِدور فُوقَ القَبِيلة يشكُرُ
يَخْلِف ساقُوْ فوق بَلَد العَدو وُ يتْوكّرْ
امّا جابْ رُضْوَه ألْبَهَم أل لِيهَيجُو مَسَكَّرْ

١ – اليله : الى الآن (٢) مراح : قطيع
٣ – بيبها : يعنى بشتريها
٤ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٨٩٦
٥ – سعى ومنها السعيه مايربيه الانسان ويقوم عليه وتطلق على المواشى والبهائم .

أمّا أبْ صَلَعَةْ فُوَق ضَلاَعُو تيتَل وُ كَرْكَرْ

ويقـــول الآخر :–

أَلْوَلد ألْخَايِف ألْقَبِيلَةْ تِلْسُومُوْ
يِخَلِف ساقُوْ فوق تيَساً رَقِيق قَدّوُمُوْ
أمَنْ جابْ رُضوه ألْبَهَم ألبِينْفِرْ فُومُو
وأمّا انخَامَشَنْ قَدَح ألرّماد حَرُومُو

اذن فقد كان المجتمع القبلى فى البادية يجزل الثناء لمثل هذا النوع من السلوك فـى الحياة ويلوم المتقاعسين عنه . ومن هنا كان على الفرد أن يعمل على كسب رضاء المجتمع حوله ويتجنب لومة وتحقيره وذلك بأن يعلو ظهر بعيره مزوداً بالسلاح للنهب والسلب .

ولعله قد يتبادر إلى ذهننا سؤال عن موقف الهمبته من الناحية الدينية من حيث أنها نوع من السرقة ومجتمع البادية فى السودان مجتمع يدين بالإسلام ومعروف بالطبع موقف الاسلام من السرقة . وللاجابة على هذا السؤال نقول أن العرف القبلى لا يعد الهمبته سرقة أوحراماً. بل على العكس تماماً ، فهويعتبرها إحدى سبل كسب العيش الحلال ، وينظر اليها كنوع من الفروسية ودليل على القوة والشجاعة ومعلوم أن المجتمع البدوى يقدس أعمال الفروسية . وفى الاطار العام فان النهب والسلب هو احدى القيم التى يقوم عليها المجتمع البدوى . ولكــن هناك ضـــوابط على كل شىء فى ذلك المجتمـــع حتى النهب والسلب والخروج على القانـــون .

وتبين الروايات نظرة أفراد ذلك المجتمع للهمبته – وفى ذلك يقول أحد الرواة من منطقة الكواهلة : « ما بْنِشُوفَهْ سَرْقَة بِنْشُوفَه سَمْحَهْ » (١) . وهناك من يعد نهب الابل بعيداً عن السرقة ويرى أن نهب غيرها من أنواع الماشية وغيرها هو السرقة بعينها . وفى ذلك يقول طه الضرير : « لا دِى مِى سَرْقَه (يعنى الهمبته) ألسَّرْقــة عِنْدَنا ألسَّخَل (٢) والعَتُود (٣) والعَنْز (٤) وُ عَلَقَةْ ألنسوان . العلقة يعنى حتة

١ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٣
٢ – سخل : ولد الشاة (٣) عتود : من أسماء أولاد المعز
٤ – عنز : أنثى المعز .

دهب ، سكسك . . . دا يقولوا سراق » (١) . ويقول راو آخر من منطقة الكواهلة :
« ما بين المهجراوى والسراق فى فرق . أولا السراق ببرى بى هنى وببرى بى هنى ، ويا كين المهجراوى دا مكـرب جمـلو ، بندقيتـو ودرقتو وطاش بى الخـلاء » .

هذا وقد عبر شعر الهمباته أنفسهم عن هذه النظرة للهمبته و كأنهم بذلك يجيبون على السؤال المطروح أو كأنهم قد طرحوا هذا السؤال على أنفسهم وأرادوا بذلك أن يدفعوا عن أنفسهم هذه الصفة غير الحميدة . ومن ذلك قول أحد البطاحين :–

فوق الكـرت شـلقنا (٢)
وكدى لى بيلة عرفنـا
جبنا حلال ما سرقنـا
علينا شـهودنا درقنـا

ويقول أحد شعراء الشكرية :–

يوماً يا ولد بى السكوبيس ننجـال (٣)
كعب فلس الصبى وسمح القعاد فوق مال
نروح الغـرب نجيب بكارة غفـال
نجيب فوقهن مطارق أب سن وسمنا حلال

لم تكن القبيلة إذن بمنأى عما كان يحدث . بل كانت بتقاليدها وقيمها وعاداتها دافعاً قوياً من دوافع الهمبته . وهى تنظر للشخص الهمباتى نظرة اعجاب وتقدير وللمقصر عن ذلك نظرة انكار وتحقير . وهى ترى فى الهمبته تقليداً يجب أن يراعى . والهمبته فى نظرهـا أسلوب فى الحياة كفيل بتوفير المـال حيث تشتد الحاجة ، عندما تشح السماء وتمسك الأرض ثمرها داخـل احشائها أو تصير غـير قادرة على العطـاء والهمبته فى نظرها ليست سرقة يعـير بها أو حراماً يخشى عقابه . بل هى حلال طيب ومجـال واسع لابراز صفات الفروسية والقـوة والشجاعة . « والبدوى يحـترم الفروسية والقوة حتى

١ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥٠
٢ – التراث الشعبى لقبيلة البطاحين ١٤٨
٣ – من بحث عن الطيب ود ضحوية فى مسابقة السلمابى لعبدالسلام سليمان .

فى مواقف الغزو والسلب والنهب » (١) . وقد ذكر ابن خلدون أن من صفات البدوى احترامه للسلب والتخريب وتقديس القوة بكل مظاهرها . وما دامت تقاليد القبيلة تبيح مثل هذا النوع من النشاط وتحض عليه ، فقد أصبح لزاماً على الفرد منها التصرف وفقاً لذلك والاعد خارجاً عليها ، لأن احترام تقاليد القبيلة ومراعاة قيمها ومجاراة عاداتها هو من باب الالتزام المعنوى من الفرد تجاه القبيلة على نحو ما رأينا آنفاً .

المـرأة :–

سوف نجعل الحديث عن دور المرأة فى نشأة الهمبته واستمرارها جانبين :–

(١) الجانب الأول هو مكانة المرأة فى المجتمع البدوى عموماً ، وفى المجتمع السودانى البدوى على وجه الخصوص ، لنرى مدى التأثير الذى تحدثه فى حياة أفـراد المجتمع من الرجـال .

(٢) والجانب الثانى يتعلق بالمرأة فى مجتمع الهمبته والدور الذى تلعبه فى هـذا المجتمع وفى نشأة الظاهـرة .

١ – المرأة فى المجتمـع البدوى :–

جاء فى « علم الإجتماع البدوى » أن هناك من المكانات والأدوار فى المجتمـع البدوى ما يرتكز على الاختلاف البيولوجى بين الذكر والأنثى . حيث أنه لدى غالبيـة المجتمعـات البدوية يتمتع الرجل بمكانات السـيادة والسلطة وما يستتبعها مـن الأدوار الاشرافية . بينما تختص المرأة بمكانات أقـل وبالتالى بأدوار أقـل أهمية من وجهة نظر المجتمع البدوى كأعمال جمع الطعـام والحطب وطحن الحبوب وأعـداد وطهى الطعام والنسيج وصنع الأوانى والأدوات وأحياناً تقوم المرأة بأعمال الرعى كما هو الحال لدى المجتمعات البدوية العربية – فضلا عن أدائها لمهامها كزوجة وأم (٢) . أما الرجل فانـه يختص بأعمال الغزو والقتال والثأر والتمثيل الخارجى سوى لدى الأسرات الأخرى أو البطون والعشائر أو حتى القبائل .

ونحن نلاحظ أن التقسيم فى العمل لا يجعل للمرأة مكاناً فى الحياة السياسية وبالتالى

١ – علم الإجتماع البدوى ١٧٢
٢ – علم الإجتماع البدوى ٢٩٧ – ٢٩٨

فهى لا تلعب دوراً سياسياً واضحاً . ولكن رغم ذلك فأن للمرأة تأثير فعال فى القرارات التى تتخذها القبيلة سواء كانت تلك القرارات قرارات سياسية ، أو قرارات ذا صبغة عسكرية . وفى البادية السودانية على وجه الخصوص هناك أنماط من مثل هذا التأثير الذى تمارسه المرأة فى الحياة السياسية للقبائل . فهى تتوسط فى كثير من الأحيان فى توجيه سلوك الرجال لما لها من تأثير اجتماعى عظيم . ثم أن القرار السياسى الذى تتخذه مجموعة رجال القبيلة . قد يكون خاضعاً لرد فعل لدى نساء القبيلة نحوه . والمرأة قد تتسبب فى تكسير خطط الرجال السياسية وتجعلهم يرجعون عن أخطر القرارات بتأثيرها الإجتماعى .

ومن هذا الذى نقول ما يرويه أيان كنيسون Ian Cunnison من أن مجموعة من الحمر خرجت للصيد ولكنها ارتكبت خطأ تمثل فى تخطيها للحدود المسموح بها فى الصيد . وقبض بوليس مركز النوبر على أفراد هذه المجموعة بهذه التهمة . وبدأ نقاش رؤى اكماله داخل معسكر الصيد حيث كانت تتواجد النساء . وهناك جلسوا جميعاً حيث قدم الشاى والطعام. وبعد النقاش وافق الرجال على الذهاب مع رجال الشرطة لاستجوابهم بواسطة مأمور المركز. ومن داخل المعسكر سمعت النساء تغيير مجرى الحديث . وبينما كان يعدون رواحلهم استعداداً للذهاب ، جاء رد الفعل من جانب النساء مدوياً مستنكرات عليهم هذا الخضوع المذل لجماعة هم بالنسبة لهم بمثابة العبيد . ونتيجة لهذا التحريض والاثارة انقلب رجال القبيلة على رجال السلطة فقتلوا منهم أربعـة . وبعد وقت ليس بالطويل وصلت تعزيزات من رجال الشرطة حيث أخـذ رجال القبيلة رهن الإعتقال وقـد سلم جميع رجـال القبيلة إلا واحـداً منهم أثر القرار . ولم يقف الأمر عنـد ذلك الحد ، بل تبع ذلك أن قامت النساء بتأليف الأغانى التى تذكر هذا الموضوع وتخلده ، وقـد تركزت تلك الأغانى حول شخصين : الرجل الذى قاد الجماعة وتحمل ما ترتب على ذلك من نتائج . وفى الجانب الآخر كانت السخرية من الرجل الذى فر من وجه القانـون(١) هذه أحدى صور التأثير الاجتماعى للمرأة فى المجتمع البدوى فى السودان .

وهكذا نلاحظ أن وظيفة المرأة الاجتماعية فى بادية السودان هى من الخطورة بمكان . والرجل فى نظر المرأة هو القوى ، الشجاع والكريم . فاذا فقد احدى هـذه

١ – Cunnison, I, Baggra Arabs, Oxford 1966,P. 33

الصفات صار مادة دسمة للسخرية والتحقير . وسلاح المرأة فى كل ذلك هو لسانهـا . وقد ذكر الدكتور عبد المجيد عابدين أن للنساء أثر واضح فى غناء الشعر الشعبى فى السودان. ومن صور ذلك غناء «الحكامات» اللائى يقمن بغناء مدائح أو أهاج تدور غالبا حول الجمال والكرم والفروسية التى هى فضائل الممدوح ، أو حول الجبن والبخل والعجز ، وهو أشد مايستثير انتباهم من رذائل المذموم (١) . والمهم فى الموضوع أنه كان لهذه الطبقة من النساء أثر عظيم فى حياة الرجال فكانوا يتجنبون شرهن مهمـا كلفهم ذلك ، واذا وقع احدهم فريسة لهن فالحل الوحيد امامه ان يترح من بلده . ومن هنا كان الرجال مهما سمت مكانتهم فى مجتمعهم فانهـم كانوا يشترون صمت هؤلاء النساء. وقد ذكر عبدالمجيد عابدين أن لامبن Lampen ذكر أنه رأى ثلاثة من نظار القبائل يقدمون رشى باهظة الى حكامه منهن لأنها هددتهم بهجومهم (٢) .

ولعلنا هنا لا ننسى الدور الذى لعبته شغبة شاعرة المرغوماب فى تسجيل المعارك بين المرغوماب والبطاحين . وما يروى عنها أنها فى مرة « أنحت باللائمة على ولدها حسين الذى استهوته حياة اللين والتكاسل فقعد عن نصرة قومه وذكرته بأنه لن يحظى بحب أية فتاة من قومه لأن الفتاة لا تحب الخامل المتخاذل واستحثته على النهوض الى القتال والذود عن عشيرته ولو أدى به الأمر أن يعود اليها من الحرب جثة هامدة وأشلاء ممزقة (٣) .

ومن شعرها فى هذا المعـنى :–

يا حسين أنا أمك وأنت ماك ولدى   بطنك كرشت غى البنات ناسى(٤)
ودقنك حمست جلدك خرش ما فى   لاك مضروب بالسيف نكمد فى
متين يا حسين أشوف لوحك معلق   لا حسين كتل ولا حسين مفلـق
لا حسـين ركب الفى الشاية علق   قاعد لى الزكاة ولقط المحلـق .

وازاء هذه الوظيفة للمرأة فى المجتمع القبلى فى البادية ، كان الرجل يسعى لتجنب الاتيان بما يجعله مادة للسخرية والهجاء ، ويحرص كل الحرص على أن يظهر أمام المرأة

١ – عبدالمجيد عابدين ، تاريخ الثقافة العربية فى السودان بيروت ١٩٦٧م ص ١٨٩ .
٢ – نفس المصدر ١٩٠
٣ – عبدالمجيد عابدين ، فى الشعر السودانى ، بيروت ١٩٧٢م ص ٣٧
٤ – تاريخ الثقافة العربية فى السودان ١٩٦٧م

بالمظهر الذى تريد . وهكذا كانت المرأة هى العين الساهرة والحارس الذى لا يغفو ولا يغفل عن مراقبة تصرفات الرجل ، وكان الرجل بدوره من الحذر بحيث لا يترك للمرأة ثغرة تنفذ منها اليه .

(٢) المرأة فى حياة الهمباتـــة :-

يعتبر الهمباتى فى مجتمع البطاحين الزوج المثالى (١) ، وقد أهله لذلك طبيعة العمل الذى يقوم به . فمهنة الهمبتة فى نظرهم معين لا ينضب ومورد رزق لا ينقطع . وتفسير ذلك أن الطبيعة فى البادية سمتها التطرف ـ فالمطر ـ مثلا ـ قد ينقطع لسنين عدة فيعم الجفاف .وقد يأتى فجأة فتنهمر السيول والثلوج لتشوه حتى وجه الصحراء القاحلة(٢) . وانقطاع المطر يعنى الجدب ، والجدب مضـــر بالماشية اذ يتعذر الكلأ . واذا حدث ذلك ضاقت سبل المعيشة بالناس . والذى يكـــون عمله معتمداً على ظروف الطبيعة ذات الأهواءالمتقلبة لا يؤتمن على اعاشة زوجته وأولاده إذا تغيرت الظروف الطبيعية فى سنة من السنين . ومن هنا كان الهمباتى الذى يعمل عملا لا تؤثر فيه غضبة الطبيعة ، هـــو الزوج المثالى الذى تكون زوجته وأولاده فى مأمن من عوامل الطبيعة وتقلباتها .

كانت المرأة فى حالة حضور دائم فى حياة الهمباته وفى شعرهم . وما الصـــورة السابقة إلا أحدى صور حضورها فى حياتهم وهى كانت سبب خروجهم من ديارهـــم وتعرضهم لهجير الصيف وزمهرير الشتاء . كانت هى دافعهم لاقتحام الخطر وركوب الصعاب . ثم كانت هى الظل الوريف الذى يأوون اليه بعد عودتهم من رحلة الهمبتـــة فتمسح عنهم غبار السفر وتحبوهم بحبها وعطفها . والمرأة حاضرة فى حياة الهمباتة فـــى الصحراء أو فى السهول أو فى الغابات . فهى التى تنزل الطمأنينة والأمن وتثبت أقدامهم حين يلتف بهم الخطر ويحيط بهم القدر ويوشك الموت أن يسدل عليهم رداءه . وقـــد روى أن الطيب ود ضحوية كان يسير ورفيق له فى غابة كثيفة الأشجار يستمعون إلى صوت قرض الإبل فى الأشجار ويحاولون تحديد اتجاهها وفجأة يزأر أسد فيمزق ستار الصمت حولهم :: وبَعَدَيْن فى أثناء مَشِيهُم جُماهُن شايْلات ألجِرّة (٣) وهُـــم

١ ـ التراث الشعبى لقبيلة البطاحين ١٤٨ .
٢ ـ علم الاجتماع البدوى ١٧٣ .
٣ ـ الجره : ما يخرجه البعير من جوفه ليمضغه مرة ثانية .

ما سكين لهم مناسبَة كلام بى الرّاحَة . بعَدين فى أسد قام قِدّام مِنهُم سِـــمع حرَكتهُن نتر . لما الأسد نتر الجمال كَضمَن (١) ألجرّة و هُم سكتوا من المناسبة أل بقولوا . . . بعدين فى الوكت دا الطيب انتبه قال

أللّيل امسَى والنّعسان جرَايد و (٢) بدحَن (٣)
كبّس (٤) ألهم علىَ السّلط (٥) قلوبهم وحّن(٦)
كَضمْ ألجرّة سحّار الغروب (٧) إتمحّـــن (٨)
تعوّد سلمانَة (٩) يا عُمر الظنون إن صحّن (١٠) ، (١١) »

والمرأة فى حياة الهمباته نوعان : النوع الأول هى المرأة العفيفة المصونة أو « بنت القبيلة » . أما النوع الثانى فهى المرأة العاهرة التى يغشاها الهمباته للترويح والسمر وشرب الخمر . والتى تهبهم الحنان وتجود عليهم بجسدها ، ونحن نعلم أن المجتمع العربى البدوى منذ عهده الأول كان يضم طبقتين من النساء : طبقة النساء العربيات وهن الأمهات والزوجات والبنات . وأما الطبقة الثانية فهى طبقة العاهرات التى تتألف عادة من الأماء أو من أعتق منهن (١٢) . وقد سبق لنا أن ذكرنا أن المجتمع البدوى فى السودان هـــو صورة من المجتمع البدوى فى جزيرة العرب التى وفدوا منها . هذا وقد كان لكل طبقة من الطبقتين الآنف ذكرهما من النساء دورها فى دفع الرجال لإمتهان الهمبته . وقـــد تغنى الهمباته فى شعرهم بكل طبقة منهما . يقول الطيب ود ضحوية :ـ

١ ـ كضم : كزم : ضم فاه وسكت .
٢ ـ جرايد : جمع جريده وهى الساعد . وتوصف ساق الابل الامامية بالجريدة
٣ ـ دح : ضرب الارض
٤ ـ كبس : زحم وملأ
٥ ـ سلط جمع سالط وهو الشديد
٦ ـ وح : صوت واضطرب .
٧ ـ سحار الغروب : جمله ويبدو انه أتى من الغرب .
٨ ـ تمحن : أصبح ساهما شارد البال كانه فى محنه
٩ ـ سلمانه : احدى الغوانى
(١٠) صح : تحقق
١١ ـ الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٨
١٢ ـ الشعراء الصعاليك ١٠٨ .

كم شديتَ علىَ تِبَساً بِسُوك (١) التَـابْ (٢)
وكَمْ جايب (٣) زَمِل (٤) من ألرّهدَ (٥) كُسّاب (٦)
حَديث ألنّاس كَتير ما عِندى لِيَهُو حِساَبْ
إنقَطَعَ أللّسان يا فَاطْمَةَ (٧) أبُوكى إنْ عاَبْ

وتتحدث الروايات عن المرأة كسبب أساسى ودافع رئيسى وقوى لاشتغال الناس بالهمبته . فمن قبيلة حمر يقول أحد الرواة : « بَسْ عِنْدَنا فى ألزّمن ألسّـابق ألْواحد وكت يجيب حاجة . وكت – يجيب مالْ ألْقَبِيلة ألْبَعِيدة يَعَنى ألْبَنَات بِشكّرنُوا كتير . علَى حسَب ألشكُر مُش علَى حسَب ألفَلَس أبداً » (٨) . ويروى آخر من نفس القبيلة أنه كان يهوى أحدى الفتيات ويرغب فى الزواج منها ولكن والده رفض أن يبيع البقر ليزوجه منها وقال له إذا أردت أن تتزوج من هذه الفتاة فان عليك أن تخرج لتكسب مالا . وفعلاً حدث ذلك . ويقول : « دآ ألْ بخلينا نَقُـوم نَـُوق ألْبِل نجيب ألمال ديك . بَعَدين جِبْنَ المال نحمد الله وأزوّجتها » (٩) . فالهمباتى لا يحرك رجلا ولا يخطو خطوة إلا كانت المرأة عالقة بذهنه . وهو يظل يذكرها حتى إذا أقلع عن الهمبته . وما أن يتذكرها ويتذكر لحظات المتعة معها حتى يعصره الحنين ويغلبه الشوق فيعتلى ظهر بعيره من جديد :ـ

عَكَسْنا طَرِبنا يا المَنُوع لَيالى لَعِبنـــا
وْ سَبنا سْرُوجنا فوق ألْنِيب بَعَد ما شِبنَا
قَلّت نُومى فُوسبَة الْقَرِيَر أللّيْنَـــة
كَمْ لى رَضَاهـا بى دَرْب ألدّراهِم غِبنا

١ – بسوك : من ساك نايه اذا صوت و كرز
٢ – الناب : السن خلف الرباعية ويقولون نايب
٣ – جايب : من جاب : احضر .
٤ – زمل : جمع زامله وهى الدابة يحمل عليها ويعنى هـذا مجموعة الابل . (٥) الرهـد : يعنى منطقة نهر الرهد .
٦ – كساب : من كسب وهى فى قاموس الهمباته أخذ المال بالقوه .
٧ – فاطمة : فاطمة وهى بنته وهى موجودة الآن بمنطقة الشقالوه بشندى
٨ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٨٩٦ .
٩ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٨٩٤ .

ومن ذلك قول الآخر :ـ
وَلّع (١) ألْكَدَوس (٢) تَمْبكِنا (٣) يا عبَاس (٤)
عَقِيد (٥) ألْنُـقَرن (٦) لا مِنْ نهارِن داســـ
هَلكنـــا العَمِير (٧) إلاْ ربْ ألْعِبَـــاد خَــلاّص
ما بترضى أم رُشُوم (٨) جِيبَةْ ألْسّروج يُباس (٩)

أما الطبقة الثانية من النساء فقد كان للهمباته معهن صولات وجولات . وكانـــوا لا يغنمون إلا وسرعان ما يعودون اليهن وقد بلغ بهم الشوق مداه . يقول أحد الهمباتـــه من قبيلة الكواهلة عن سبب إشتغالهم بالهمبته : « سَمْتَةَ(١٠) بَسْ – ولى ألْبَنَات وْلىَ المجالِس » . ويقول فى موضع آخر عن أوجه صرفهم : « . . . . . نِتْونس مـــع البنات (١١)، ألْفَرْخَةَ (١٢) ألْسّمْحَةَ كُلّها نحنْ راقدِين معَاها(١٣) . ويقول أحدهم من منطقة حمر : « فى خُصوص المجالس وفى خُصوص ألْشّرابات وفــى خصوص دخول بيُوت ألْنّسوان ألْ هنْ فاتحات بَارَات وْ هَكَذا »(١٤) . إذن فقد كانت الخمر والنساء تشكل دافعاً قوياً من دوافع الهمبتة . أما شعر الهمباتة فقد جاء حافلا بذكر المرأة وصورها كدافع أساسى لمثل هذا النوع من السلوك . وكان سفر الهمباتـــى

١ – ولع النار : أشعلها
٢ – الكدوس : الغليون
٣ – تمبكه : من التمباك
٤ – عباس : احد رفاقه
٥ – عقيد : قائد
٦ – نوقر : شرد وأبعد
٧ – العمير : تصغير عمر
٨ – رشوم : جمع رشمه وهى سلسلة دقيقة من الذهب يقلد أحد طرفيها بالزمام والطرف الآخر يشد عل شعر الرأس أمام الأذن
٩ – يباس : خاليات .
١٠ – سمته : الوقفة الكريمه والشرف والسماح .
١١ – تونس : تبادل الحديث مع
١٢ – الفرخة : الأمه .
١٣ –الإرشيف سريطرقمم/د/أ/أ/١٩٠٣
١٤ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٨٩٩ .

رضاها :-

المتواصل من أجل كسب رضاها :-

واحدَات فى البيُوت دِيمة (١) محمرات (٢) دُخانهن (٣)
طالَت شدّة المغبُون (٤) دوّام فُوق شانهن (٥)
إنعقدُوا (٦) ألصّناديد (٧) أخوانى أل بعرفُوا بكانهن (٨)
جابُوهن مرَايا (٩) ولا مزالقات (١٠) حيرانهن (١١)

وهم فى سبيل إرضاء المرأة يبذلون كل مرتخص وغال ويستهينون بالموت ويزدرونه وهو عندهم البديل المقبول لعدم جلب ما يرضى المرأة :-

ألولد ألبِدُور فى قفاهُو ما يشنف
أل بجيم فُجة ألنشَق ألطويل ؤ مقنّف
أما بجيب رُضى السمّنانة ما يتخنف
ولا أم روية لا حُولين تكُوفتُو معنّف

ومن أجل إرضاء المرأة وكسب ودها كان الهمباته يستعذبون كل مر ويتحملون كل صعب ، ويقدمون كل تضحية وفداء . فاذا ما رمت بهم الأقدار فى السجن إستعانوا بالصبر عليه بذكرهن :-

ألقَيد والحبس قط لى القلب ما بُوذر
أطرى اللينة يا طه الضرير لا تُوذر

من كل هذا يتضح أن المرأة كانت عاملا فعالا فى نشأة الهمبته واستمرارها ،

١ - ديمه : دائما
٢ - محمرات من حمر : احمر لونه .
٣ - الدخان : من تدخنت المرأة اذا جعلت الدخان يعلوها . وهى عادة ان تدخن المرأة بعيدان زكيه .
٤ - المغبون : من الغبنة وهى الشعور بالمرارة
٥ - شانهن : شأنهن
٦ - انعقدوا : تكاتفوا
٧ - الصناديد : جمع صنديد وهو الشجاع
٨ - بكان : مكان
٩ - مرايا : جمع مرى وهى الناقه التى تدر اللبن بعد ان تلد
١٠ - مزلقات : من زلقت المرأة الجنين اذا أسقطته .
١١ - حيران : جمع حوار وهو ولد الناقه قبل ان يفصل .

ودافعا قويا للانخراط فيها . فالمرأة فى الحى تحث الرجل على الخروج وحين يغيب تنتظر اوبته لتفرح به وتقول الشعر فى مدحه احتفالا وتكريما . فقد كانت النساء يؤلفن الأغانى فى مدح الهمباته على نحو ما رأينا فى الفصل الأول من الباب الأول من هذا البحث . والطبقة الثانية من النساء هى الأخرى تنتظر الهمباتى لتقضية الوقت فى المسرح والطرب ، فى احتساء الخمر ، وفى ممارسة الجنس . وفى مقابل ذلك يغدق عليها من عائد رحلته - وهو فوق ذلك سيد الموقف والمسيطر على دائرة الطرب . وهذه مسألة نفسية ، أى تأكيد السيادة والذاتية واحتلال زمام الأمر فى مجلس المرأة . وكثيرا ما يتكرر هذا الموقف بالنسبة للرجل السودانى وسيظل .

ومما يروى فى مثل هذه الحالات أن الطيب ود ضحويه (١) عاد غانما من رحلة له وحط رحله فى منزل احدى صديقاته . وانتظم المجلس فى الشرب ودارت الخمر بالرؤوس . وهنا طلب الطيب من صديقته أن تكمل الصورة بالرقص . فاستجابت له المرأة . وساد الطرب الدار ومن فيها . وبينما المرأة تؤدى رقصها والجميع فى انتشاء وحبور ، اذا بالغانية تتوقف فجأة عن الرقص وفى عينها ذهول مخيف . ولما رأى منها ذلك جذبها اليه واطل من الباب ليرى حقيقة ما أثار الرعب فى نفسها . رأى الطيب جماعة من المسلحين تنوى اقتحام المكان ، وكانوا هم اصحاب الابل التى كان الطيب قد نهبها وهيأ بثمنها جلسة الطرب التى هم فيها . لم يحرك المشهد شعرة فى رأس الطيب ولم يبد له اهتماما بل التفت الى صديقته وطلب منها أن تواصل الرقص ولأنهم لمثل هؤلاء الضعاف فهو كفيل بالقضاء عليهم ان أقبلوا يريدونه بسوء :

زُوزَى (٢) ؤ نَسفِى (٣) أل فوُق المتَاقِيل (٤) نَدّة (٥)
ؤ ما يَعجِبنك فزَع (٦) ناساً كُتالهُم (٧) .... هدّه (٨)

١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٨ .
٢ - زوزى : سار فى تخبط .
٣ - نسفت المرأة كفلها : غربلته .
٤ - متاقيل : جمع متقال وهو ضرب من الحلى الذهبة .
٥ - ندى : من الندى
٦ - الفزع : النصره وطلب اللص الغاصب .
٧ - كتالهم : قتالهم.
٨ - هد : هدد دون الضرب

تعرفي نبانا (١) إنْ لحق الضُّراع (٢) إنـمـدة (٣)
نمي الرقصة عقبان (٤) ألسّماء ألْ ينهـدة (٥)

لفت ذلك إنتباه كل من فى الدار فراحوا يستطلعون الأمر . ولما أدركوا حقيقة ما يجرى خارج الدار إرتبكوا جميعاً وساد الإضطراب مجلسهم وراحوا ينظرون الى بعضهم البعض فى هلع وخوف شديدين . وظل الطيب ثابت الجنان مليئاً بالثقة ، وأراد تطمين خوف الجماعة وتهوين شأن أصحاب الإبل الذين جاءوا يقتفون أثر أبلهم وهم يتحفزون للانقضاض . فأنشأ الطيب يقول :-

ديكة (٦) حِلة (٧) من الطلْعة ما بحوشونا (٨)
يا بِتْ غنى يا ناس روقوا (٩) لا تنداوشونا (١٠)
حرمت الحلال ألليلة كان يغشونـــا (١١)
حِس(١٢) ألْ فى الجراب (١٣) هسع (١٤) يعيط (١٥) فى الشونا(١٦)

الفقــر :-

رغم أن صورة الفقر غير واضحة وضوحاً جلياً – فى مسألة الهمبته كما هو الحال بالنسبة

١ – نبانا : نبأنا
٢ – الضراع : الذراع
٣ – اتمد : من مد اى بسط
٤ – عقبان : عقب ذلك.
٥ – انهد : من هد البناء اذا هدمه وضعفه
٦ – ديكه : جمع ديك وهو ذكر الدجاج
٧ – حله : قريه
٨ – حاش : اعترض طريقه ليقبضه وهو جار .
٩ – روقوا : من راق بمعنى صفا .
١٠ – تداوشونا : من الدوشه وهى الازعاج
١١ – غشا : غشى فلان أتاه
١٢ – حس : صوت
١٣ – وعاء من الجلد
١٤ – هسع : الآن
١٥ – عاط : صاح ونادى
١٦ – الشونا : مكان بعينه .

للمملكة العربية ، إلا أنه كان يشكل أحد دوافع الهمبته . فمن هؤلاء من دفعه الفقر دفعاً لأن تمتد يده الى ابل غيره بقوة السلاح . وفى هذا المجال يقول احد الهمباته من منطقة الكواهله وهو يتحدث عن سبب اشتغال الناس بالهمبته : «ينهضوا لى الصرمة (١) ويتنهضوا لى السوالف سوالف ألشكر» . وفى الحديث عن كيفية صرف ما يحصلون عليه من أموال نتيجة للنهب والسلب ، يقول : «ياكلوهن أولادهم ويسقوهم» (٢) . فهذا النوع من الناس دفعته الفاقة وضيق ذات اليد دفعا الى امتهان الهمبته . وعموما نستطيع أن نقرر بأن صورة الفقر كدافع من دوافع الهمبته تظهر بوضوح أكثر فى وقتنا الحاضر هذا منه فى الزمن السالف . فالكثير من الهمباتة اليوم وخاصة فى منطقة حمر ، يتحدثون عن الفقر واشتداد الحاجة كدافع وسبب رئيسى من أسباب امتهانهم للهمبته وسعيهم الدائب وراء الابل .

يقول أحد هؤلاء عن سبب نهب الابل : «والله فى ناس إحتياج .....» ويقول همباتى آخر من قبيلة حمر : «فى زول يمنى أصلو أصلو دقيق الويكه(٣) فى بيتو مافى ، والناس ألمال راقد فى شقك بى جاى وبى جاى (٤) . بعدين اليوم دا أولادك جيعانين (٥) لابد من تروح تسرق تعشيهم» . ويقول فى موضع آخر : «..... وفى ناس ديل فقرانين (٦) عديل الله أكبر ، بعدين تروح لى التاجر تقول لى ديني نص رطل سكر مابديك نص ملوة عيش مابديك ، والمال باريك غرب صباح (٧) ، وعيالك (٨) جيعانين جدا» (٩) . فهذه الروايات تدل دلالة قاطعة على أن بعض الناس قد دفعهم ضيق العيش دفعا الى أن يسلكوا هذه الطريقة فى الحياة التى تقوم على نهب وسلب الابل .

١ – صرمه : حاجه
٢ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٥ .
٣ – الويكه : البامية والبامية الناشفه
٤ – بى جاى وبى جاى : من كل النواحى .
٥ – جيعانين : جوعى
٦ – فقرانين : فقـراء .
٧ – صباح : شرق
٨ – عيال : أبناء .
٩ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٨٩٧ .

أن الهمبتة بهذه الصورة تعتبر صراعاً بين الغنى والفقير . وذلك ما تمليه طبيعة الإقتصاد البدوى الذى يفتقر توزيع الثروة فيه إلى التوازن . وينتج عن ذلك وجود فقر مدقع وإلى جانبه غنى فاحش . وفى حقيقة الأمر « المجتمع البدوى من ناحيته الإقتصادية بسيط التكوين ، فهو يتكون من طبقتين إقتصاديتين أساسيتين : طبقة أصحاب الإبل أو أرباب المخانض كما يسميهم بعض الشعراء ، وطبقة الصعاليك ، وكان ابعد الإقتصادى بينهما بعيداً » (١) . أن هذا الذى يقال عن ظاهرة الصعلكة العربية ينطبق على ظاهرة الهمبته فى المجتمع البدوى فى السودان ، ففى البادية الرعوية فى السودان يمتلك بعض الناس عدة قطعان من الإبل والغنم والمعز ، بينما لا يجد آخرون بعيراً يرتحلون عليه ويحملون عليه متاعهم. ومن هنا يتحتم عليهم أن يستعملوا قوتهم لفرض نوع من التوازن فى الحياة الإقتصادية لمجتمعهم — فالهمبته إذن هى صورة من صور الصراع الإقتصادى فى البادية بين من يملك وهو ضنين وبين من لا يملك وهو مغتم حزين . ولكن هذا الحزن سرعان ما ينفجر غضباً ويأخذ صورته الإيجابية فى اللجؤ إلى إستعمال القوة لرد الظلم الواقع على الفقير والمحروم.

المتعة الشخصية :—

كان بعض الهمباته ينهب ليشبع حاجته إلى اللهو فى مجالس الشرب والنساء ، والتى لا تتوفر له فى حياة مجتمعه العادية :—

آخْ (٢) واغُلْبِى (٣) مِن زُولاً جَمَالُو مُلُوكِى (٤)
وَالحاسْ (٥) بيهُو من تَالاَكْ (٦) يِضُوقُوا عَدُوكِى
أمَنَ بَرضَى بى الذلّة وأتُركُو لهوكِى (٧)
وَامّن نَطْلَعَ القَلَعَةُ وجِبَال ألسُّوكِى (٨)

١ – الشعراء الصعاليك ١٢٢ .
٢ – آح وأح : لفظة تستعمل عند الألم .
٣ – الغلب : الهزيمة .
٤ – ملوكى : نسبة الى الملوك أى كجمال أهل الملك .
٥ – الحاس : من أحس بالشىء اذا شعر به والحاس : الذى أحس به
٦ – من تالاك : من ناحيتك
٧ – لهوكى : لهوك أو اللهو معك..
٨ – القلعة وجبال السوكى : أماكن بين نهرى الدندر والرهد ومنطقة القضارف .

فهو هنا بين أمرين أما أن يترك حياة اللهو مع صديقته هذه التى كم هى جميلة كجمال الملوك ، وأما أن يغزو القلعة وجبال السوكى . ولقد كانت حياة اللهو والمجون هذه تسيطر على جميع الهمباته ، ولكنها كانت أوضح فى بعضهم أكثر من الآخرين . ومن هؤلاء من كان من بيوت ضالعة فى الثراء يمكن أن توفر له العيش الهادىء . ولكن الرغبة فى الحياة اللاهية تملأ نفس الفرد منهم وتدفعه دفعاً لنهب أموال الناس .

ولعل أصدق مثال لهذا القول ولهذا النوع من الهمباته شخصية الطيب ود ضحوية . فكل الروايات عن حياته تجمع على أنه ينتمى إلى أسرة تملك أعداداً كبيرة من الماشية بكل أنواعها : الإبل والغنم والمعز والخيل والحمير . ثم أن الطيب كان أكبر أخوانه ، فكانت الفرصة أمامه واسعة للتمتع بأموال والده فى حدود ما يكفل له الحياة المستقرة ويوفر له متطلبات العيش . هذا وقد وصل الأمر بوالده أن عرض عليه نصف ماله نظير استقامته واقلاعه عن هذا النوع من السلوك . ولكن الطيب لم يكن يعير كل ذلك أذناً صاغية فظل منغمساً فى حياة النهب والسلب وما توفره من أساليب اللهو . وحتى فى المرات التى إستجاب فيها لنداء والده بالبقاء فى داره ، كان كل مرة يضيق بحياة القعود وسرعان ما يعود إلى ما كان فيه :—

قُعاداً فى البِيُوت يا الرايِقَة (١) مِنْ دُون صَالِحْ
بَسْمع يا علَى العَاقِل بِقُول مُو فَالِحْ (٢)
لَوْ كان مِساعِدْنِى الزَمَن مُو مجالِحْ (٣)
كَمْ وَدّيت (٤) رِزْمَة (٥) لى السَاكِنين بَلُود المَالِحْ (٦)

تتحدث الروايات عن ثراء والد الطيب ، كما تتحدث عن محاولاته التى لا تقف عند حد لاثناء الطيب عن هذا السلوك .

١ – الرايقه : من راق بمعنى صفا ويقولون بنت رائقه أى هادئه ورزينة .
٢ – فالح : الناجح الذكى .
٣ – مجالح : معاكس .
٤ – ودى الشىء : ذهب به
٥ – رزمه : من رزم الشىء : جمعه وشده .
٦ – بلود المالح : بلود : جمع بلد . والمالح البحر الأحمر يسمونه بحر المالح لملوحة مياهه .

تقول أحدى الروايـات :–
« وأبوهُو ثرى ، يملك من ألْبِل خَمْسِين ناقة بِتكَيِد ، وْ يمكن أبُوهُو يملك سُخْبِة (١) ضَان بِتكَيِد ، كيرة يَعْنى ، وْ يمكِن أبوهو يملِك من الخيَل عَشَرة جيدَاكْمر من إنْتَابَة لا ضَكَرَ ، دا عالِم الله ما فيهو اتْنَين تَلَاتَة ، وْعنْدُو مَسَن الرَّقيق ثمانْية تِسْعَة » (٢) وكان والده بالإضافة إلى ذلك لا يلخر وسعاً فى محاولاته حملة على مراجعة موقفه وترك ما هو فيه . ولم تكن . محاولات والده فى هذا الشأن تقف عند حد . بل أنه كان يلاحقه أينما ذهب ويعيده إلى الديار . تقول أحدى الروايات عن ذلك : « ويحل ما يسافر معاهم (يعنى الهمباته) أبوهو حسب ما عنلو هو فريد يَلْحَقُو يجيبُو مِنهُم صادْ ولا غاية ما قالْ لو الرِزِق القِدَّامى دا إنْتَ شَرِيك فيهُو النُص بعديَن الطيب لا زال طَرِيقتُو الْ ما سِكَهَا ما شْ فيها ما خلَاّها » (٣) . رغم الإلحاح من والده ورغم صنوف الاغراء ، كان الطيب يفضل ذلك النوع من الحياة القائم على المغامرة والنهب والسلب الذى يعقبه اللهو فى مجالس الخمر مع الإماء أو « ستات المجالس كما يسموهن ، فى بيوتهن التى أعدتها خصوصاً لاستقبال هواة الخمر والجنس .

حب المغامـرة :–

إذا كانت الهمبته فى جانب المتعة الشخصية وسيلة لأشباع هواية ، فانها فى هـذه الحالة هواية فى حد ذاتها يعمل الفرد لاشباعها – وقد تمكن حب المغامرة هذا فـى نفوس الكثيرين وكان إشتغالهم بالهمبتة من أجل ذلك . ولعلنا نجد لذلك تفسيراً عاماً ، فى حياة البلوى نفسه ، وحياة القبائل الرعوية السودانية . فالبدوى كان بطبعه ميالا إلى أعمال الفروسية والغزو . وقد ذكرنا آنفاً أننا نرى أن الهمبته كانت بصورة ما بديلا لما كان يحدث بين القبائل من غزو بغرض النهب والسلب . ففى البادية لاحظنا وجود ظاهـرة الغزو بين القبائل بغرض تحقيق كسب اقتصادى – وتمثلت هذه الظاهرة فى « القيمـان » و « النهيض » . فقد كان أفراد القبيلة يشتركون فى هذا الغـزو بصورة منظمـة . ولما انقرض هذا ، كان لابد للعربى الذى يتمتع بالفروسية ويقلسها أن يجد لنفسه منفـذاً

١ – سخبه : متماثة .
٢ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٧
٣ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٧

جديداً . وذلك لأن الطاقة التى كانت تستهلك فى تلك الغارات ما زالت موجودة ولابد لها من وسيلة تفريغ ، فكانت الهمبته مجالا طيباً لاستهلاك هذه الطاقة وتفريغها . ولكن الهمبته أخذت صورة الفردية بينما كان النشاط القديم يأخذ صورة الجماعية .

تعويض المـال المنهـوب :–

هذا من الأسباب الخاصة . إذ أن الفرد هنا لا يمتهن الهمبتة إلا بعد أن يكون قـد ضرب فى ماله مرات ومرات . فمن الناس من كان يملك أعداداً كبيرة من الماشيـة . ولكنها تعرضت لعمليات نهب وسلب متكررة ومتالية . وتحت الضغط النفسى من جراء فقدان هذه الثروة ، يلجأ الشخص إلى نفس الأسلوب إنتقاماً وتعويضاً . يقول راو من قبيلة حمر : « وْ فِى بَعَض ناس يَعَنى الْواحِد يِكُون عِنْدُو بهَايِم وْ بهايِمُو دى بِقُوموا بِسْرِقُوهِن مِنو الحرامِيَة ما يجِنْ . وْ تَانِى يسُوقُوا مِنو بهايِم ما يجن وْ تانى يسُوقُوا مِنو بهايِم . يزهَج على كَدَا يِقُول أنِى ذَاتِى أسْرِق إلاّ كَافِى بهايِمى ديَل » . ويقول فى موضع آخر :– فى ناس واحْدِين يَعَنى قِصتُهُم محرقُهُم مال سَرقُوهوا منهم كَتير جِداً جداً » (١) . لاشك أن الدافع هنا واضح . فهذا النوع من الناس دفعته ظروف نهب ما كان عنده من الإبل إلى الإشتغال بالهمبته انتقامـاً وتعويضـاً .

الخلاصـــة :–

نخلص من كل هذا الى أن للهمبتة دوافع عديدة وأسباب مختلفة . وهذه الدوافع والأسباب اما أن تكون اقتصادية او اجتماعية واما دوافع خاصة . فالدوافع الأقتصادية ترجع الى عدم التوازن فى توزيع الثروة فى المجتمع البلوى ، الأمر الذى أدى الى بروز طبقتين اقتصاديتين على طرفى نقيض . طبقة اصحاب الابل ، وطبقة المعدومين الذين كان بعض الهمباتة منهم . وفى الجانب الاجتماعى كانت القبيلة بقيمها وتقاليدها وعاداتها أحد العوامل التى عملت على نشأة مثل هذه الظاهرة واستمرارها ثم أن طبيعة المجتمع البدوى نفسه تتدس أعمال الفروسية ، وتشجع النهب والسلب . ولذلك لم يكن من الغريب أن تنشأ فى مجتمع هذه طبيعته مثل هذه الظاهرة التى تعتبر صورة من صور

١ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٨٩٧ .

من أجل النهب والسلب. ومن الناحية الفروسية وتقوم فى جوهرها على الغزو والاغارة الأخرى كانت المرأة فى المجتمـــع البدوى تتمتع بوظيفة اجتماعية وبحكـم هذه الوظيفة كان لها أثرها العظيم فى توجيه سلوك الرجال واملاء المواقف عليهم تبعا لرد الفعل الذى يصدر منها تجاه كل فعـل يقومون بـه أو قرار يتخذونه. أما الأسباب الخاصة فهى تتمثل فى ميل البعض وهوايتهم لحياة اللهو والمجون التى يوفرها لهم مثل هذا العمل. ثم أنها تتمثل فى ميل الفرد الشخصى الى المغامرة وأعمال الفروسية. وهذا يتوفر عن طريق النهب والسلب هذه. ولهذا كانت الهمبتة بالنسبة لبعضهم بمثابة هواية فى حد ذاتها. واخيرا فان هناك من مارس هذا النوع من النشاط انتقاما وتعويضا لثروة ضاعت. وتكاتفت كل هذه العوامل والدافع لتعطينا هذه الطريقة فى الحياة التى تقوم على نهب وسلب الابل. والتى عرفت بالهمبته.

نظم الهمبتة وقواعدها قيمها

(١) النظـــام :-

تقوم الهمبتة على نظم معينة تشمل كيفية الدخول فى مجتمعها والصورة التى يتكون بها هذا المجتمع ، ثم اسس التعاون وصوره فى هذا المجتمع.

أ - مجتمع الهمبتة :-

ان مجتمع الهمبتة بسيط فى تكوينه الاجتماعى حيث أنه يتكون من فئتين أساسيتين الفئة الاولى هى فئة الهمباتة الذين يقومون بعملية النهب والسلب. أما الفئة الثانية فهـى فئة « العملا » . ويتلخص عمل الفئة الثانية ومهمتها فى القيام ببيع الابل المنهوبة ومساعدة المحتاجين من الهمباتة لمواصلة سفرهم ، وذلك عن طريق تقديم القروض لهم بنيــة استزدادها منهم بعد عودتهم من رحلة النهب.

كيفية الدخول فى مجتمع الهمبتة :-

ليست هناك شروط موضوعة تنظم الدخول الى عالم الهمبته ، بل ان كل مـن توفرت لديه الرغبة وتجمعت لديه الأسباب وتوفر لديه الاستعداد النفسى والجسمانـى يمكنه أن يلج الى مجتمع الهمبته . ولكن بعد الدخول فان لهذا المجتمع ضوابط تنظـم العلاقة بين افراده وقواعد تحكم العمل نفسه وتعرفه . وقد رأينا فى حديثنا عن دوافع الهمبتة . أن هناك بعض القبائل التى لاتعترف للفرد منها ببلـوغ قدر الرجـال الا اذا أقدم على نهب الابل . ومن هنا . ومن واقع ما رواه بعض الهمباته يمكن القول أن السن التى يدخل فيها الانسان هذا المجتمع لاتسبق سن البلوغ . فقد ذكر طه الضرير أنه بدأ ممارسة الهمبتة منذ أن بلغ السابعة عشر من عمره . يقول: « واللهِ مِنْ كُوْنْ عُشْـرِى سَبْعْطَاشَرْ طَمَنْطَاشَرْ(١) مِنْ بُلُوغى دَخَلْتَ فِيهَا » (٢) . وهذا لا يعنى أن من لم يبدأ ممارسة الهمبته منذ بلـوغ سن الرشد . يكون قد فاتـه قطارها . فهناك من بدأها وعمره قد جاوز الثلاثين . يقول أحد الهمباته من منطقة الكواهلة . عن عمره حين بدأ

١ - سبعطاشر طمنطاشر : يعنى سبعة عشر وثمانية عشر.
٢ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥٠

بعمل فى الهمبته : « عُمْرِى خَمْسَة وتَلاثِين سَنَه » (١) . ولكنانستطيع أن نقول عموما أن سن الدخول الى عالم الهمبته هى سن البلـوغ وما بعدها . أما سن التقاعد عن هذا العمل فهى ليست محددة بأى صورة من الصور – لأن هناك ظروف المرض والعجز وتقدم العمر . ولكنا نقول بأن متوسط العمل فى الهمبته يصل الى الثلاثين عاما .

يقول طه الضرير ان الشخص بعد أن يعزم أن يحذو حذو أبيه أو جده ، فانه يتبع ذلك بالتدريب على استعمال السلاح « يِقُوم يِدَرِّب نَفْسُو سيَف وُدَرَقَه وُكَانْ سُلاحْ كانْ مَمْنُوعْ »(٢) . وسلاحهم يتكون من السيف والدرقة وبعض الأسلحة النارية . وقد تحدث الهمباته فى شعرهم عن نوع السلاح الذى يتزودون به فى مغامراتهم:

بَعَد أبْ جِقرَه (٣) والهارِى (٤) الْ بِيَاكُل الْصَايْمَهْ (٥)
حَقَقْنَاها يا أخُوىْ الْعَبَوس (٦) مِى (٧) دَايْمة
حَكُومَةْ الْسُواد مَنَعَتْ علينا السَايْمَـــةْ (٨)
كـم لله هاجمـين والخـلايق (٩) نايمـــة

فهو يذكر من تلك الأسلحة « أب جقرة » وهو ضرب من السلاح النارى القديم . ويذكر « الهارى » وهو كناية عن السيف ، و « الصايمة » وهى الدرقة . وهناك صورة أخرى من صور التدريب على العمل . تتمثل هذه الصورة فى خروج الواحد منهم مع شخص متمرس فى هذا العمل ليكتسب منه الخبرة وأساليب السلب والنهب ، وكيفية التصرف ازاء كل احتمالات الموقف . وبعد أن يتعلم أصول العمل وطرقه ، يمكنه أن يستمر مع الشخص الذى تدرب معه أو الانصراف إلى مجموعة أخرى ، أى أنه ليس

١ – الأرشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠١
٢ – ،، ،، ،، م/د/أ/أ/٣٥٠
٣ – اب جقره : ضرب من السلاح النارى قديم .
٤ – الهارى : كناية عن السيف .
٥ – الصايمه : كناية عن الدرقة .
٦ – العبوس : الدنيا
٧ – مـى : ليت
٨ – السايمه : كل ما يسام من حيوان . وسام الشىء : عرضه للبيع .
٩ – الخلايق : ويقولون الخلق : الناس .

ملزماً بالاستمرار مع من قام بتدريبه وتأهيله لهذا الضرب من العمل . يقول أحد الهمباته من منطقة الكواهلة عن أول عهده بالهمبته : « أول بِرِيجيَةْ مَعَاىْ محمُود ود آدم علَمْنِى – هُو بَسُوق مَعَاهُو و يختر » . والخروج مع شخص متمرس ، ليست ، فى الواقع ، قاعدة يتبعها كل من أراد العمل فى هذا المجال . فبعضهم كان يخرج دون الحاجة إلى شخص عارف ، زاده فى ذلك ما سمعه من الذين سبقوه فى هذا المجال من حيه . يقول طه الضرير : « أول قُومَة كان مَعَاىْ ولد بِقُولُوا لُو رحمة الله ود على ود جرِير . والاتْنَين ماكُنّا بِنعَرِف شىء إلاّ أنا بَدّعِى مِلاَهُو » (٢) .

كيـف يسـيرون ؟ :–

ان رحلة الهمباتى المحفوفة بالمخاطر . تحتاج إلى رفيق . يخفف وحشة الطريـق ويقاسم الصعوبات وقسوة الظروف أحياناً . ويعاون فى تخليص الابل المنهوبة عندمـا يحتاج الموقف إلى الصدام مع أصحابها . ولكن مع ذلك فقد يسير الشخص الهمباتـى ويسلك طريقاً منفرداً. يقول أحدهم : « والله بِمشُوا اتْنَين و تَلاتَةْ جَميع و فـى واحد دا بمشِى ، ناس ألْواحِد بِسَافِر بَراهُو (٣) . و عِنْدنَا واحْدِين يِسُوقُوا اتْنين ، واحْدِين تَلاتَة واحدِين أربَعَة » (٤) . ويقول راو آخر :– « والله تَلاتَة بمشُوا وأربَعة بمشُوا و خَمَسْة بمشوا و ستّة بمشوا و سَبْعَة بمشوا . زَىْ (٥) ما يتّفق ثمانيَة بمشوا » (٦) . اذن فقد كان الهمباته يسيرون فى جماعات . وأحياناً يسيرون فرادى . وقد ذكر طه الضرير أنه لما قابل الطيب ود ضحوية أول مرة كان الأخير يسير منفرداً فانضم إلى مجموعته (٧) . ولكن رغم هذا فقد كانت صورة السير فى جماعة هى الغالبة . وهى – فى نظرنا – الصورة المناسبة مع الأسلوب الذى تم به عملية النهب ويستشف من شعر الطيب ود ضحوية أنهم كانوا يكونون مجموعة تضم إلى جانبه ، طه

١ – ملاهو : اكثر منه .
٢ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥٠
٣ – براهـو : لوحده
٤ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٨٩٤ .
٥ – زى : مثـل
٦ – الارشيف شريط رقم.م/د/أ/أ/١٨٩٦
٧ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥١.

الضرير ، الصديق ود الركاوى ، كيقة ود عمران ، وآخر يدعى عباس . وهذا الأخير يتكرر إسمه كثيراً فى شعر الطيب ويأتى الحديث عنه فى صورة تهكم وسخرية . ومن شعر الطيب فى ذلك :ـ

عبّاس ألتّنهىَ (١) جادْع ألحمِل (٢) فُوَق غـبرك
نعَمـنكْ (٣) قليل حيلةَ وْ ضعيف سِـــيرك
أمنْ ترْضى بى العايْدة (٤) وْ تصِد لى دْميرك (٥)
أمنْ فُـوق دَرِب طه بيحلـق طِـيرك (٦)

أما اختيار الرفيق فانه لا يخضع لمقاييس محددة. فقد يجمعهم الطريــق . وقد يرافق الواحد منهم أحد الهمباته من قبيلته . وليس من الضرورة أن يكون الرفيق من نفس القبيلة أو المنطقة . فالهمباتى من الشرق من منطقة البطانة مثلا ، قد يرافق آخر من الغرب من منطقة كردفان . والهمباتى من قبيلة الجعلين قد يرافق آخر من قبيلة حمر أو دار حامد أو البطاحين أو الكواهلة وهكذا . ومما يروى فى هذا عن الطيب ود ضحوية قول الراوى : « أولا ألطيب دا جرّب ألبطاحين رابَعهُم (٧)، ألشكرّية رابَعهُم، أيها ناس ، ألكمالاب رابَعهُم ، نـاس ألبُشارِين رابَعهُم ، أى محل فيهُو ناس نُدّر (٨) فِيهو ناس مخترهُم سمِح وْوجيه كُلُهم بختر معَاهُم » (٩) .

وقد روى عن الطيب ود ضحوية (كما سيتضح ذلك من سيرته) أنه فى بداية عهده بالهمبته رافق بعضاً من القريات والهواوير من قبائل غرب السودان ، وأنه أخيراً لجأ إلى البطاحين ورافق مجموعة منهم .

---

١ – التهى : غير أصيل
٢ – جدع فيه الحمل : تخل له عنه ضعفا .
٣ – نعمن : من أجل . لأن . لأجل.
٤ – العايده : ما حصل عليه.. أى العائد
٥ – دمير : تصغير دمر ، وهو مكان الإقامة فى شهر الصيف .
٦ – حلق طيره : كناية عن أنه مات .
٧ – رابع :.رافق والرباع : الرفاق
٨ – ندر : جمع نادر .
٩ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٩ .

مراحل الهمبتــة :ـ

تتم عملية الهمبته عبر مراحل متعددة ، تبدأ بتجمع الأسباب والدوافع ، وتنتهى بانفاق المال المنهوب لتبدأ من جديد . فالمرحلة الأولى هى ما تحدثنا عنه من تجمع الأسباب والدوافع والتدريب على أنواع الأسلحة واختيار الرفيق . وتلى هذه المرحلة مرحلة مرحلة الطريق إلى الهدف ، وهى عبارة عن المسافة التى يقطعها الهمباتى من نقطة إنطلاقه حتى بلوغ المكان المعين للنهب . وهنا يكون الطريق وعراً ومحفوفاً بالمخاطر وضروب المعاناة . فهم يسلكون طريقهم عبر مسافات يهدهم فيها الجوع والظمأ ، ويتعرضون خلالها لهجير الصيف ولهيب شمسه المحرق :ـ

يومـاً فى بسـط (١) عند المقسـم نومنـــا
ويوم نضـارى (٢) من لفح السموم (٣) بى هدومنا (٤)
يوم بنوجـب (٥) العملـه (٦) ونجيبه لزومنــا (٧)
نحن ان عبنـا يا كيقة (٨) أم خـدود بتلومنـــا

كل هذا والطريق محفوف بالمخاطر ، رغم الزاد الذى يتزودون به ورغم أنهم يحتاطون لكل الاحتمالات والتوقعات :ـ

يُوماً كَرْبتيت (٩) وْ يوماً عَشـانا رَبِيـــت (١٠)
وْ يُومـاً نَسـف (١١) التّابَة (١٢) و عليها نَبِيـتْ
أمَن جيْـتَ مالاً فَرَح أم سُومَـــيتْ (١٣)
وأمَن فُوَق جُبال سَقَدِى (١٤) انجدعَ ما جِيـتْ

---

١ – بسط : فرح وطرب (٢) تضارى : استتر .
٣ – السموم : الريح الحاره (٤) الهدوم : الملابس والثياب .
٥ – وجب الشىء قام بالواجب نحوه .
٦ – العمله : الابل المنهوبه (٧) لزوم : ملازمة .
٨ – كيقه : هو على أحمد على ود عمران من البطاحين .
٩ – كربتيت : جرى الابل .
١٠ – ربيت : ضرب من اللحم المخلوط يؤكل .
١١ – سف الشىء أخذه غير ملتوت (١٢) التابه : التبغ
١٣ – سوميت : خــرز
١٤ – جبال سقدى : جبال غرب سنار.. بين سنار وكوستى .

ورغم هذه المعاناة : فالدافع عند الهمباتى أقوى مما يعانيه ، ولذلك فانه لا يرضى بغير الموت بديلا لا رضاء المحبوبة « أم سوميت » .

تأتى بعد ذلك مرحلة بلوغ الهدف وهى أخطر المراحل جميعا . ففى هذه المرحلة يكون الهمباتى قد وصل الى مكان الابل التى يريد نهبها . والهمباته لا ينهبون الا الابل التى يشيمون فيها دلائل المقدرة على السير لمسافات طويلة ليضمنوا عدم تمكن اصحابها من اللحاق بهم . وتتم عملية انتقاء المجموعة من الابل فى يقظة وحذر وتحفز للخطر خشية هجوم مباغت من أصحابها . وفى كثير من الاحيان يشعر أصحاب الابل بفقدها فى حينها فيعتلون ظهور جمالهم للتو والحين وتتم عملية المطاردة . وحين يبدو ألا مفر من المواجهه . يبدأ الهمباته فى تطبيق « تكتيكهم » الموضوع لمثل هذه المواقف . ويتلخص هذا « التاكتيك » فى الآتى : تنقسم المجموعة الى قسمين : قسم يسير مع الابل ويبتعد بها . أما القسم الثانى فهو يبقى ليشكل حاجزا بين الابل وأصحابها . وتعمل هـــذه المجموعة كل ما يمكن عمله لاعاقة الطوق المطارد عن التقدم . وتتم عملية التعطيل عن طريق التخويف والتحذير . فاذا تمادى المطاردون يصيب الهمباته أحد الجمال لادخال الرعب بين أفراد المجموعة المطاردة من أصحاب الابل . فاذا لم يثنهم ذلك فقد يصـــل الأمر الى قتل بعض الاشخاص . وفى ذلك يقول أحد الهمباته : « بِنْوَرْعُهُمْ (١) يازوَل ارجع يازوَل أرجع . إنْ بِقَى ما رجع بِنْضرُب أ لجمَل كَفْ (٢) بِنَرْمِى ، إنْ إتْختَرُوا (٣) عليك ما بِتَرْفعهم » . ويمضى فيقول : « نِحنَ زوَل ما بِنكْتُلُوا . نِحنَ دايْرين رِزِق بَسْ » (٤) . فهم لا يقدمون على القتل الا اذا لم تجد الوسائل الأخرى فى ارجاع الجماعة المطاردة « الفزع » والا اذا عدمـــو كل حيلة لتخليص الابل من أصحابها ، فليس امامهم الا أن يقتلوا وهم مرغمين ، لأنه ليس من عادتهم الفرار وتسليم الابل لأصحابها بعد نهبها .

أما المرحلة الاخيرة من مراحل الهمبته فهى بيع الابل والتمتع بالعائد منها . ففى هذه المرحلة يتم بيع الابل بواسطة « العملا » . وبعد بيع الابل ينصرف الهمباتة الى

١ – ورعه عن الشىء: دعاه الى تجنبه والابتعاد عنه .
٢ – كـف : حركة صوتية (٣) اتختروا : تقدموا .
٤ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٥ .

ظلهم « الوريف » « ستات المجالس » حيث يستقر بهم الأمر عندهن . وهناك يحتسون الخمر ويجالسون النساء ويمرحون ويطربون . وحينما ينفد المال الذى فى أيديهم ، يعتلون ظهور جمالهم مرة أخرى ليبدأوا نفس المراحل من جديد .

كيفية التصرف فى المال :–

تحدثنا الروايات عن كيف يتصرف الهمباته فى الأموال التى يحصلون عنيها بعد بيع ما يغنمونه من ابل ، فتقول أحدى الروايات : « . . . . . إنْ بِقِيت لِقيت زوُل مِسكِين ساكت بِتَكنِسيهُو ، وُ بتِنعلتُو . ألبِنلَقى مِنقَطِع بِنَدِّى . بَس بنبارى لِى العِريَان كُلُو بِنكَسِى » . ويقول نفس الراوى فى موضع آخر عن كيفية التصرف فى هذه الأموال : « بِنَسكَر بها ساكِت سَكَراً مالى حَدْ . نِتونَس مع البَنات ، ألفَرخَة ألسَمحَة كُلَّها راقدِين مَعَاها » (١) . ويذكر راو آخر أن بعض الهمباته يصرفون هذه الأموال على توفير الطعام لأولادهم ويعطون منها المساكين والمحتاجين من النساء والرجال . ثم أنهم إذا وجدوا أحد زملائهم من الهمباته وهو معدم فانهم يعطونه مما معهم من هذه الأموال . ويقول راو آخر أن أول أوجه الصرف لدى الهمباتى هـــى أن يشترى لنفسه بعيراً أصيلا وسيفاً بتاراً ودرقة من الجلد الأصيل . وما تبقى بعد ذلك يذهب للاماء (٢) . ويقول أحد الهمباته من قبيلة الكواهلة عن أوجه صرفهم : « مجالِس وُ يِشرَبوُهن خَمرَة ، وُ يِشرَبُوهِن سِيجَايِر ، وُ يدوهِن لى الفَرخَات وُ هَدى كِدا » (٣) . ويقول راو من قبيلة الجعليين : « بِمتَعُوا نَفِسهُم فيهِن عَقَابهُم ولاَ هُوَ محتَاج ليهُن . بجلسُوا مع الأصحاب أكان يجولُهم فى أنادِى أكان يجولُهم فى أى شِى . عِندَهُم ألقَروش مُش حَاجَة هِمّة » . وقد ذكر طه الضرير أنهم كانوا يحلون بها المشاكل التى تحدث بسبب النقود .

نخلص من كل ذلك إلى أن أوجه الصرف فى مجتمع الهمبته تتلخص فى الآتى :–

(١) الخمر والنســـاء
(٢) المساكين والمحتاجين

١ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٣
٢ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠١
٣ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٩

(٣) مساعدة بعضهم البعض فى حالات الحاجة .

(٤) نصيب « العملاء » منها .

(٥) حل الشاكل التى تحدث بسبب « القروش » .

(٦) بعضهم كان يصرف منها على أهل بيته .

ب ـ التعاون فى مجتمع الهمبتة :ـ

تسود مجتمع الهمبته روح من التعاون والتكاتف والتعاضد تحتمها طبيعة الحياة التى يعيشونها والتى تجعل الفرد منهم فى أمس الحاجة إلى الآخر . وللتعاون فى مجتمع الهمبتة صور ثلاث نلخصها فيما يأتى :ـ

(١) قوانين المرافقة أو « الرفقة » :ـ

لعلنا نلاحظ فى الطريقة التى يتم بها تخليص الابل المنهوبة ، أن هناك مجالا لحدوث خيانة إذا لم يكن هناك ما ينظم هذه المرافقة . والواقع أن مجتمع الهمبته له قوانين تحكمه وقواعد تنظمه ، وللمرافقة بوجه خاص ، قوانين تحكمها وقيم تستند اليها ومعتقدات تساعد فى الالتزام بتلك القوانين وتضمن استمرار التعاون والتعاضد والتكاتف بصورة قوية وفعالة .

ولكى يدرأ الهمباته أى احتمال للخيانة ، فأنهم قبل أن يبدأوا رحلة النهب هذه يؤدون قسماً معيناً . يقول أحدهم : واجب الْواحِد لى الرّفيق ، عِنْدهُم فاتحةً يِشِيلوها أَلحاين الله يخونُو وِ يقُومُوا بِروحُوا يِكوسُوا مالْ النّاس . » (١) . وعموماً فان مجتمع الهمبته يتمتع بصورة فريدة من الوفاء . ولدى جماعة الهمباته اعتقاد جازم بأن من يخون رفيقه سوف يلحقه الضرر . سواء أكان فى ماله أو فى نفسه أو فى ذريته . وهذا الاعتقاد ساعد كثيراً فى أن تتمكن هذه الخاصية فى نفوس أعضاء هذا المجتمع . ومن ذلك ما قاله أحد هؤلاء الهمباته من أن : « أَلبِخُون دا عِنْدَنا مات حِفْيان و عِريان » . ويقول أحد الرواة : (٢) « . . . . . . ويقولوا لِيَك تخون كُلْ شِى إلاّ

١ ـ الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٨٩٩
٢ ـ الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٢

مَتَعْنَاهَا أَلمَرْبُوط بيهَا أَلجّمل دِى . ما دامين (٢) هِى عَرْقَانة وْ الغُرُدَة (١) مَاشَة مَعَاك ماتخونها . فيقولُوا خُوانة (٣) الغُرُدَة دِى كَعَبَة لِيهم بِنضُرهُم هُم، بِتلاقيهم بِى عَكْس الأيام الله بَراهُو ما يديهم » . فهم إذن يعتقدون أن الخيانة لا تعود على مرتكبيها إلا بالضرر والذى يخون فى مجتمعهم محتقر ذليل . ومن هنا كانوا حريصين الحرص كله على الوفاء للرفيق . وعملوا على اغلاق كل المنافذ التى قد تنفذ منها احتمالات الغدر والخيانة إلى مجتمعهم . يقول أحدهم :ـ

سلمان من خيانة الغردة لا من عاد (٤)

أى أنه عاد خالى الوفاض لأنه إرتكب خيانة ضد رفيقه .

هذا وقد حكى لى بعض الناس من منطقة الجعليين الحكاية التالية (٥) :

قال : كان جماعة من الهمباتة يسيرون باحثين عن مغنم يغنموه . وفى الطريق التقى بهم من هو على شاكلتهم ، وكان يسير وحيداً . فعرضوا عليه الانضمام إلى مجموعتهم فوافق . وسارت المجموعة إلى هدفها وغنمت وعادت . وحين جاؤا إلى تقسيم المغنم . قال رئيس الجماعة للهمباتى الغريب على المجموعة . أن العادة جرت أن نقسم ما نحصل عليه من الابل نصفين : نصف لرئيس المجموعة ، والنصف الآخر لبقية أفراد المجموعة . ولكن هذا الإستئثار من جانب رئيس الجماعة لم يعجب ذلك الهمباتى فرفض هذا التقسيم . وهنا دعاه رئيس المجموعة للمبارزة فان غلب كانت الابل كلها من نصيبه وإن هزم تنازل من نصيبه منها . فوافق الرجل على الاقتراح . ولم يبارزهم بالسيف كما توقعوا . بل أنه عمد إلى أحدى الأشجار وقطع منها عدداً من العصى على عدد الجماعة ونازلهم واحداً تلو الآخر فغلبهم جميعاً وكان كلما أصاب واحداً منهم حمله إلى ظل شجرة . ثم إنصرف إلى الإبل المنهوبة . وكان يضرب البعير أو الناقة على شقه (أو شقها) الأيمن فيجرى فى اتجاه غير ذلك الاتجاه الذى ضربت فيه . وهكذا وهكذا أتم تقسيم الابل إلى مجموعتين ساق نصفها وترك الباقى لهم .

١ ـ غرده : غرضه وهى للرحل كالحزام للسرج .
٢ ـ ما دامين : ما دام (٣) خوانه : خيانة
٤ ـ روى هذا الشعر هكذا دون زيادة .
٥ ـ حكى لى هذه الحكاية الوالد الفاضل المنتصر مساعد الزبير من قرية الحرازة غرب مدينة العالياب فى شهر نوفمبر ١٩٧٥م بمنزله والصياغة التى ترد بها هنا من عندى .

هذه القصة رغم ما يبدو فيها من المبالغة ، الا أنها تقف دليلا على اعتقاد هؤلاء الناس فى أن من يسلك مسلك الخيانة لابد خاسر . وأن الطمع على الرفيق لايعود الا بالضعف والهوان . فهذه المجموعة أرادت الغدر بهذا الشخص لأنه كان وحيداً و كانوا هم عصابة ولكنه أنتصر عليهم بأضعف أنواع السلاح . ومثل هذه القصص هى فى الواقع أنما تساق لترسيخ مفهوم الوفاء للرفيق فى هذا فى هذا المجتمع ، فهى بمثابة العبرة والعظة لمنع حدوث خيانات بين أفراد ذلك المجتمع . وهذا يؤكد أن لهذه المجموعة كل ما يميز الجماعة من التراث الذى يتناقله أفرادها – على نحو ما رأينا – والذى يوظفونه فى تثبيت قيم مجموعتهم . يضاف الى ذلك أنه لهم ما يشبه القاموس الخاص فى الكلمات التى يستعملونها ولها دلالات خاصة فى مجتمعهم كما سنرى حين نتحدث عن ظواهر شعرهم الفنية .

أن الوفاء للرفيق وتقديس المرافقة من أميز صفات مجتمع الهمباته . وهذا الوفاء يأخذ عدة صور فى مجتمعهم . ومن هذه الصور ما يقف عند حد المشاركة الوجدانية ، ومنها ما يتصف بالايجابية ويصل إلى حد الذود عنه بالروح وبالمال وفدائه بالنفس فى أحلك الظروف . يقول أحد الرواة من منطقة الجعليين : « إذا كان ألْواحد جابهن (يعنى الإبل) يوقِّفهن فى السُّوق ، ينصَدْفُن فى الخلاء ، كان مَعَاهُو رفيق ما بنضم بُو يقُول مَعَايْ فلان . الله أن سلّمُو لا سليم وأخذ شُكُرتُو ، وإذا كان إنْصَدَف بيتْكمَّل بها براهُو ، بقُول الحاجة دى أنا سَوَيتَها ما بقُول معاى فلان (١) ويقول احد الهمباته من الكواهله عن الرفيق : « إنْ بقَى نايم فى بيتُو ، وْرفيقَك حَقيقِيه ، تَقْسِم لُو عودو فى بيتُو (٢) . تلك صور من صور الوفاء للرفيق وهناك المزيد من هذه الصور . يقول احد الهمباته من الكواهله أيضا : « . . . ألزَوَل مِمّا بِقَى مَعَاك ، تانى ألزَول ألْ فيهو فايْدَه كان جَات الحَارَه بِسوّى فى ضهَرو ما بِدّى ، وما بِطْمَع علىّ » (٣) . ويتحدث راو آخر فى موضع آخر عن نفس الموضوع ولكن بتوسع اكبر حيث يعدد واجبات الرفيق نحو رفيقه فيقول :

١ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٩
٢ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٣
٣ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠١

رَفيقى بعدين إنْ بقَى رَجَع من الطَّريق ، من ألْ عندنا داك بَدِّيهو ، ما بهُمّ بيهو ألزّول ألْ بجيبو اكُلُو بَدّى . أقول يا زَول قيّم بيهو أولادك . أنا بشيل حَق مَصروفاتى وأىْ طَريقَة بعَدين إنْ بِقَى هو مُسافر وْ جيت لى أولادو ، بقسّمهم تكَثْرى المرة ، وتكتَسى الوليْدات ، عندَهُم حاجة كِدا بدّيهم مَصْروفات جداً . بعدين إنْ إتمَسك فى السَجن ، بجى إنْ فى غَرامة بَدْفعَها ليهُو ، وإنْ العربى (يعنى صاحب الابل) أتَاصَل بى العربى يكَفّى . بعدين إن جيْت رزق هو قاعد مُو مَسْجُون وْ مُو مُسافر تَقسمُو لىَ » (١) .

هذه النصوص تعطينا أشكالا متعددة لصورة الوفاء للرفيق فى مجتمع الهمبتة . وهى توضح أن مجتمع الهمبته مجتمع متماسك الى درجة كبيرة ، يوفر للفرد فيه ضمانات كبيرة ويحميه من التعرض لأنواع الهوان ان وقع فريسة للمرض أو العجز ، أو اذا زج به فى غياهب السجن . ومن خلال هذه النصوص ، ومن خلال شعر الهمباته أنفسهم ، يمكننا أن نستخلص الأشكال الآتية من صور الوفاء للرفيق :–

١ – التعاطف الشعورى :–

يعبر شعرهم كثيرا عن شعور التضامن وعمق الاحساس بالفاجعة حين يقع أحدهم فى يد القانون ويزج به فى السجن ومن ذلك قول الطيب ود ضحوية :–

ألليلَة النّفس أمْسَت حزينَة وْعامْدَة (٢)
وْ ما بتسلى بى بُرقُع (٣) حَميدة وحامدَة (٤)
فارقْنَا الرّباعة (٥) أبان (٦) قُلوباً جامْدَة (٧)
ناس طه اللّحوْ (٨) ضوْ القَبيلة الهامْدَة (٩)

١ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٨٩٤.
٢ – عامده : من عمد : اشتد حزنه.
٣ – برقع : غطاء للوجه معروف
٤ – حميده وحامده : نساء من الزبيدية
٥ – رباعه : الزملاء والأصدقاء (٦) أبان : أصحاب .
٧ – جامد : قوى
٨ – اللحو والأحو : من الحوه وهى سواد الى الخضرة أو حمره الى السواد.
٩ – الهامد : الساكن – وهمدت النار : ذهبت حرارتها.

وقد يأخذ هذا التضامن شكل الإصرار على مؤازرته والوقوف إلى جانبه والعمل على تخليصه ثم مدحه :—

ألخبر ألبجي الصديق مقفل جـــــــوة
حالف ما يقيف دونو أن بقيت فى هوة (١)
عند طرش (٢) ألدرق ما بتنسى شرط الحوة
كباس (٣) لى الدهم (٤) عند أل بقول يا مروة (٥)

(٢) ومن ذلك أن الواحد منهم يكون أميناً على سر رفيقه . فاذا ما بدر منه ما يعيب أو ظهرت منه سوءة . كان الآخر كتوماً لها . حريصاً على أن تبقى حبيسة نفسه لا يبوح بها لأحد مهما كانت الظروف . ومن ذلك قول الحضر ود فكاك :—

ناس قدر الله (٦) قاعدين فى البيوت ما بختروا (٧)
ؤ من كبيها (٨) وكشف حال (٩) الحريم ما بفتروا (١٠)
أخير (١١) أختر براى (١٢) أسد الرضيمة (١٣) أنتروا (١٤)
صاحبى أن زل (١٥) ما بفشاهو (١٦) عيبو بستروا (١٧)

(٣) ومنها أن أحدهم إذا أصابه عجز أقعده عن العمل ، فان رفيقه يعوده من

---

١ — هوه : الهوة الغامضة من الأرض . الحفرة.
٢ — طرش : ضـرب (٣) كباس : من كبس : زحم وملأ
٤ — الدهم : جمع دهمه وهى السواد والمكان الموحش (٥) مروه : مـروءة.
٦ — قدر الله : كناية عن الامعة والساقط الهمة .
٧ — ختر : سافر فى طلب الابل عند الهمباته .
٨ — كب : صب . والضمير هنا يرجع للقهوة .
٩ — كشف حاله : فضحه.
١٠ — فتر : تعب
١١ — أخير : أحسن (١٢) براى : لـوحدى
١٣ — الرضيمه : ما تكسر من شوك وأخشاب من الشجر الذى قدم به العهد.
١٤ — نتر : نمره بقـوة .
١٥ — زل : سقط وانزلق .
١٦ — فشى السر : كشفة .
١٧ — ستر : أخفى وغطى .

وقت لآخر ويمد له يد العون ، ويقوم بواجبه كاملا فى اعالته ومن معه من زوجته وأبنائـه .

(٤) ومن ذلك أيضاً أن الواحد منهم إذا قبض بجريمة أبل مسروقة ، وكـان يشاركه فيها رفيق له ، فانه يتحمل ما يترتب على الجريمة من عقاب دون أن يتعرض بذكر لرفيقه من بعيد أو قريب ، رغم أنه فى الحقيقة والواقع شريك فعلى فى الجريمة . أما وقد أدى هذا دوره فى اخفاء اشتراك ذلك فى الجريمة ، فان على الآخر فى مقابل هذا الصنيع أن يقوم بخطوات ايجابية تخفف الحكم على رفيقه أو تدفع الإتهام عنه . ومما يقوم به فى هذا المجال :—

أ — عند نظر القضية يلجأ إلى البحث عن شهود يدفعون عنه الجريمة . ويكون ذلك أحياناً باستئجار عدد من الناس يؤدون القسم ويشهدون على براءته من التهمة الموجهة اليه . وهناك من لا يمانع فى القيام بمثل هذه المهمة .

ب — وإذا ما أخفق فى ذلك وثبتت الجريمة وصدر الحكـم ، فانه يقوم باستئناف الحكم مرات ومرات . ولا يقف سعيه لتخليص رفيقه عند حد .

ج — إذا تضمن الحكم غرامة ، فانه يقوم عنه بدفع مبلغ الغرامة .

د — إذا أخفقت كل محاولاته لتخليصه من عقوبة السجن ، فانه يتكفل باعاشـة أبنائه فترة بقائه فى السـجن .

وهنا تحضرنى رواية رواها لى أحد الهمباته فى سجن النهود تتجسد فيها كـل الحالات السابق ذكرها . ورغم أن الشخص المذكور رفض تسجيلها إلا أنى أوردهـا لقيمتها هنا ، وسأحفظ له حقه فى ذلك بعدم ذكر أسمه (١) .

يقول أنه وأثنان من رفاقه قد قاموا بنهب عدد من الابل وقاموا ببيعها جميعا الا بعيرا واحدا احتفظ به هو . وقبض هذا البعير عنده فاتهم بسرقة بقية الابل . وثبتت الجريمة وصدر ضده حكم قضى بتغريمه خمسمائة وخمسين جنيها والسجن لمدة ثلاث سنوات . وكان التصرف من جانبه انه لم يقل باشتراك احد معه فى هذه الجريمة . فماذا كان موقف الآخرين ؟

---

١ — كان ذلك فى صباح الأحد ١٩٧٦/٢/٢٩ بسجن مدينة النهود .

فى المرحلة الأولى قاما برفع استئناف ضد الحكم . ونتيجة لهذا الاستئناف حكم الغرامة . وفى المرحلة الثانية قاما بدفع مبلغ ثلاثمائة جنيه لأسرته ولم تقف محاولاتهم عند هذا الحد . فقد أخبرنى أن احدهما قد ذهب الى الابيض استئناف جديد فى رئاسة المحافظة . وهو مازال فى انتظار ماتسفر عنه هذه هذه صورة من واقع هذه الجماعة توضح الصورة الحقيقية لتنسيق الأدوار الهمبته ، وتحدد لكل فرد فيه واجبه وفقا لما يقتضيه الموقف ويتطلبه الواقع .

(٢) السـالف :-

يمثل « السالف » شكلا آخرا من أشكال التعاون والتكاتف الذى يسود الهمبته . و « السالف » فى عامية السودان يعنون به كل ماتقدم من مودة و واحسان . واذا كانت قوانين المرافقة تنظم العلاقة بين الهمباته الذين يكونون واحدة ، فان السالف يعنى مايقدمه الهمباتى لزميله دون سابق معرفة شخصية أو بينهما من أى نوع . وقد ذكر طه الضرير ان السالف يتمثل فى واجب الهمباتى زميله حتى ولو لم يكن هناك سابق صلة . فاذا ما وجد الواحد منهم زميل له فى يحتاج فيه الى مد يد العون . فليس أمامه الا ان يفعل ذلك والا أعتبر خارجا على مما يترتب على ذلك عواقب ليست من صالحه فى شىء . ومن تلك العواقب أن يمتنع عن تقديم العون لزميله يكون عرضة لغضب زملائه عليه ، ويمتنعون هم عن تقديم أى مساعدة له اذا كان يحتاجها . وهناك الكثير من الحالات التى يحتاج الهمباتى لمساعدة زملائه فى المهنة . ومن ذلك أن يفقد بعيره فى بلد ليست له فيه معرفة . و يخفق فى احدى سفراته ، وما الى ذلك مما هو متوقع من سوء الحال لمن هو فى مثل حالهم .

وتتحدث الروايات عن الحالات التى يكون فيها السالف . ومن ذلك مايعدده طه الضرير منها فى قوله : « . . . . تانى نِقيتُوا مقبوض ممسوك وْحلَّلُو بى مالْ . حتّى انْ شاءَ اللهْ جُمَالْكُم الْ رَاكبِين فُوقِهِنْ انْ ما حَلّيتُوهُوُ مَرَقْتُوا من السّالف . إنْ لقيتوا مِفَلّس عَرْيَان مِنْقَطِع عادم القُوت ألضّروري ، ان ما كَسَيتُوهُو وعَدَّلْتُوْ راسُوْ بى مالْكُم خَلَّيتُوهُوْ شافْ رايُوْ برايُوْ مَرَقْتُواْ من « السّالف» (١) . ومثل هذا النوع من التعاون سمى بالسالف لأن المعروف فيه

١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥٩ .

يكـون متبادلا . فالذى يخلصك من مأزق وقعت فيه ، قد تجـده فى نفس المأزق فى وقت آخر ، فيجبرك المعروف الذى أسداه لك أن ترد له الجميل . وعلى ذلك فان الهمباتى ما أن تمسه الحاجة وهو فى بلد ما ، فانه يتوجه توا الى زميله المتواجد فى نفس المنطقة . فيقوم هذا باكرام وفادته ويزوده بما يحتاجه اذا كان بعيرا أو مالا أو مجرد توجيه لمكان يكون فيه مجالا للنهب . ومن ذلك قول أحد الهمباته : « واذا ما عِنْدو جمْال مِتْوفْرة بِشِد جَمَلْو هُو ذاتُو بِركّبُو هُو حَقيبَة وْيشيل لِيَهُو سرج و يلف بى. يروحُوا يهجمُوا لهمْ مالْ بتاع ناسْ يشيلُوا مِنُّو. أخير آيمرو يتصرّفُوا المال داكْ يبيع مِنُّو جَمَل يركب فيهُو وْ يفُوت ، وْ يقَسِم لى باقِى حقْو بشيلُو وْ يمشى أهلُو » (٢) . ويصل التعاون بين الهمباته إلى درجة أن الواحد منهم إذا وجد أحدهم فى قضية ما فانه لا يبارحه إلا بعد أن يعرف المصير الذى يؤول اليه . يقول أحدهم : «ألمهْجَراوى أنْ بقيتَن لِقَى رفيقُو مِنْقَطِع أقطع الشّك يشْهلُو . أنْ بقيتن زى قَضيَة يقُوم وْ يقَع مَعَاهُو ، ما بقيف ناس بعَرْفُوا الْواجِب خَلاَص » (٣) .

ولابد أننا نلاحظ أن هذا الضرب من السلوك قد أقتضته طبيعة الحياة التى يعيشونها . فهم فى سفرهم المتواصل هذا وفى تغربهم الدائم قد يتعرضون للكثير من مثل هـذه المواقف الحرجة وهم بعيدون عن أهلهم وعشيرتهم . وما دامت تجمعهم وحدة الهـدف فلا غرو إذن إذا لجأوا إلى خلق صور من التعاون تجنبهم قسوة المصير وتخفف عليهم إحتمالات الهلاك والضياع . فهذا السالف يضمن لهم الخروج من المواقف التى يحتاج فيها الفرد إلى عون ومساعدة شخص آخر . مثل هذا العمل يمكن أن يقدمه أى شخص ولكنه فى مجتمع الهمبته يصل إلى درجة الإلزام . لأن الذى يتخاذل عن تقديم العـون بزميله يعتبر فى عرفهم قد أتى بعيب كبير ويصبح محل تندرهم وسخريتهم وتسؤ سمعته داخل مجتمعه فيحذر الجميع عن التعامل معه ويحجمون عن تقديم أى عون له . ويفقـد لذلك فرص التعامل فى كل ما يوجب التعامل بين جماعة الهمباته . وبذلك يكون المجتمع

١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٨٩٤ .
٢ - ،، ،، ،، م/د/أ/أ/١٩٠١

بصورة ما قد وقع عليه عقوبة العزل الاجتماعي ، وهي عقوبة لها نتائج خطيرة على حياة الفرد في مجتمع تحف به المخاطر كمجتمع الهمبته .

(٣) التعامل بين العميل والهمباتـي :ـ

ذكرنا آنفاً أن مجتمع الهمبته يتكون من فئتين أساسيتين هما : فئة الهمباته وفئة « العملا » . والمقصود « بالعملا » أولئك الذين يتوسطون في عملية البيع بين البائع والمشترى ، أي « العملاء » . و « العملا » في مجتمع الهمبته هم رجال في عدة مناطق ينصبون « الحلاوى » ويعدونها لاستقبال جماعات الهمباته ، ويلعبون دورا أساسيا في تسويق الابل المنهوبة . فالهمباتي بعد وصوله الى دار العميل يقوم بتسليمه مجموعة الابل المعروضة للبيع . ويقوم العميل من جانبه بعرضها على تجار الابل أو القصابين ويبيعها لهم بالسعر الذي يكون قد اتفق عليه سلفا مع الهمباتي . وبعد البيع يقوم العميل باستلام « عمولته » وهي عبارة عن مبلغ يكون قد تم الاتفاق عليه . واحيانا يكون هذا المبلغ عطية مزين على حد تعبيرنا العامي . وفي بعض الحالات يرفض العميل قبول أي مبلغ نظير عمله هذا متعللا بأنه انما يخدم أخا له لايريد لعمله هذا مقابل . وتدبير العميل من أولى واجبات الهمباتي لأن ذلك يوفر عليه مشقة العثور على مشتر مضمون . يقول أحد الرواة : « بعدين لابد ولابد من تدبير عميل يستلم منو المال » (١) .

أما فئة « العملا » هذه فانها في العادة تتألف من بعض الذين كانوا يعملون في الهمبته وتركوها لسبب من الاسباب ، وأوضح هذه الأسباب هي العجز والشيخوخة او تقدم العمر . فهذا العمل ، بهذه الصورة ـ أعني عمل العملا ـ امتداد للعمل في الهمبته . وفي بعض الأحيان يقوم الهمباتي نفسه بهذه العملية . مثلا اذا كان احد الهمباته متواجدا في منطقته وجاء بعض الهمباته بمجموعة من الابل فانه يمكن ان يقوم بنفس عمل العميل في تسويقها . ولكن الأصل في المسألة أن يكون هناك عميل معروف يفد اليه الهمباته بغنيمتهم ويقوم هو بواجبه نحو تسويقها . يقول أحد الرواة : « .... يودُهن (يعني الابل) لي زول ، عِنْدَهُم عُمّلا. يَعَنِي مَعَنَاهَا عِنْدَهُم عيُون يِجِيبُوهِن لِيَهُم يِبِيعُوهِن عِنْدَهُم » (٢) .

---

١ ـ الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٢
٢ ـ ،، ،، ،، م/د/أ/أ/١٩٠٥

ان هذا العمل الذي وصفناه من « العملا » ليس هو عملهم الوحيد . فعملهم لا يقتصر على تسويق الابل بل لهم دورا آخر يؤدونه . يقول أحد الهمباته من منطقة الكواهله واصفا هذا الدور : « كان جيت لي النَّهَاجْرَةْ (١) ديَل عُمّلاك ، يكْسِيك وِينَعْلَنَك (٢) وِيدّيك الْجَمل ساكت وِيدّيك الْفرُوش وانْتَ تَمْشِي يَنْهَض تحلّو ، تَجِي تخلسو تَكافِي بِيهَا » . فهذا يوضح أن « العملا » يقومون بجانب عملية البيع ، بتزويد الهمباته بما يحتاجونه كدين يؤدونه بعد عودتهم من رحلة النهب . يقول طه الضرير موضحا الدور الذي يقوم به العميل : « أَلْمَهجاري وَكت يكْبر يِقنْب يخرج . مثلاً جيت أنْتَ جِبْتَ الْبِل ، تَعَال يا ولدى سُوق الْبِل ديَل وَدِّيهن لي فُلان الفلاني قول لِيهُو أَلْبِل ديَل جَابِهِن فلان الفلاني في البلد الفلاني انْتَ مُرْتَاح هِنَا » (٣) .

كانت البادية السودانية تعج بهذا النوع من الناس . وفي كل منطقة وكل قبيلة ، كان هناك عدد من هؤلاء «العملاء» معروفين لدى الهمباته ولا يحتاجون لوصف . وقد جاء ذكر الكثيرين منهم ممن اشتهروا في منتصف هذا القرن ، أثناء الحديث عن الهمبته وسير المشتغلين بها ، بل جاء ذكر بعضهم في أشعار الهمباته أنفسهم . ومن « العمـلاء » المشهورين : إدريس ود علي الضو وعلي جبريل ومحمد هدل في شرق السودان ، وعواد من عرب الزبيدية وهو الذي يقول الطيب فيه :ـ

مقَل (٤) وأنْكلَبَ (٥) راح (٦) يِلْقَم (٧) الْقَـوّادْ
وْ سَاحْراً عادى (٨) مِنْ سِهَم (٩) النُقطَ (١٠) حَوّادْ (١١)

---

١ ـ ذكر المهاجره لأن « العملا » في الأصل كانوا مهاجره .
٢ ـ نعلت من النعال وهو الحذاء .
٣ ـ الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥٣ .
٤ ـ مقل صارت له مقاه وهي كناية عن ضخامة العنق
٥ ـ انكلب صار كالكلب في رق الضمير .
٦ ـ راح : صـار (٧) لقم : هاجم
٨ ـ عـادى قـوى
٩ ـ سهم : جمع سهمه وهي الجهة والمكان .
١٠ ـ النقـط : مراكز البوليس .
١١ ـ حـواد : من حاد عن الشى تجنبه

يا جد القَرَارى (١) ألْ لىَ البَحَر . . . خــــوّادْ (٢)
ما يقسن دروب ناس عايــدة بتْ عواد (٣)

ومن قبيلة الكواهلة بمنطقة نهرى الدندر والرهد كان هناك من « العملاء » ود آدم ومحمد ود آدم وأحمد ود المليح . ومن الجعليين : أحمد ود عوض روشان ، وأحمد عوض الكريم ود ضيعه ، وحاج على ود طه . ومنهم أيضاً من قرية « أبو عريف » جنوب جبل دود . ومن القريات : جِريتَجير . ومن الكبابيش « قنفود » الذى جاء ذكره فى شعر للخضر ود فكاك حيث يقول :—

قيس البايرة وتر فوق جرانك وقــود
وواكدرك طرينا الغرب جبال قنفــود
. . . . الخ

ومن الكبابيش أيضاً « عيد » الذى يقول الطيب ود ضحوية عنه :

قُعاداً فى البِيُوت يا أم دَرْعَه (٤) ما هُو (٥) مْـفيدْ
وْ ما فيش (٦) نُزْهَة (٧) مِنْ غير ألْ تَسيها الإيدْ (٨)
كَمْ كَرْبَجتَهِن (٩) فُوق الصّريمتُو (١٠) . . . . حَدَيدْ
وأصْبحَ قابِض العَرْبُــون (١١) وَرَق من عِـيــدْ (١٢)

إن هذا العمل الذى يقوم به العميل نحو اهمباتى والذى يتلخص فى بيع الأبل وتسهيل سفره ان كان محتاجاً ، هذا العمل كانت تقوم به فى بعض الأحيان « ستات المجالس » أو « شيخات الأنادى » . فهم قــد يحطون رحالهم لدى أحدى هؤلاء النساء ويو كلون

١ — جد القرارى : ولى من الأولياء من منطقة القراى .
٢ — خــواد : خاض .
٣ — عايده بت عواد : عواد أحد « العملا » من الزبيديه وعايده بته .
٤ — الدرعه : الشعر الذى يلصق برأس المرأة .
٥ — ماهــو : ليس (٦) مافيش : لا يوجــد
٧ — نزهه : متعه (٨) الايــد : اليــد
٩ — كــربج : ضربه بالكرباج وهو الصوت .
١٠ — الصريمــه : اللجام
١١ — العربون : بعض الثمن أو الأجرة يعطيه الرجل لعامله كضمان لاتمام العقد .
١٢ — عيــد : أحد « العملا » من الكبابيش .

اليها مهمة بيع الإبل مقابل قدر من المال يتفق عليه معها . ومن الناحية الأخرى إذا جاء أحدهم إلى هذه المرأة وطلب اليها أن تقرضه مبلغــاً من المال يرده لها بعد أوبته فأنها لا تتردد فى ذلك . ومن هنا كانت هؤلاء « الشيخات » يقمن بنفس الدور الذى يقوم بــه « العملا » . وقد تحدث الهمباته عن ذلك فى شعرهــم :—

ألدّرب ألْ بجيب كمش (١) النُقُود مُو(٢) هَــيّن
ما بمشيهُو ديك بيتو (٣) أبْ جليــداً لَــينْ (٤)
ألْوَلَد ألْ بقُوم مِنْ أم حَمَد (٥) مديَّـــنْ (٦)
غَصْباً عَنّو يا السّاحِر (٧) بسُوقهن بَــيّنْ (٨)

وهكذا نرى أن هؤلاء النساء يشكلن عنصراً آخراً من عناصر الحياة التعاونية التى يتمتع بها مجتمع الهمبته .

تلك كانت صورة مجتمع الهمبته . فهو مجتمع يعتمد من حيث تكوينه الاجتماعى على فئتين أساسيتين : فئة الهمباتة وفئة « العملا » وهو مجتمع تسوده روح التعاون التى تتمثل فى علاقة الهمباته كفئة واحدة ، وفى التعامل بين الفئتين اللتين يتكون منهما المجتمع ، وهو تعاون أملته طبيعة الحياة القائمة على المغامرة ، المحفوفة بالمخاطر ، والمتعرضة فى كثير من الأحيان للصعوبات والمشاكل .

٢ — القــواعــد :—

تقوم عملية النهب على بعض القواعد التى يتحتم على المشتغلين بها مراعاتها . ومن شذ عن هذه القواعد يعد مارقا من حظيرة الهمباته . ومن أوضح هذه القواعد مايلى :—

١ — كش : جمع كشه ، ما يملأ الكف .
٢ — مــو : ليس
٣ — ديك بيتو : أى الذى يلازم بيته مثل الديك .
٤ — لين : هش .
٥ — أم حمد : احدى الغوانى من قبيلة الشكرية واسمها « سهوه » .
٦ — مديــن : مستدين .
٧ — الساحر : اسم الجمل .
٨ — بــين : فى العلانية .

١ – الاقتصار على نهب الابل :–

قلنا فى تعريفنا للهمبته أنها طريقة فى الحياة تقوم على نهب وسلب الابل . ويعنى هذا التعريف أن الهمبته تقتصر على نهب الابل دون غيرها . وتلك قاعدة أساسية من قواعد الهمبته ، بل هى الأساس الذى يقوم عليه التفريق بين الهمباتى وغيره . ولابد أننا نتصور أن يكون لاهتمام هذه الفئة بنهب الابل دون غيرها أسباب ومبررات في اجابات الهمباته على السؤال عن سبب اعتمادهم فى النهب على الابل دون غيرها . ولعل ما يعين على اكتشاف تلك الاسباب والمبررات . أما الجانب الآخر من هذه الأسباب والمبررات ، فذلك ما يوجد فى طبيعة المجتمع البدوى وتكوينه الاقتصادى والاجتماعى وربما فى شىء تتمتع به الابل دون غيرها .

ومن اجابات بعض الهمباته عن سبب نهبهم للابل ما يقوله أحدهم : « عشان ألنْبِل حاجَه كُوَيْسَه ناعْمَه ماميْل الشاه الْ بِنبَدُّوهُم بيهَا » (١) . ويقول همباتى آخر : « أولاً ألنْبِل عزَاز ، التَّانْيَه كمَان سوقهن ذاتو عزه . الْزَوْل كان سَجنوهو فيهن ، كان كتلوهُوْ فوقهن زول عزيز خلاص عِنْدَنَا » (٢) . فنهب الابل اذن عزه كما يقولون ، وهو يجلب الثناء والتقدير ، ونهب غيرها فيه مذلة وتحقير . وبينما يسمى الذى ينهب الابل « همباتى » ، يسمى الآخر « سراق » . يقول أحدهم : « . . . . فى ناس بِسُوقوا غير ألنْبِل لاكين دِيلة ما هُم سَراجة ، دِيلَة بى صفتْهم سَراريق . ألْسَرّاق دَا يسْرق البيَت ، يسرق العَنز بِسْرق ألْدُكان (٣) . إذن هذا هو مفهوم المجتمع البدوى للذى ينهب الابل . فالذى ينهب غير الابـل ليس بهمباتى فى نظر المجتمع .

وهناك جوانب أخرى لتفسير إقتصار الهمبتة على نهب الإبل . ومن هذه الجوانب ما هو إقتصادى وما هو إجتماعى ، ومنها جانب يتعلق بطبيعة الإبل نفسها .

أ – الجانب الإقتصـادى :–

لا أظن أننا فى حاجة إلى أن نعيد ما ذكرناه سابقاً عن التكوين الإقتصادى للمجتمع

١ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٥ .
٢ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠١
٣ – ‘‘ ‘‘ ‘‘ م/د/أ/أ/١٨٩٦

البدوى . ولكنا نضيف إلى ما قلناه قولا آخراً وهو أن البيئة الجغرافية قد لعبت دوراً ملموساً فى حصر موارد أعراب البادية الطبيعية فى المراعى . ومن الناحية الأخـرى فأن ظروف هؤلاء الأعراب الحضارية قد وقفت بمجال عملهم عند الرعى . ولهذا فـان الثروة فى المجتمع البدوى كانت تنحصر فى قطعان الإبل والمعز والغنم . أما الإبل فقد كانت تخير ما فى هذه الثروة . فعلاقتها بالإنسان البدوى علاقة المستفيد منها فى شتى إحتياجات حياته . فهى مصدر غذائه و كسائه وأداة حمله عند الرحيل من مكان إلى آخر. ومن الناحية الأخرى فان العائد من الإبل من الناحية المالية لا يمكن أن يقاس بالعائد من الغنم أو المعـز . أو البقر . فالثور – مثلا – قد لا يصل ثمنه إلى نصف ثمن البعـير ، ناهيك عن الغنم والمعز . ومن هنا كانت فائدة الإبل الإقتصادية كبيرة والعائد منها فيه إغراء كبير قياساً بغيرها من أنواع الماشية الأخرى .

ب – الجانب الإجتماعـى :–

أما الجانب الإجتماعى لمسألة إقتصار الهمبته على الإبل فقد جاء ذكره فى ما مضى من حديث حول مكانة الماشية فى المجتمع البدوى . فثروة الأفراد كانت تقاس بمقدار ما يملكون من إبل . وكان كل ثرائهم يقوم بالإبل . وقد رأينا آنفاً كيف أن المرأة فى المجتمع البدوى كانت تؤخذ بشخصية مالك الماشية ، والإبل منها على وجه الخصوص ثم أن الثراء نفسه كان وسيلة إلى السلطة ومعبراً للمكانة الإجتماعية الرفيعة . وهذه المكانة للابل فى المجتمع البدوى . جعلت الإهتمام بها يصل درجة كبيرة ، والحصول عليها يتخذ أشكالا عديدة . والهمبته واحد منها .

ج – الجانب الطبيعـى :–

هذا الجانب وإن كان أقل من سابقيه من حيث الأهمية والتأثير ، إلا أنه يعتبر أحد جوانب المسألة . فالجمل يعتبر سفينة الصحراء الأولى ، وذلك لمقدرته على تحمل العطش لأطول فترة من الزمان ، والإهتداء إلى مواقع الماء فيها . وهذه ميزة لا تتوفر لأى حيوان آخر . وهو أيضاً يفوق غيره من أنواع الماشية فى السرعة وطى المسافات . وقد ذكر طه الضرير أن من ضمن أسباب تمسكهم بالإبل أن : « الإبل بتبعد » (١) أى أنها تسير لمسافات بعيدة . وقديماً قالت العرب : « الجمل سفينة الصحراء » . ولا يخفى أن أصحاب

١ – يتبعد : أى انها تسير مسافات طويلة وتبعد .

الإبل ما أن يحسوا بفقدانها ، حتى يكونون ما يعرف بـ «الفزع» . ويحثون السير خلفها متتبعين أثرها بواسطة قاص الأثر أو بغيره . وذلك يحتم على الهمباته الإبتعاد بها عن مكانها أطول مسافة ممكنة ليضيعوا على الذين يتتبعون أثرها فرصة اللحاق بهم ، وذلك ما توفره الإبل دون غيرها .

ولكل ما سبق من أسباب وعوامل ، كان الهمباته يركزون عملهم فى نهب الإبل ومن أجل ذلك يعفون عن نهب البقر والغنم والمعز . بل أكثر من ذلك يعتبرون هذا عيبا ويعيرون به غيرهم . يقول أحد الهمباته من قبيلة الكواهلة : «شاةْ الفَطيم ما بِنْسُوقهْا ولا حمار بِنْسُوقَهْا ولا بَقَرة بِنْسُوقَهْا ولا . . . . علاَ (١) ألْبِل دَيل» ويقول آخر من قبيلة حمر : «ؤزول يسْرق غنماية بِعِيبوا الْعَوِين (٢) يِغَنِّن لِى (٣) هذا وقد حفل شعرهم بالإفتخار بنهب الإبل وفى نفس الوقت يتبرأون من نهب غيرها يقول الطيب ود ضحوية :—

ما بَدَّبى (٤) لى عنزْ (٥) الفطِيم (٦) والشَاىْ
بِعَرف سُوق بُكاراً دَلتّن (٧) دَاداىْ (٨)
بِضرب ما بَرابى (٩) بخالف الهَداىْ (١٠)
كسْبى ألْ عنِدْ قُراناتهن بهز بى (١١) أم يَاىْ (١٢)

وعموماً نقول بأن القاعدة هى أن الهمباتى هو الذى ينهب الإبل ويعف عن غيرها من كل الأشياء ، وما دونها من أنواع الماشية ، وذلك للاعتبارات المذكورة فيما مضى من القول .

---

١ — علا : الا ، ما عدا . (٢) العوين : النساء .
٣ — الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٨٩٦ .
٤ — تدبى : مشى على يديه ورجليه . تلصص (٥) عنز : أنثى المعز .
٦ — من فطم الطفل فصله عن الرضاع
٧ — دلتن : دليلهن .
٨ — دا داى من الدوداى وهو صوت يرسله الراعى اذا أراد جمع الابل .
٩ — مابرابى : لا أتردد
١٠ — الهداى : الذى يهدى وينصح
١١ — هز الشىء : حركه
١٢ — ام يـاى : البندقية

(٢) العلانية فى النهب :—

يقول أحد الهمباتة من قبيلة الكواهلة : «ما بين المهجراوى والسراق فى فرق : أولا السراق دا سراق يبرى بى هنى ويبرى بى‌منى دا بقولوا سراق .وياكين (١) المهجراوى دا مكرب جملو ، بندقيتو وسيفوو طاش فى الخلاء». فالهمباتى إذن لايأتى متلصصاً ولا يأتى فى الخفاء . إنما يحصل على غنيمته بالقوة ، عنوة وإقتداراً «حمرة عين» وسيلته إلى ذلك شجاعة فطرية وسلاح أصيل يجيد إستعماله . ومن هنا كان عزوف الهمباتة عن «الهامل» ، فذلك فى عرفهم مما يجلب العار ويلطخ السمعة . ولذلك فأنهم لا يسلبون إلا الإبل المحروسة والمحمية التى حرص أصحابها عليها فأحاطوها بما يحفظها ويمنع الأيدى من أن تمتد اليها . ولعلهم يجدون فى ذلك منعة شخصية . وهذه الصورة جاءت مرسومة بعناية فائقة فى شعرهم الذى تغنوا به يقول الطيب ود ضحوية :—

ألْزول البِدْور من البَوادى ضرِيبَة (٢)
ينْقى مْوَارك (٣) الغُرْبَة ويبعد الرِيبَة (٤)
ما بدْ بِّى (٥) لى الهَامْلة (٦) البْشُوفها غرِيبَة
إلا النَّسِيدة فى الدنادر مسيلَهْا زَرِيبَة (٧)

(٣) عدم نهب القبيلة والقبائل المجاورة :—

من القواعد المرعية كذلك فى مجتمع الهمبتة أن الهمباتى يجب ألا ينهب من قبيلته أو ما يجاورها من القبائل . وذلك يدخل فى ما يمكن أن نسميه «مراعاة الجار» . ولذلك فأن القاعدة هى أن يتوغل الإنسان فى البلاد ويبعد «الرد» على حد تعبيرهم .

ألْولد أليِدُور الشكْرة يا بى الشَيْنَة (٨)

---

١ — الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠١ .
٢ — ضريبه : فرصة سانحة .
٣ — مـوارك : من ورك على الشىء داوم عليه (٥) تدبـى : تلصص
٤ — الريبـه : الشك
٦ — الهاملـه : من همل ترك سدى فهو هامل وهى هامله عندنا
٧ — زريبـه : حظيرة المواشى .
٨ — الشينه : من شين : القبيح والعيب .

يبعِد ردُّو كوْ ينطَح بوَادى جُهينَةْ (١)
أما نجيب فُلوساً (٢) تبسْط الرّاجيناْ (٣)
ولا أم رُوبَة (٤) لاحُولين (٥) تكوُفتُو (٦) علَينَا

ويقول أحد الهمباتة من قبيلة حمر : « لاكين ما فيش (٧) سَرْقَة داخليّـــة أبداً . زول يسْرق إبل بنات أعَمُّو فضيحة ذاتها ما يسمى راجِل أبداً، والنّاس بمجوهُو (٨) فى مجلِسِهُم ما بقَعُد. يعنى عيْب جـداً . إلا زول يجيب بهـايم من غَادى وسمهن زانُو بتّاع النّار هنا فى القَبيلة ما بتعَرف . دى عِنْدنا شكْرَة (٩) ويقول طه الضرير « ؤ يسافر بلَد بعَيد كان كتلوهو فات فات ، وأن فوت راح على اهلو » (١٠) إذن فالقاعدة هى أن يبتعد الشخص عن ديار قبيلته وما جاورها طول مسافة ممكنة وأن يتفادى دائماً ما يجلب له ما يعيب :

ألْولَدَ ألْبِدُور الشّكْرة لا يتبيـــوْم (١١)
يبْعِد ردُّو مِنْ قُولَه فُلان إتلَـــوْم (١٢)
أما جَابْ رُضْوَة (١٣) ألدِّيسُو (١٤) حدَاهُو (١٥) مُكوَمْ (١٦)

١ – جهينـه : مجموعة قبلية ذات أصل عربى .
٢ – فلوس : جمع فلس يونانية الأصل : النقود .
٣ – الراجينا : الذى ينتظرنا .
٤ – ام روبه : الروبة الشعر وأم رويه كناية عن المرأة ذات الشعر الطويل .
٥ – حـولين : من حول السنة والعام .
٦ – كوفت الشعر : صفره ضفرا كبيرا غير متقن وكان يستعمل فى الحداد عل الميت .
٧ – مافيش : لا توجـد .
٨ – مج الشراب من فمه : رمى به . ومج كره وتباعد من .
٩ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٨٩٦ .
١٠ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥٠
١١ – يتبـوم : لا يتكلم .
١٢ – اتلـوم : من اللوم أى يأتى من الأفعال ما يجلب له لوم غيره .
١٣ – رضـوة : رضى
١٤ – الديس : الشعر
١٥ – حداهـو : الى جانبه
١٦ – مكـوم : من كوم الشىء اذا جمعه وجعله كوما .

وأما أبْ رسْوَة (١) فوُق ضَلاَعُو تيتَل ؤ حَوَمْ (٢)

(٣) القـــيم :–

يشتمل مجتمع الهمبتة على مجموعة من القيم المرعية . ومن هذه القيم ما هو عـام ى أنها قيم موجودة أساساً فى المجتمع وفى شخصية العربى عبر تاريخه الطويل . ومنها ما هو خاص بمجتمع الهمبته مستمد وجوده منه . وهذه وتلك تكون جميعاً قـيم مجتمع الهمبته السائدة فيه والموجهة له .

أن القيم العامة التى نعنيها هنا هى القيم المشهورة للعرب فى كل زمان ومـــكان كالكرم والشجاعة والشهامة ومراعاة الجار والعشير . فقد ذكر بيرجر ، مثلا ، أن المرؤة الشهامة والكرم من أبرز سمات البدوى العربى (٣) . ومن هذه القيم العامة تميز الهمباتا الآتـى :–

أ – الشـــجاعة :–

تعتبر الشجاعة من أوضح سمات الهمباته . إذ أن طبيعة عملهم تجعلهم دائماً فـى اجهة الخطر . فأصحاب الإبل المنهوبة لابد أن يسعوا لإرجاعها مما يؤكد حدوث صدام فى كثير من الأحيان . ومن الطبيعى أن عدد المطاردين يكون أكبر حجماً من عدد الهمباته لكنهم فى أغلب الأحيان لا يتخلون عما نهبوه من إبل ، و كثيراً ما يرجع أصحابهـا من حيث أتوا بعد أن يكون الهمباته قد أبلوا بلاء حسناً فى الذود عن مغنمهم . فالهمباته اذن رجال أقوياء وشجعان ، وذلك ما يحكيه واقعهم وما هو مسجل فى شعرهم . فهم لم يكونوا يخشون الموت لأن الموت يلقاه المقيم أيضاً ولأنه رهين بقدر مكتوب :–

ألنّاس ألعَلىَ السّاحِر بِشُقوا الصّىْ (٤)
واللّيلَة أمْسُوا فوق رأياً نجيض مُو نىْ (٥)

١ – اب رسوه : كناية عن الأسد .
٢ – تيتل : تبختر . حوم : من حام اذا دار حول الشىء .
٣ – M. Berger the Arab World Today, London 1962 P.6. 65.
٤ – الصـى : الخـلاء
٥ – نجيـض : ناضج ورأى نجيض : قوى : وعكسه رأى نى .

نَاسْ أَبْ تَرْمَة (١) جَامُوس (٢) أَلْنحَاس أَبُودَىْ (٣)
عَقَدُوا أَلْشُورة مِيعَادُهُن جُبَال كُرْبَىْ (٤)

ب ـ الكـــــرم :ـ

أن الكرم وقرى الأضياف هى من القيم العربية المعروفة والمشهورة . والكرم ضرب من ضروب التعاطف الإنسانى . وللكرم فى مجتمع الهمبته عادة مظاهر . ومن هذه المظاهر صرفهم على غيرهم : فهم يعينون المساكين والفقراء ويمدون يد العون لكل محتاج . بل أن هذا الكرم يبلغ به أحياناً درجة يدفعون فيها كل ما يملكون تفادياً لتفاقم مشكلة يكون سببها المال . و كل ما نقوله هنا ورد ذكره حين تحدثنا عن أوجه صرفهم ، ولا أظن أننا فى حاجة إلى تكراره . والذى يمكن أن يضاف هنا أن الهمباته قد مدحوا الكرم وتمسكوا به بينما نبذوا البخل وهجوا البخلاء . بل كان الغنى البخيل هو هدفهم دائماً . وقد عبر شعرهم عن ذلك :ـ

ما نِى أَلْتَنْبَل الْقَاعد يَقُول سَوِّيَتْ (٥)
وْ يِشْهَد حَالِقِىْ كان يُوم أَلْسُعال قَرِّبَتْ
إنْ بَرَدَن نُقُود مانِى الْبَخِيل صَرِّيـتْ
وْ أنْ حَرّنْ بْكار ما هِنْ صَفايِح زِيـتْ

ج ـ المــــروءة :ـ

تعتبر المروءة صفة ملازمة للشخص الهمباتى . وهى أيضاً من القيم المعروفة فى المجتمع البدوى والعربى منه على وجه الخصوص . يقول الفوال : « هذا وقد إرتبطت بخاصية الوفاء مجموعة من الخصائص كالكرم والمروءة والشجاعة والإجارة والنجـــدة وما اليها . . . . » (٦) وهو يرى أن مثل هذه الخصائص أنما نشأت كرد فعل للظـــروف

---

١ ـ اب ترمه : هو الصديق عثمان التركاوى من همباتة البطاحين واب ترمه لقبه .
٢ ـ جاموس : ضرب من البقر .
٣ ـ دى : الحرب . ويقو ديه أيضا .
٤ ـ جبال كربى : جبال بعينها .
٥ ـ الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥٤ .
٦ ـ علم الاجتماع البدوى ٣٣١ .

البيئة الصعبة التى يحياها البدو . فالهمباتى رجل شهم فيه نخوة ومروءة . وقد عبر الهمباته عن هذه الخاصية فى شعرهم . ومن ذلك أبيات الطيب ود ضحوية التى سبق أن أوردناها والتى يقول البيت الثانى فيها :ـ

عند طرش (١) الدُّرق ما بنسى شرط الخـــــوة
كباس (٢) لى الدهم (٣) عند البقول يا مـــروة (٤)

د ـ مراعاة الجار والعشـير :ـ

هذه القيم الأخلاقية هى أيضاً من السمات العربية التى ورثها المجتمع البدوى فى السودان من جذوره العربية القديمة . وقد راعى الهمباته الجار فلم يكونوا ينهبون ماله ، ومن ذلك أنهم لم يكونوا ينهبون أبل القبائل المجاورة ، ثم أنهم كانوا يعفون عن محاوم الجار والعشير وينفرون من مجرد التفكير فى خيانته .

بِبْعِيد رِدِّى (٥) ما بَدَّبّى أَخُون الجارْ
وْ بحرت كَفِّىّ فى الْيُوم أَبْ لِطامّا (٦) حَارْ

ويقول الآخر :ـ

ما بَشِيل أَلْرفيق بَى لُومُو بِى سَـيِّاتُوْ (٧)
ما بَدَّبّى فى غِيبَتُو وْ بخالِيى (٨) أَخْــواتُو
يُوم تَلْقانــى فى الوْعر (٩) الْقَنُوبَة (١٠) وطَاتُو (١١)

---

١ ـ طرش : ضرب
٢ ـ كبس : زحم وملأ .
٢ ـ الدهم : جمع دهمه وهى السواد .
٤ ـ مسروه : مروءة .
٥ ـ الــرد : المكان والناحية .
٦ ـ اللطام : الحـــرب .
٧ ـ يعنى انه يحترم رفيقه مهما فعل معه ـ وهو لا يكثر من لومه أو يتتبع سيئاته .
٨ ـ خــالى : تحدث اليه فى خلية وخلاء .
٩ ـ الــوعر : المكان المخيف .
١٠ ـ القنوبه : الخلاء والأرض الجافة العالية .
١١ ـ الواطـا . الأرض .

قَلْبِي بكَجَنّ (١) ألْبِيْـــــمع كَلَام أمَاتُـــــوُ

وبجانب هذه القيم العامة التى تميز بها مجتمع الهمبته كان له قيم خاصة . ونقول خاصة لأن هذه القيم نابعة من المجتمع نفسه ومرتبطة به . ومن هذه القيم :ـ

أ ـ المسئولية التضامنيـــة :ـ

رأينا فيما مضى من حديث عن قوانين المرافقة كيف أنها إشتملت على صور متعددة من صور الوفاء للرفيق . فهو دائماً موضع العناية والإكرام . ما وقع فى مشكلة إلا تعاطف الآخرون معه وسعوا بكل ما يملكون لإنتشاله من معاناته . ثم أنهم إذا ما حدث له ما حمله على الغياب من أهل بيته قام رفاقه برعايتهم وتقديم كل ما يساعد على عدم أحساسهم بفقده . فهم يقدمون لهم المال ويعودونهم من وقت لآخر يخففون من بلوائهم حتى يكون ذلك بالنسبة لهم بمثابة العون على الصبر وإحتمال الفاجعة . ولا أظن أننا فى حاجة لأن نعيد ما فصلنا القول فيه من صور وأشكال التعاون والتضامن الذى كان يسود مجتمع الهمبته .

ب ـ عدم نهب الفقـــراء :ـ

ومن قيم الهمباته أيضاً أن هناك أنواعاً بعينها من الإبل لا ينهبونها وهى إبل الفقراء من الناس . ومن ذلك ما يعرف فى قاموسهم بـ« جمل القيد » . وفى ذلك يقـــول احدهم « لاكين ألسُّروجي دا زَاتُو جَمَل قيد ما بحلو . جَمَل مَرْبُوط فى الحلّة ما بحلُّو إلاّ بْشُوف بَكان ألْبِل كُوَم حتى بمشى يجرُ مِنّهن بمشِى » (٢) . وكذلك هـــم لا ينهبون ما يعرف بـ« جمل الشيخ عبد القادر » ويعنون به الجمل الوحيد عند صاحبه . وحتى إذا جمعت هذه الجمال جميعاً لتكون قطيعاً فانهم لا ينهبونها . كما أنهم لا ينهبون إبل المرأة . وهم لاشك يراعون فى كل ما مضى الظروف الإنسانية للذى لا يملك غير بعير واحد ولابد أنه فى أمس الحاجة اليه وربما يكون معتمداً عليه فى معيشته وترحاله .

ج ـ عدم نهب الأغنياء الكرمـــاء :ـ

أن هدف الهمباته دائماً الأغنياء والأغنياء البخلاء على وجه الخصوص . فهم إذا

١ ـ كجـن : كره .
٢ ـ الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٨٩٦ .

جاءوا فى منطقة وعلموا أن شخصاً ما من أصحاب الإبل مشهود له بالكرم ومساعدة المحتاجين والإنفاق على المساكين ، فأنهم لا يتعرضون له بسوء . وهم دائماً يقصدون ذلك الذى يجمع الأموال ويكدسها ولا يجعل لأحد فيها نصيباً مهما أشتدت به الضائقة :ـ

بالك (١) فاضى (٢) فى رُوبْة الْغُصُون (٣) بِتَقَلّمْ (٤)
وبيك مِتمِلّى (٥) يا السّاحر (٦) عَلَيكَ مِتكلِّـــم
ألزُّول الْعَلى كُمْش (٧) النقُـــود مِتْعَلِّــــم
نهجِم دِيْرتُو (٨) فى الْقُبْسَــة (٩) ألضُيّاها مْضَلِّـم

د ـ عدم نهب اليتـــيم :ـ

ومن القيم السائدة فى مجتمع الهمبته كذلك أنهم لا ينهبون مال اليتيم . وذلك لأن اليتيم فى نظرهم أحوج ما يكون لهذا المال بعد أن فقد من يعوله . ونهب ماله يزيد الحزن المطبق عليه ويعنى فقده لما يمكن أن يتمول به فى حياته .

الخلاصـــــة :ـ

وخلاصة القول أن مجتمع الهمبتة مجتمع ذو قواعد تحدد أسس الدخول فيه وتنظم العلاقة بين أفراده وهى علاقة تقوم على عدة صور من التعاون الذى تحتمه طبيعة الحياة نفسها. وله بجانب ذلك قواعد ترعى كينونته وتبين طبيعته وهى ـ أي هذه القواعد ـ مرعية إلى حد كبير من جميع أفراد المجتمع فى تناسق وحسن نظام ودقة التزام . وتسود مجتمع الهمبته قيم أخلاقية محفوظة . ومن هذه القيم ما هو من صميم المجتمع البدوى العربى ، ومنها ما هو خاص بذلك المجتمع نابع من داخله . وكل تلك النظم والقواعد والقيم هى وليد شرعى للظروف البيئية التى يعيش تحتها أفراد المجتمع نفسه ، على نحو ما رأينا .

١ ـ البال : القلب والخاطر (٢) فاضى : خالى
٣ ـ الروبة : هى الشجر . وتستعمل مجازا لتعنى ما استطال من فروع الشجر
٤ ـ قلم : قطع (٥) تملى به : أعجبه
٦ ـ الساحر : اسم الجمل وهو من جمال الطيب ود ضحوية
٧ ـ كش : كش من الشئ كشه اذا أخذ منه بقدر ما يملأ يده .
٨ ـ الديره : المكان
٩ ـ القبسه : من قبس : شعلة النار .

شعر الهمباتة

مضمونه ، وظواهره الفنية والموضوعيـــــة

(١) المضمـــون :ـ

إن شعر الهمباته هو صورة من حياتهم . فهو يعبر عن طريقتهم فى الحياة ويعلل لهذا السلوك ويعكس ما يدور فى نفوسهم . ففى هذا الشعر نجد تصويراً أميناً للمخاطر التى يتعرضون لها والمغامرات التى يخوضونها وقدرتهم الفائقة على تخطى العقبات التى تصادفهم وصبرهم على الصعاب التى تجابههم كالجـــوع وإنعدام الماء والمعـــارك التى يخوضون غمارها مع أصحاب الإبل المنهوبة أو رجال الأمن . ويشتمل شعرهم كذلك على آرائهم الإجتماعية والإقتصادية ، وآرائهم فى غيرهم ممن لا ينتهجون نهجهم ، أولئك الذين ليس لهم من هم سوى مجالسة النساء والتلهى بسير الناس ونبش عروضهم . ونجد فى شعرهم بجانب ذلك فخراً بأنفسهم وبسطاً لمذهبهم والفلسفة التى يقوم عليهـا ، وطرحاً لقيمهم ومبادئهم ، تلك القيم والمبادىء التى تسود حياتهم وتحكم علاقاتهم ببعضهم وبغيرهم من الناس .

(١) شرح الدوافع والأســـباب :ـ

تقوم حياة الهمباته على المغامرة الدامية . وهى حياة مهددة دائماً بخطر الموت . ولذلك أدرك الهمباته بحسهم أنهم فى حاجة شديدة إلى تعليل هذا السلوك فى الحيـاة والدفاع عنه . ومن هنا جاء شعرهم يحمل الإجابة على السؤال الذى قد يخطر بذهـن أى باحث فى حركتهم عن الأسباب والدوافع التى حدت بهم لإنتهاج هذه الطريقة فـى الحياه التى تقوم على النهب والســـلب :ـ

عكسنا طرينا يا الممنوع ليـــالى لعبنـــا
وسينا سروجنـــا فوق النيب بعدما شينـا
قلـــت نومى فوســـيبة القرير اللينـــه
كم لى رضـــاها بى درب الدراهـــم غينـــا

وعلى هذا النحو أوضح شعرهم كل الأسباب والدوافع وراء حركتهم . فتحدث عن المرأة وعن القبيلة وعن الرغبة فى اللهو والطرب وعن للفقر :ـ

مِنْ جُبال حُفْرة (١) قُمْنَا سَرَبْنَا (٢)
بُكْرَة فى المْزْرَوب مَلَيْنَا قْرَبْنَا (٣)
حِسْ الجالْسَة (٤) تَرْطُن من الرْكُوب مِتْغَبْنَة
قُعاداً بى الْفَلَس كِيفَن لَيَالى الصَبْنَة (٥)

وعموماً شرح شعرهم الظروف الإجتماعية والإقتصادية التى كانت تحيط بهم ولعبت دورها الكبير فى خلق ظاهرة الهمبته التى كانوا هم فرسانها ، وأبطالها الذين يدافعـون عن فكرتها ويلتزمون بقيمها ونظمها وتقاليدها .

(٢) التوعـد والتهديـد :ـ

تحدث الهمباته فى شعرهم عن التوعد والتهديد . وهذا التوعد والتهديد موجه بالطبع إلى أصحاب الإبل التى هى غاية مناهم . وقد يكون ذلك موجهاً إلى شخص معين يسمونه ، أو إلى أصحاب الإبل عموماً أو إلى منطقة بأكملها يسمونها أيضاً . ومن ذلك قول الطيب ود ضحويـــة :ـ

ألْلَيلَة الْبروق فُوَق ألْجُبال ألْسبُعَـة
وْ شَالَن نُومِى يا أبْ أيداً مُوارْكَة (٦) ألْهَبْعَة (٧)
ألْغُنَا والنَمِيم (٨) يا الْغُول يِقَى لىْ طَبْعَة
وكْتُا مُو بَعِيد بَدَّى الدَنَادر (٩) لبْعَه (١٠)

١ ـ جبال حفره : جبال بعينها فى كردفان .
٢ ـ سرب سربه : خرج لرحلة بعد الظهر .
٣ ـ القربه : الوطب أى وعاء يجعل فيه اللبن والماء .
٤ ـ الجالسه : مقعد السرج . ورطن تكلم بالأعجمية ويعنى الشاعر أنها تحدث صوتا .
٥ ـ الصبنه : صبن المطر كف عن التهطال ولم يترك عدة أيام واسم المدة منها الصبنه .
٦ ـ ورك على الأمر قدر عليه وداوم عليه .
٧ ـ الهبعه : هبع البعير مد عنقه فى مشيته .
٨ ـ النميم : الترنم . ونم غنى الشعر وطرب
٩ ـ الدنادر : نسبه الى نهر الدندر ويقصد مناطق ذلك النهر .
١٠ ـ لبع : ضربه عل قفاه بكفه .

وفى بعض الأحيان يوجه التهديد إلى شخص ما بسبب حادثة معينة . وقد روى أن الطيب ود ضحوية قبض عليه بعد نهبه عدداً من الإبل وزج به فى السجن . ولم يكن ذلك ليثنيه عما هو فيه ، بل زاده أصراراً على التمادى فى عمله . ومن داخل السجن إنطلق صوته متوعداً ومهدداً صاحب القطيع الذى كان سبباً فى دخوله السجن :—

ألليلة السجن جاب لو إنكتامه (١) وحـــره
وْ نحنَ جـَرَارْقـُو (٢) حـَدّ ثْ لىَ الجنين الْبرّه
سَحار الغـُروب رَاجـِينا كاضْم (٣) الجرّه (٤)
بَلْحق بيـَك مـُراح (٥) حـَسَب الله ويَن ما فـَرّه (٦)

وهكذا يبث الهمباتى تهديده ووعيده لأصحاب الإبل وهو دليل على سبق الإصرار وتأكيد الإصرار على التمادى فى الذى هو فيه مهما كان نوع العقاب الذى ينتظره على جريرتـــه .

(٣) الحديث عـــن الرفـــاق :—

تعرضنا فيما سبق لقوانين المرافقة فى مجتمع الهمبته ، ورأينا إلى أى مدى يكـــون التزام الرفيق نحو رفيقه . وكان من الطبيعى أن يتحدث الهمباته عن ذلك فى شعرهـــم . وبالفعل جاء شعرهم حافلا بالحديث عن أولئك الرفاق : تحدثوا عن مواقفهم وعـــددو صفاتهم ووصفوهم بالجدية والصمامه وقوة النفس والجسد . ولم يقفوا عند هذا الحد بل وصفوا شعورهم حين تفرق بينهم الأيام ، وهو شعور مكلل بالحزن والأسى والمشاركة الوجدانية فى المصاب . فقد روى طه الضرير أن رفيقه الطيب ود ضحوية كان فى منطقة كسلا يبيع أبلا له ، وهناك أتاه أن طه قد حوكم بالسجن . وتمضى الرواية فتقول . « الخبر جاهو فى كسلا قالو لو طه اتحاكم سبعة سنوات . هو زول بسيط وكت جاء

---

١ – انكتامه : الكتمه : شدة الحر .
١ – الجرق : الثور الذى يجر الساقيه والمحراث . ونعت أيضا المجرب .
٣ – الجره : ما يخرجه البعير من جوفه ليمضغه مرة ثانية .
٤ – كضم : كزم : ضم فاه وسكت .
٥ – المراح : القطيع .
٦ – من مجلة الاذاعة والتلفزيون والمسرح ، عدد الخميس ١١ يوليو ١٩٧٤م ص ٣١ .

لى الزبيديه (١) ديل ، لى مترلتو جاء غضبان . والزبيديه شافوا زول بسيط قبل يضحك . قالو لو يا أبو فاطنه انت الليله ما براك (٢) أصلا ماك براك . بعدين غنى يقول لهم :—

الليله ألنفس أمست حزينه وعامده (٣)
وما بتسلى بى برقع (٤) حميده وحامده (٥)
فارقنا الرباعه (٦) أبان (٧) قلوبا جامده (٨)
ناس طه اللحو (٩) ضو القبيله الهامده (١٠)

فهم يعتزون برفاقهم ويعجبون بشجاعتهم وشدة مراسهم وقوة عزيمتهم واقدامهم :—

أمْرار فى الْكَدَوُس (١١) وأمْرار سِجَاره أعلّبْ .
أمْرار فى خلاءٌ وأمرار بهِيمَةُ أسـلّبْ
كم رَابَع جنين فُوق الدّرَق بِتلّـبْ (١٢)
لىَ الْياجينِى (١٣) راسِى (١٤) ؤمِنُو مانِى مجلّبْ (١٥)

والواقع أن الحديث عن الرفيق يتخذ أشكالا مختلفة بدءاً بالفخر بثباته ومضاء إرادتـــه ، مروراً بالحزن على فقده — حتى ولو كان هذا الفقد مؤقتاً — وإنتهاء بالوقوف معه وشد أزره والقيام بواجبه عنه والتعفف عن محارمه :—

---

١ – الزبيدية : من قبائل شرق السودان .
٢ – ما براك وما بلاك : تعنى أنك لست طبيعيا أى أن وراءك شيئا .
٣ – عامد : من عمد اشتد حزنه
٤ – برقع : غطاء للوجه معروف والزبيدية اكثر القبائل استعمالا له .
٥ – حميده وحامد : أسماء أعلام نساء .
٦ – الرباعه : الزملاء والاصدقاء .
٧ – أبان : أصحاب .
٨ –جمد الماء صار جليدا وهى هنا كناية عن الصلابة والشجاعة .
٩ – أحو : من الحوه وهى سواد الى الخضره أو حمره الى السواد فهو أحوى و « أحو » .
١٠ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥١ .
١١ – الكدوس : الغليون (١٢) تلب : قفز
١٣ – الياجينى : الذى يجيئنى . (١٤) راسى : ثابت
١٥ – جلب : فزع وخاف

مانِى (١) الْفَاسِد (٢) ألْ بىَ الكِيضبْ بِتْنَبِّىَ (٣)
سارح (٤) بىَ الْعُرُوض (٥) لىَ جَارْتِى ما بَدّبى (٦)
يا ستّار مِنْ نَضَم الحَشُوم والسّبّة
أنا أخُو الزّينَة عند حَل الرفيق والضّبّه (٧)

(٤) آراؤهم فى غيرهـم :—

يفتخر الهمباته بعملهم ويمجلونه . ولذلك فقد رسموا فى شعرهم صورة لحياتهم . وهى صورة تشع بالإشراق . وفى مقابل هذه الحياة المشرقة ، لفظ الهمباته حياة أولئك الضعفاء الذين لا يسلكون مسلكهم — وصوروا حياتهم فى شكل قاتم وبغيض وخلعوا عليهم الألفاظ الدالة على الضعف وصغر الشأن (ناس قدر الله) و (المنفوخ جراب الصوف) و (الديوك) وما اليها . وجاء شعرهم يقارن بين هؤلاء وأولئك :—

أكان شُفْتِينا فى سَاعَة الدرك (٨) والخوف .
ما بِتْسلى بىَ المَنْفُوخ جُراب (٩) الصُّوف
نحن أل بِنْكاور أم قُوفَه (١٠) ونَسُوقَا رَدُوف
نحن ألنّدْخُل (١١) الحارّة (١٢) العِيصيهَا ظرُوف (١٣)

فالهمباته هم الأقوياء دائماً ، يشقون الفيافى ويقتحمون الأخطار . أما أولئك فهم ساقطو الهمم الذين يحومون من ظل إلى ظل ومن مجلس إلى آخر :—

١ — مانى : لست
٢ — الفاسد : الذى ساءت أخلاقه .
٣ — تنبأ : أخبر . وهى هنا بمعنى المفاخرة .
٤ — سرحت المواشى : ذهبت ترعى . وتستعمل « سرح » للرعاية عموما .
٥ — العروض : جمع عرض (عرضى) : ما يصونه الانسان من نفسه أو من يلزمه أمره .
٦ — تدبى : جاء متلصصا .
٧ — الضبه : من ضب . شد القبض عليه .
• — ورد هذا الشعر فى « الشعر القومى فى السودان » ص ٢١٧ .
٨ — الدرك : الخطر (٩) الجراب : وعاء من جلد
١٠ — أم قوفه : الناقه
١١ — الندخل : أى الذين ندخل ونخوض . (١٢) الحاره : الحرب
١٣ — الظرف : الوعاء ويقصد به هنا ظرف الذخيره (٧) ديمه : دائما

واحْدين فى البِيُوت ديمة (١) مْكَبرين عمَامُنْ
عِدْمُوا الحيلهْ والزّوَل اب عَوارض (٢) لا مُنْ
واحْدين صَنْدَدُوا (٣) ؤ ختُّوا الضّرير قِدّامُنْ
طَبَقُوا الْعُودَة لىَ الماسْكَات عِدّاد ايامُنْ

فهؤلاء فى نظرهم لا يساوون شيئاً مثلهم كمثل « الديوك » التى لا تبارح الحى وتتحرك آلياً دون إرادة وحول :—

من بَرْنُو (٤) حِلّةْ البُقّارَة
ضَبح بتَاتِى (٥) فى ابْ قُرود (٦) لا يْسَاره
واحْدين فى البْيُوت زَىْ الدّيوك تِبْتباره
أبُو سْريَج قَفا (٧) بى قصّارى (٨) يُوَقِد نارَه

ومن هنا كان عملهم هو العمل المثالى وكل ما عداه من أعمال فهو وضيع وحقير :

واحْدين أمّلُوا البرازَة (٩) والحشّاشَة
واحْدين أمّلُوا فوق سِيرة الحواشَة (١٠)
واحْدين أمّلُوا الرّكْبَة المعَاها جعَاصَة (١١)
ودْ النُّور حِليل بهماً (١٢) منَامُو حنَاسَة (١٣)

١ — عوارض : نوع من الشلوخ واب عوارض وام عوارض وصف للمرأة .
٢ — صندد ، المصندد : الصنديد والصنديد الشجاع .
• — ورد هذا الشعر فى شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥٨ بالارشيف .
٣ — برنو : لعله اسم قرية .
٤ — تاتا : مشى بخطوات بطيئة ثابته
٥ — اب قرود : اسم مكان بعينه .
٦ — قف : ذهب وتولى .
٧ — قصارى : جمل قصير وهو نوع محمود من الجمال .
٨ — البرازه : تقاه لدق القمح
٩ — الحواشه : قطعة من الارض محوشه وهى عشرة أفدنه فى الجزيرة والمناقل وخمسه فى مشاريع الاصلاح الزراعى .
١٠ — جماصه : المقدرة والتباهى .
١١ — البهم : فى البادية يقصد بها الصيدة الصغيرة .
١٢ — حناسه : من حنس : أغرى وأرضى .

فعملهم محط فخرهم ، وهو عمل يتم عبر طريق محفوف بالمخاطر لا يستطيع أن يسلكه ذلك الذى فى نفسه ضعف وفى جسده لين :—

الدرب البجيب كمش النقود مو هــين
ما بمشيهو ديك بيتو أب جليداً لــــين
. . . . . . الخ

تحدث الهمباته أيضاً عن فئة أخرى من الناس ، وكانوا يطلقون عليهم « البلايس » ومفردها « بلاسى » وهو الجاسوس والمخبر الأجير . وقد كان هؤلاء يشكلون صداعاً دائماً للهمباته لأنهم يوشون بهم لدى أصحاب الإبل أو الساطة . ولذلك فقد عاب عليهم الهمباته هذا المسلك وهجوهم فى شعرهم :—

البِل جفَلن (١) على أبُو فَاسْ (٢)
ما بجيبهِن (٣) ودْ بِمَة وما يجيبهِن البَلاّسْ
حِسْ رَصاصْهِن بِكَى زَىْ صَبّة أم هَرْماسْ (٤)
ما بترضى لنَا بى جَيبَة السُرُوج يبَّاسْ

ولعلم الهمباته بخطورة هذا النوع من الناس على جماعتهم فقد تناصحوا وتواصوا بتفادى الطرق المؤدية إلى ديارهم :—

الوَلَد البِدُور يِسُوق أم رَاسْ (٥)
يِصنْدْ (٦) بى الخلاء ويحارب ردَّة (٧) البَلاّس
أمَّنْ جَابْ مالاً فَرَح أم خرَاسْ (٨)

١ — جفل : نفر وشرد .
٢ — ابو فاس : مكان بعينه فى كردفان
٣ — جاب الشىء : أتى به .
٤ — صب الماء : سكبه . وام هرماس فى غرب كردفان تعنى الأمطار الغزيرة .
٥ — ام راس : الناقه
٦ — يصندد : يضرب فى الخلاء.
٧ — الرده : الرد وهو الملجأ والمأوى والناحية .
٨ — خراس جمع خرس : حلقة الذهب والفضه للزينه ويقولون فى جمعها أيضا « خروس » وام خراس كناية عن المرأة التى تتزين بها

أما أبْ صَلعَة (١) جاجَى (٢) فُوق ضَلاّعُو وُ حَاسْ

وهؤلاء كانوا معروفين للهمباته بأسمائهم ومعروفة ديارهم كذلك :—

قام مِنْ دَار بَرْتِى (٣) وأتوَجّه المَزْرُوبْ (٤)
سَريع فُوق خَبّو (٥) أبْ سَاقاً تقُول مَصْبُوبْ (٦)
دُوَماتَك جَدْولاَ حَاكَن الشُـــبُوبْ (٧)
سُوق لىَ يمينَاً ولا تحدَّرنا (٨) فُوق يَا قُوبْ (٩)

(٥) ذكر الأســــلحة :—

يعتمد الهمباتى فى حياته على قوة نفسه وجسده، وقوة سلاحه . فاذا تحدث عن العنصر الاول فى نجاحه ، فلابد أنه ذاكر الثانى لهذا النجاح وهو السلاح . حيث أن القوة والشجاعة لايكفيان لتحقيق النصر وتامين الكسب . أما سلاحهم فهو سلاح عرب البادية وسلاح اهل السودان عموما المكون من السيوف والفؤوس والدرق وبعض أنواع الأسلحة النارية . وأكثر أنواع الأسلحة ورودا فى شعر الهمباته هى : السيف والدرقه (١٠) وضروب من السلاح النارى. أما السيف فانهم يكنون عنه بألفاظ منها « القداد » ، و « الهارى » ، و « الحاد » ويكنون عن الدرقه بـ « الصايمه » ، أما أنواع الأسلحة النارية فقد ورد منها فى شعرهم « أب جقره » و « القربين » و « اب خمسه » و اب سته و « اب عشره » . وقد جمع أحد شعرائهم كل هذه الأنواع من السلاح فى قولــه :—

بعد اب جقره والهارى البياكل الصايمه

١ — اب صلعه : صقر الرمه ويسمونه كذلك لخلو مقدم رأسه من الشعر .
٢ — جاجى هى جاجى : أى تحرك كثيرا وفى « جاجى » تعبير صوتى لأن الصقر يحدث مع تحركه صوتا يشبه نطق الفعل « جاجى » (١١) حاس : تحرك .
٣و٤ — : دار برتى والمزروب أماكن فى كردفان .
٥ — الخب : نوع من المشى وفيه مراوحه بين اليدين والرجلين
٦ — صب المعدن : مزجه وهو سائل على شكل معين
٧ — الاشبوب : الشؤبوب من المطر
٨ — حدر واتحدر : نزل وهبط
٩ — ياقوب : هكذا ينطقونها فى غرب السودان ويقصدون يعقوب.
١٠ — الدرقــه : المجن .

حققناها ياأخوى العبوس مى دايمه (١)

. . . . الخ

على أن الهمباتى يذكر هذه الأسلحة مفتخرا بحيازته لها ومعتزا بمصاحبتها له ، مكتفيا بالاشارة اليها دون تفصيل . فليس فى شعرهم وصف دقيق لهذه الأسلحة من لونها وشكلها أو طريقة صنعها . وهذا يرجع الى أنه يهتم فقط بما تفعله فى أعدائه فالذى يهمه هو أصالتها واطاعتها له حين يدلهم الأمر وتشتد به الحاجة اليها . وهـذا يرجع أيضا لطبيعة حياتهم التى ليس فيها مجال للوقوف والتأمل :ـ

جَبَدُوهِين (٢) كُرَّهْ شَدَوهِين الْبُتَّـاعْ (٣)
وْ دَرَعُوا الْبَازَة (٤) قَبَضُوا أم سِتَه (٥) والْقَطَّاعْ (٦)
فى بالُن بَعِيد الْقُود (٧) طُوَّال الْبَـاعْ
أَلْفَرَّن (٨) تمام ما إتْراوَحَن (٩) جُمَّاعْ (١٠)

(٦) علاقتهم بالسـلطة :ـ

تنوع الحديث عن السلطة فى شعر الهمباته . فهى أحياناً رجل الأمن الذى يكلـف بالقبض عليهم ، وهى أحياناً العمد والنظار الذين يمثلون أمامهم للمحاكمة ، وهى أخيرا مآمير السجون الذين يتولون أمرهم فى السجن . وقد صور الهمباته كل ذلك فى شعرهم . والنغمة السائدة فى الشعر الذى يتحدث عن علاقتهم بالسلطة هى الإستخفاف والتحدى واللا مبالاه فى حالة المواجهة حين تصبح واقعاً لا مفر منه . ولكنها قبل ذلك تفادى هذه

---

١ – لبقية الشعر أنظر « الشعر القومى فى السودان » ص ٢١٧ .
٢ – جبدوهن : الضمير لجمال الركوب . وجبد بمعنى قاد وساق .
٣ – البتاع : من بتع : اشتد عنقه أو مفاصله فهو أبتع .
٤ – البـازه : الدرقـه .
٥ – أم ستـه : نوع من السلاح النارى .
٦ – القطاع ويقولون الكطاع أيضا : السيف .
٧ – القـود : الإبـل .
٨ – الفـرن : فر هنا بمعنى خرج للمرعى .
٩ – اتـراوح : رجـع .
١٠ – جمـاع : مجتمعات ويعنى هنا ان الابل لم يرجعن كاملات كما خرجن .

المواجهة . ولذلك جاء شعرهم مصوراً لمواقفهم مع كل فئة من هذه الفئات التى تمثـل السـلطة :ـ

ألبلد اللبوك عمدو وجفـوك نظـارو (١)
ليه المتلنـا بقـدل ويحـوم فـى ديـارو
النلوى حكارى فى العند مشيهو حاكى عصارو
منو البانينا غير المولى واسـعه ديـارو ؟

« فالهمباتى ذو طبيعة منطلقة يعكس شعرهم أنهم قوم محبون للانطلاق والحرية كما يعكس حياة الرفض المتبادلة بينهم وبين الحكام » (٢) فهم يرفضون هذه السلطة ويتحدونها فى قوة وشـجاعة –

أَلْوَلَد أَلْبِطْرَهُ الْقِسْمه صعِيد كَسَمُور (٣)
بِكَاوش (٤) فى الْبُكار (٥) بى خَلاء وعتمُورْ (٦)
مِد لَيهِين الدَّنَيدر (٧) . . . . . الْمَذْكُورْ
ما خَصَّانا فى العُمَد ألْمعَا أبو النُّورْ (٨)

ويحكى شعرهم كذلك مواجهتهم مع رجال الأمن واصطدامهم بهم ، ويفخرون بصمودهم أمامهم وصدهم لهم –

كبَسَنُّوا البَحَر وْ مِشَلْهبات يبَاسْ
والغُول نَوَى بى الهرْمَة وْرَدَف عَبّاسْ
ألنّادْرَة ألْطّلع عُنْوانها مَالُو قيـاسْ
صَدُّوا قَمَاحَة نَاس قَنْبُور مَع الْقَصّاصْ

---

١ – راجع الشعر القومى فى السودان» ص.٢١٣ .
٢ – الشعر القومى فى السودان ص ٢١٣ .
٣ – كسمور : مكان بعينه.
٤ – كاوش : بمعنى هجم وحاول القبض .
٥ – بكار. : جمع بكره وهى الصغيرة من الابل.
٦ – عتمـور : صحراء جمعها عتامير .
٧ – الدنيدر : تصغير الدندر ويعنى منطقة نهر الدندر .
٨ – أبو النور : ناظر الكواهلة .

أما الفئة الثالثة التى صور شعر الهمباته علاقتهم بها فهى فئة مآمير السجون . فقد صوروا مقابلاتهم معهم ، وكانت هذه المقابلات تظهرهم بمظهر الأقوياء الذين لا تلين لهم قناة ولا تنهار لهم قوة أو إرادة ولا تنكسر لهم شوكة . وهم حين يقفون مثل هذه المواقف إنما يقفونها لإعتقادهم الجازم بأن هدفهم أكبر من كل صنوف العقاب :–

ما تْنترنِى يا قيطنْى السجن مُو حاَجــة
بيِشّ نَرضيهاَ غير ألْبِل جَدايْة البَاجَة

وكان لعلاقة الهمباته بالسلطة ومن يمثلونها وجه آخر . فهم لم يكونوا دائماً يفلتون من قبضة القانون . ففى بعض الأحيان يتغلب عليهم رجال الأمن حيث يؤخذون لينفذ فيهم حكم القانون – وهو السجن فى معظم الحالات . ولكن رغم ذلك لم يكونوا يبدون ما يدل على أنهم سوف يقلعون عما هم فيه . بل إنهم ليذكرون صراحة أن كل أنـواع العقاب لن تثنيهم عن هذا الأسلوب الذى إختاروه فى الحياة :–

ألليْلَة البرق مِنْ عَصرو عمت (١) الفيجَة (٢)
ما فى مَضَارى (٣) غير قِرة (٤) وصَقيعَة (٥) ولْجة (٦)
فى شأنْ (٧) الزّنازين (٨) والسُّجون والحجّة (٩)
ما بِنخلى يا الصّدّيق (١٠) مرَابيت (١١) قجّة (١٢)

ويبلغ إستهتارهم بالسجن حداً يصرحون معه بأن الذى يهمهم ليس هو السجن

---

١ – عمت : غطى .
٢ – الفجــة : الفرجة فى لغتنا ويقصد بها هنا المكان .
٣ – مضارى : جمع ضري وهى من ضارى : أخفى وستر وتضارى استتر .
٤ – قــره : البرد .
٥ – صقيعة : الفضاء والخلا.
٦ – لجــة : اللجة : معظم الماء . ويقصد بها هنا الظلام .
٧ – فى شــأن : فى شأن أى من اجل ويسبب .
٨ – الزنازين : جمع زنزانه : حجرة السجن.
٩ – الحجــة : كثرة الكلام .
١٠ – الصديق : أحد رفاقه ولعله الصديق ود التركاوى البطحانى
١١ – مرابيت : جمع مريبيت وهى الناقة .
١٢ – قجــة : القجة شعر الناصية يطول – ويكنى بها عند الهدندوة لانهم يتركون شعرهم يطول .

والمشاق التى تقابلهم فيه ، إنما الذى يهمهم هو فراق محبوباتهم أو صديقاتهم من الغوانى :

ظَبْط النّمره (١) والبَاب العلىْ قَافْـلِنُو
مُشْ هِمية (٢) يا ربِّى العقَاب (٣) كيفِنُو (٤)
ألزُول أبْ قيرِيناً (٥) بىَ الحمَر (٦) لا فحِنُّو (٧)
وَجّتْ (٨) نَارى مِنْ زُولاً مِطوّل مِنُّو

(٧) الحيـــاة المضطربــة :–

كان القلق وعدم الإستقرار النفسى والمكانى هى السمات المميزة لحياة الهمباتــه . وكان لابد لشعرهم أن يعكس هذا الإضطراب وإنعدام الطمأنينة . وكان الإضطراب فى حياتهم ذا شقين : الإضطراب النفسى من ناحية ، وعدم الإستقرار المكانى من الناحيــة الأخرى . وقد جاء شعرهم حاوياً للصورتين .

أما الإضطراب النفسى فيتمثل فى أنهم يعيشون لحظات من النعيم سرعان ما تنقضى فيحزمون أمرهم ويعتلون ظهور جمالهم من جديد متعرضين لمخاطر الطريق ، يستبد بهم الظمأ أحياناً ويمتص الجوع إمعاءهم أحياناً أخرى ، وتلهب الريح المحرقة أجسادهم فى مرات كثـيرة :–

يوماً فى بســط عند المقـــم نومنــا
ويوم نضارى من لفح السموم بى هدومنــا
.......الخ

وفى حالات أخرى تقتلهم الحيرة وتشتد بهم الحاجة إلى بعير يسافرون عليــه ،

---

١ – النمره : الرقم والعدد .
٢ – مش همية : ليس مهما .
٣ – العقاب : البقية ، ماتخلف من الناس والأشياء
٤ – كيفينو : أى كيف هو ؟
٥ – قرين : تصغير قرن : الشعر فى مقدمة الرأس المرأة أو الشعر عامة .
٦ – الحمر : أخلاط من العطر تعجن ببعضها وتترك حتى تختمر وتتكون من مسحوق الصندل والمحلب والزباد والمسك والقرنفل والضفرة .
٧ – لا فحنو : اللفحة : الزكام . ولا فحنو أى صبوا عليه العطر المذكور .
٨ – وج العطر : انتشر وفاح . والنار تأجت والنار وجاجة .

ثم ينهمر الخير عليهم فجأة فيعودون للهوهم وطربهم ويغرقون فى بحور النعيم ، ولكنه نعيم سرعان ما ينقضى فيعودون إلى سيرتهم الأولى :—

يُوم فى سُولا (١) مِتحير ركُوبتِي حمَار
وْ يُوم مِتَعلى فوق كيك (٢) ألمدَا (٣) أبْ فقَارْ (٤)
لِيلَة بدَيِر (٥) أم برْطُوم (٦) يمين وْ يِسَارْ
ليلة بَبِسِّط الزينات (٧) بَنَـــات الدّارْ (٨)

فليس هناك يوم كالذى مضى ولا ليلة كالتى إنقضت ، ومذاق هذا اليوم غير مذاق الأمس والغد ، وطعم هذه الليلة ليس كطعم التى مضت أو التى تلى . تناقض فى الحياة بين اليوم والأمس تنعكس آثاره على النفس . ولكنها الحياة التى إرتضوها لأنفســـهم :—

يُوم مجنَّبين (٩) ماسكين نَقيب (١٠) الهو (١١)
يُوم فى ليلة يابسْين فُوق سُروجن كـــوْ (١٢)
مبرُومة الحشَا (١٣) الميهَا التخينَة أم بَوْ (١٤)
يُوم بنْجِيها نازْلِين زَىْ صُقُور ألجوْ (١٥)

١ – سولا : لعله اسم مكان .
٢ – كيـــك : الجمل القوى .
٣ – المـــدا : لعلها من مد أى ذهب ومشى – وتكون بمعنى السفر .
٤ – الفقـــرة : قفا الرقبة وجمعها فقار وفقرات .
٥ – بدير : من دار وأدار .
٦ – ام برطوم : البراتم : الشفاه . وام برطوم المرأة .
٧ – الزينات : جمع زينه : وهى من زين الشىء اذا حسنه ويقول الشىء زينه أى جميل .
٨ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥٨.
٩ – جنب : قوى (١٠) نقيب : الطريق فى الجبل
١١ – الهو : الخلاء
١٢ – كو : كلمة صوتية تدل على القوة والجفاف والنشاف .
١٣ – مبرومة الحشا : كناية عن ضمور الخصر .
١٤ – بو : الرجل البو الفارغ . والبو فى الاصل ولد الناقه أو جلد الحوار يحشى تبنا أو غيره فيقرب من ام الفصيل فتخدع وتعطف عليه فتدر .
١٥ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥٨ .

ومن الناحية الأخرى ، كان الهمباته جوابين للافاق لايستقرون فى مكان . فيوما فى « جبره » ، واليوم الآخر فى القاش ، واليوم الثالث فى « جبل سقدى يخططون لغزوة جديدة :

شَدّوَهين مع اللوْكَاتْ (١)
عَقَدُوا ألشّوَرهْ من سَقَدى (٢) وْخَبيرُهُم (٣) فَاتْ
ألْخَبَر الوَقَع هَجّ (٤) المدِيريَاتْ .
أبَوك يا الزَينَهْ ركُازَة (٥) التَقيلَهْ انْ جَاتْ

واذا خاب فألهم فى « سقدى » ، سرعان ما يشدون الرحال الى غيرها من البلاد ، رحيل دائم ، وما مكان فيه ابل ، الا وطأته أقدامهم :

شَقّينا (٦) البَلَدَ لىَ الدالِى والمَزْمُومْ (٧)
عِرفْنا الواقْعَة (٨) يا السّاحر مِتَين بِتْقــوم
سِنَات (الودوب) والقُرقُد (٩) المزْدومْ
على بْليَد نَامَة (١٠) مَوعْود بى السّفر لا تْنُوم

إن هذه الحياة المضطربة التى يشوبها القلق قد جعلت الهمباته يشعرون شعوراً عميقاً بأنها حياة لاحظ لها من الطول ، وأن الموت يترصدهم ويتعقبهم فى كل لحظة وحين . ولكنهم كانوا يخففون وطأة هذا الشعور القاتم بقرب النهاية بالإعتقاد بأن لكل إنســـان أجل مكتوب ، وأن الله وحده هو المتحكم فى المصائر . ونتيجة لهذا الشعور الـــذى

١ – اللوكات : الأوقات ويقصد فى الصباح الباكر .
٢ – سقدى : جبل بين مدينتى سنار وكوستى
٣ – خبيرهم : الخبير : الدليل
٤ – هج : هجج أى أثار وهيج .
٥ – ركازه وركيزه : عمود من بناء يرتكز وتستند عليه بقية الأشياء .
٦ – شقينا : من شق الطريق اذا قطعه .
٧ – الدالى والمزموم : أماكن جهة سنجه .
٨ – الواقعه : المصادمه فى الحرب .
٩ – القرقد : الشعر المجعد ، والشعر عامه .
١٠ – نامه : احدى الغوانى .

الذى سيطر على نفوسهم ، فقد كثر الحديث عن الموت فى شعرهم :-

الرِّبِح ليهَا خَالِق بَابَا مُو مَكْتُــوم (١)
الرُّوح ما بْتَفَارْق ألجِتة (٢) غير اليُــومَ

الخلاصــــة :-

لقد صور شعر الهمباته كل ما يتصل بحياتهم . فتحدث عن الدوافع وراء إنتهاجهم لهذا الأسلوب فى الحياة ، وعلل لعملهم هذا تعليلا لا يترك مجالا لسؤال . ثم أنهم - ومن خلال هذا الشعر - طرحوا آراءهم والأسس الفلسفية لمذهبهم . كما بسطوا آراءهم فى غيرهم ممن لم ينتهجوا نهجهم فى الحياة فهجوهم وسخروا منهم ومن خمولهم وبقائهم فى « البيوت » ووصفوهم بالجبن والخور وضعف العزيمة. كما جاء شعرهم حافلاً بصنوف التوعد والتهديد لأصحاب الإبل التى هى مرام نفوسهم وهدفهم المقصود . وتحدثوا كذلك عن رفاقهم وعددوا الصفات الحميدة التى يتحلون بها ونعتوهم بالشجاعة والصرامة . وصوروا مظاهر الوفاء فى مجتمعهم . وذكروا فى شعرهم أنواع الأسلحة التى يستخدمونها فى عملهم هذا ، والتى هى النوة الثانية التى يعتمدون عليها فى مقابلة الشدائد ومواجهة الخطر بعد قوة النفس والجسد. وحفل شعرهم بالحديث عن علاقتهم بالسلطة وموقفهم منها بالتفادى أو بالمواجهة والتحدى والسخرية والإستخفاف . وصور شعرهم بجانب ذلك حياتهم المضطربة التى لا تستقر على حال . وجوبهم الآفاق وتشردهم فى الخلاء وراء الغنيمة أو « الرزق » كما يسمونه . كل ذلك صوره الهمباته فى شعرهم وتحدثوا عنه . فكان شعرهم بذلك هو المرآة التى إنعكست على صفحتها صورة حياتهم بكل ظلالها وخطوطها وأبعادها .

(٢) الظواهر الفنية والموضوعية :-

(١) البنـاء الفـنى :-

إن شعر الهمباته هو من نـوع الشعر الشعبى المعروف فى السودان بـ « الدوبيت ». وهذه الكلمة ، دوبيت » مركبة من « دو » وتعنى بالفارسية (إثنان) و « بيت » العربية . وبذلك يكون معناها (البيتان) . فالدوبيت - كما يقول الدكتور عبد المجيد عابديـن ،

١ - مكتـوم : الكتمه ، شدة الحر .
٢ - الجثـه : الجثه وهى جسم الانسان

هو فى الأصل وزن فارسى إستعاره بعض شعراء العصر العباسى ونظموا فيه (١) . ويمضى فيقول بأنه لا توجد صلة بين وزن الدوبيت الفارسى هذا ، وبين وزن الدوبيت السودانى . وهو يصف وزن الدوبيت البدوى السودانى بأنه رجز عربى قديم يختلط أحياناً بـوزن الكامل ، ويسبق تفصيلات كل شطر مقطع زائد أو مقطعـان (٢) . وهـذه الزيادة فى الوزن تعرف بـ « الخزم » .

والدوبيت السودانى ينقسم إلى رباعيات تتألف كل رباعية من أربعة أشطار تتفق فى القافية . وهذه الأشطار الأربعة تؤلف بيتين . ومن هنا كان التأثر الفارسى فى القافية أوضح منه فى الوزن بالنسبة للدوبيت السودانى . إذ أن هذه الخصائص تصدق على معنى « الدوبيت » وهذا يعنى أن لفظ الدوبيت ينطبق على نظام التقفية وتجمع أبيات المنظومه فى رباعيات . ولكنه لا ينطبق على جوهر الوزن ، إذ أن الوزن - كمـا قلنا - ليس إلا رجزاً عربياً » (٣) .

ويبدو أن هذا الإختلاف فى جوهر الوزن بين الدوبيت السودانى والدوبيت الفارسى أوجد الفرصة للوقوف عند التسمية نفسها . وفى هذا يرى الطيب محمد الطيب أن « كلمة الدوبيت أشاعها المتعلمون الذى قرأوا تاريخ الأدب العربى . أشاعوها من خلال كتاباتهم ومن الراديو ومن المنابر العامة » (٤) . ويعطى هذا الضرب من الفن أسماً غير الدوبيت فيسميه « المربع » . ويقول : « يطلـق إصطلاح الدوبيت عنـد المجموعات المستقرة فى السودان على ما تعنيه بالمربع » (٥) ويمضى فيقرر بأن « . . . . . . أهل هذا الفن من البوادى والأرياف فلا يعرفون كلمة دوبيت . . . وربما أسموا هذا المربع « تجاوزا » (الدوباى) وهى تسمية أقرب إلى المعنى من الدوبيت » (٦) .

التشطيـــر :-

يتألف الدوبيت السودانى من حيث شكله البنائى من أربع شطرات تتفق فى القافية.

١ - عبد المجيد عابدين من الأدب الشعبى فى السودان ، الدار السودانية ، بلا تاريخ ص ١٧
٢ - المبارك ابراهيم وعبد المجيد عابدين ، الحردلو شاعر البطانة ١٩٥٨ ص ١٩ .
٣ - من الأدب الشعبى فى السودان ، ص ١٩ .
٤ - الطيب محمد الطيب ، دوباى ، مصلحة الثقافة ، بلا تاريخ ، ص ٢٢ .
٥ - نفس المصدر ص ٢١٣ (٦) نفس المصدر ص ٢١٣ .

هذه هي الصورة الغالبة، ولكن ليس هذا هو الحال دائماً، ففى بعض الحالات يأتى الدوبيت مكوناً من ثلاث شطرات . وفى ذلك يقول الدكتور سيد حامد حريز : « ومن النادر أن نجد دوبيتاً ثلاثياً » . ويمضى فيقول : « ويلازم الدوبيت الثلاثى إحساس بالتقصير فى الوزن والبناء الفنى » (١) . ويسمى هذا الدوبيت الذى يجيء على شكل ثلاث شطرات دوبيتاً أعرجاً . وقد تميزت بهذا الضرب من الدوبيت بعض مناطق السودان دون غيرها . يقول الدكتور عز الدين إسماعيل مشيراً إلى ذلك : « هذا الضرب تتميز به كردفان ودارفور فى أكثر الحالات ، على أننا نجد نماذج لهذا الدوبيت الأعرج لدى الشايقية فى شمال السودان » (٢) .

كما أن الدوبيت يرد فى أربع شطرات فى الغالب ، وفى ثلاث شطرات أحياناً ، فانه من النادر أن يرد فى خمس شطرات .

المسـدار (٣) :–

نظم الشعراء الشعبيون فى السودان قصائد من الدوبيت فى أغراض محددة . وقد عرفت هذه القصائد بـ « المسادير » وواحدها « مسدار » . والمسدار عبارة عن قصيدة تتألف من عدد من الرباعيات التى قد تختلف فى القافية .

هذا وقد تعرض عدد من الباحثين والمهتمين بدراسة الشعر الشعبى واللغة العامية فى السودان لشرح لفظ « مسدار » ودلالته فى مجال الشعر الشعبى . فقد جاء فى « قاموس اللهجة العامية فى السودان » ، أن : « المسدار فى البطانة بالسودان هو مكان الرعى أو الجهة التى تتوجه اليها البهائم . ومن هذا أخذوا إصطلاح المسدار فى الشعر خاصة عند الحاردلو الشاعر القومى حين يتحدث عن مسدار الصيد وغيره فهو يتناول الرحلة ومراحلها بالوصف والتصوير » (٤) . ويضيف القاموس إلى ذلك أن المسدار قد تعنى القصيدة من حيث هى . وهذا يعنى أن لفظ « مسدار » يعنى فى الإصطلاح الشعرى تناول الرحلة ومراحلها بالوصف والتصوير .

١ – د . سيد حامد حريز ، فن المسدار ، دار التأليف والترجمة والنشر ، جامعة الخرطوم ١٩٧٦ ص ٤٤ .
٢ – الشعر القومى فى السودان ص ١٤ .
٣ – للمزيد عن معنى ونشأة وتركيب المسدار الفنى راجع « فن المسدار » .
٤ – قاموس اللهجة العامية فى السودان ص ٣٤٣ .

وجاء فى كتاب «الحاردلو شاعر البطانة» عن معنى المسدار ما يلى : « ولفظ مسدار فى اللهجة السودانية معناه الحكاية أو القصة ، وهو من الفعل سدر مقلوب (ســرد) العربية » (١) . وقد تصدى الدكتور عز الدين إسماعيل لهذا المعنى وأبدى إعتراضه عليه . فقد ذكر أن لفظ سدر يرتبط بمعنى السير والإيغال فى الطريق . ويرى أنه لكى تأخذ كلمة المسدار معنى الحكاية فأنه يلزم أن تكون مقلوب مسراد، وليست هناك كلمة بهذا الشكل . ويرجح أن تكون كلمة المسدار مشتقة من (سدر) بمعناها المعروف « أى ذهب لا يلتفت » . ويصل الدكتور عز الدين إسماعيل بالمناقشة إلى قوله : « نخلص من كل هذا إلى أن المسدار هو تصوير لرحلة عبر المكان أو الزمان أو عبر المكان والزمان معـاً » (٢) .

أما الدكتور سيد حامد حريز فيقدم دراسة لفن المسدار مدعمة بنماذج من المسادير . وفى هذه الدراسة يتعرض لمعنى المسدار ونشأته وتطوره وأسلوبه الفنى وعلاقة المسدار بالشعر العربى القديم وغير ذلك من المواضيع المتصلة بهذا الفن من الشعر الشعبى . ويهمنا هنا ما ذكره عن معنى المسدار وشكله . فهو يذكر أن « المسدار » (وجمعه مسادير) يمثل نوعاً معيناً من القصائد الشعبية التى تسير على نمط الرجز الرباعى ، وتعنى بسرد ومتابعة رحلة الشاعر إلى ديار محبوبته أو إحدى صديقاته من الغوانى (٣) . وهذه الرحلة إما زمانية وإما مكانية . وفى حالة الرحلة المكانية يكون معنى « المسدار » ذهب لا يلتفت فى طريقه نحو محبوبته » . وفى حالة الرحلة الزمانية يكون بمعنى « أوغل فى الحب فهو لا يلتفت عنه رغم تعاقب الفصول والأنواء » .

وذكر الطيب محمد الطيب أن « المسدار فن قائم بذاته ووحدته هى القصيدة ذات النفس الطويل التى تحكى تجربة متكاملة » ويمضى فيقول : « . . . . . وهو تطور للشعر المربع (يعنى الدوبيت) لأن الهيكل البنائى للمسدار يتكون من تلك المربعات التى تتحدث عنهـا » (٤) .

١ – الحاردلو شاعر البطانة ص ٢٠ .
٢ – الشعر القومى فى السودان ص ٦٥ .
٣ – فن المسدار ص ٢٤ .
٤ – دوباى ص ٢١٦ .

نخلص من كل ذلك إلى أن « المسدار » هو قصيدة تتألف من عدد من المربعات وتعنى بسرد رحلة الشاعر إلى ديار محبوبته . وهذه القصيدة لها هيكل وبناء معهود يرسم الدكتور سيد حامد حريز صورته كما يلى :ـ

أـ الإستعداد لرحلة الحب وتهيئة الجمل وصاحبه لها .

ب ـ بداية الرحلة .

ج ـ وصف الطريق لديار المحبوب ويتخلل ذلك وصف الشاعر لهذا الحبيب ووصف للجمل الذى يجمع المحبين .

د ـ تباشير القرب من ديار الحبيب .

هـ ـ الوصول والإستقبال .

و ـ ما بعد الوصول من تمتع المحبين باللقاء وبأنس الهجوع .

ويعلق الدكتور حريز على هذا التركيب للمسدار بقوله : « يختلف هذا التركيب والبناء إختلافاً طفيفاً من مسدار لآخر . فمثلا قد تبدأ بعض المسادير بالرحلة مباشرة من غير إهتمام بوصف الإستعداد لها . كذلك قد تنتهى بعض المسادير بمجرد الوصول إلى ديار الحبيب . إلا أن المسادير ـ فى الغالب الأعم ـ تحافظ على هذا التركيب » (١) .

شعر الهمباته :ـ

قلنا أن الدوبيت هو القالب الذى نظم فيه الهمباته شعرهم . ولذلك فان ما يقال عن الدوبيت من حيث بنائه الفنى ونظام تشطيره ينطبق تماماً على هذا الشعر . فهو فى الغالب يتكون من أربع شطرات ، ولكنه فى نفس الوقت ، لا يخلو من الدوبيت الثلاثى والخماسى . والنصوص التى بين أيدينا ترينا أن شعر الهمباته يرد فى معظم الأحيان فى أربع شطرات . وهذه هى الصورة الأساسية لشعر الهمباته فى منطقة البطانة . أما فى منطقة كردفان فهناك القليل جداً من شعر الهمباته الذى يرد فى ثلاث شطرات . هذا وقد ذكر محمد أحمد إبراهيم وهو يتحدث عن الدوبيت لدى حمر أن الغالب فيه كونه مؤلفاً من أربع شطرات وأحياناً يكون من ثلاثة وفى حالات قليلة يكون من خمس شطرات (١) . وقد لاحظ أنه فى حالة الغناء يتكرر الشطر الثانى من الدوبيت الثلاثى .

١ ـ فن المسدار ص ٥١ .

٢ ـ محمد احمد ابراهيم ، ملامح من التراث الشعبى لقبيلة حمر ، شعبة ابحاث السودان ١٩٧١م ص١٣٥ .

وهذا يدعم ما ذكر من أن الدوبيت الثلاثى يصاحبه إحساس بالتقصير فى البناء الفنى وبسبب ذلك يسمى أعرجاً .

(٢) المسادير فى شعرهم :ـ

إن المسدار بالصورة التى عرفناه بها له وجود فى شعر الهمباته.ولكن هذا النوع من القصائد قليل فى شعرهم . ولابد أن نشير هنا الى أننا نتحدث من واقع النصوص التى بين أيدينا ولعل أصدق مثال نسوقه هنا ، لتأكيد أن المسدار لا يشكل إلا نذراً يسيراً من شعر الهمباته ، هو الطيب ود ضحوية . فالطيب ود ضحوية من أكثر الهمباته شعراً ، وشعره وحده يشكل ديواناً قائماً بذاته . ومع ذلك لم يرو له إلا مسدار واحد . وطه الضرير الذى روى شعره بنفسه ، لم يرو منه من المسادير سوى إثنين : يتكون أحدهما من ست رباعيات وشطرتين ، ويتكون الثانى من ثلاث رباعيات وشطرتين . والواقع أن هذين المسدارين لا يحويان خصائص المسدار التى سبق الحديث عنها . فهما لا يصوران رحلة إلى ديار المحبوب ، وبناؤهما ليس هو البناء المعهود للمسادير . ولذلك يصعب إعتبارهما من « المسادير » . ولعبد الله ود المتقدم . من همباتة الكواهلة أيضاً مسداران يشتملان على كل خصائص المسدار الفنية ومعناه . يضاف إلى هذا ما ذكره الدكتور سيد حامد حريز من أن يوسف ود عب شبيش من شعراء المسادير (١) . وهو من همباته الشكرية المشهورين . وهذه تشكل جملة ما لدينا من مسادير الهمباته . وقياساً بمجمل النصوص التى بين أيدينا لشعراء الهمباته . فأنها لا تشكل إلا قدراً ضئيلا . إذن فما هو سبب ندرة المسادير فى شعرهم ؟ .

إن السبب فى ذلك يرجع ـ فى نظرنا ـ إلى نوع الحياة التى يحيونها . فكما ذكرنا آنفاً كان الهمباته يعيشون حياة مشوبة بالقلق والإضطراب . وهذا النوع من الحياة غير المستقرة على حال ، لا يتناسب مع التطويل والتنسيق . ولذلك جاء شعرهم فى شكل رباعيات تعبر تعبيراً خاطفاً عن مكنون نفوسهم ، وتطرح قضيتهم فى الحياة بالصورة المبسطة والتعبير المباشر . فالواحد منهم يسوق الأسباب لإشتغاله بالهمبته . وعندما يخرج ينشغل بوصف ما يلاقيه فى الطريق نحو الهدف . وخلال ذلك كله يكون مشغولا بكيفية الحصول على الإبل ، وعندما يغنم يشغله التفكير فى طريقه خلاص هذا المغنم وتأمينه

١ ـ فن المسدار ص ٢٤ .

سيما وهو يعلم أن أصحاب الإبل يتعقبونه ويقتفون أثره . وهذا الشعور بالخطر هو السمة المميزة لهذه الحياة السريعة الدوران فهى تبدأ بتجمع الأسباب والرحلة نحو الهدف وتنتهى فى مجالس الطرب واللهو لتبدأ من جديد . فحين ينفد ما لدى الهمباتى من المال يبدأ الأعداد لغزوة جديدة . ويستمر فى هذه الدوامة إلى أن يقعده عنها تقدم العمر أو الموت . فهذه الحياة القلقة المشغولة بالكفاح لا تترك مجالا للشاعر الهمباتى للتطويل ، إنما الذى يتلاءم مع طبيعتها هو الرباعيات التى يعبر الشاعر عن طريقها عن كل ما يتصل بحياته على نحو مـا رأينـــا .

(٣) الظواهـــر اللغـــوية :-

أ- تمثل لغة شعر الهمباته لغة البادية العربية فى السودان بكل خصائصها ومميزاتها وهذه الخاصية أعطت هذا الشعر وزنة خاصة فى مجال الدراسات اللغوية . ولعل ذلك يتجلى بصورة واضحة فى « قاموس اللهجة العامية فى السودان » . فقد إعتمد إعتمـاداً كبيراً على شعر الهمباته فى الدلالة على إستعمالات الألفاظ وشرح معانيها . ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن مؤلف القاموس قد أورد ما يقرب من المائتى شاهد من شعر الهمباتـه . وكلها كانت ترد مسبوقة بعبارة « قال الهنباتى » . إلا ما نسب منها للمشهورين منهم كالطيب ود ضحوية وطه الضرير . وهذا يؤكد قيمة هذا الشعر فى حقل دراسة معنى وخصائص اللغة العامية فى السودان .

ب- يضاف إلى ما سبق أن شعر الهمباته يشكل فى معظم الأحيان قاموساً قائماً بذاته . فهناك بعض الكلمات التى يكون لها بجانب الإستعمال العام إستعمالا خاصاً فـى مجتمع الهمبته لا يفطن اليه إلا من عرف خصائص ذلك المجتمع ومقوماته واللغة أحداها. وهذه الخاصية تعطى صفتهم الجماعية بعداً آخر يضاف إلى ما سبق أن ذكرناه من تميز مجتمعهم بتقاليد ونظم وقيم خاصة به . والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة . ولكنا نتعرض هنا لأكثر الألفاظ دوراناً فى شعرهم .

يقول الطيب ود ضحوية مخاطباً رفيقه طه الضرير وقد ادركهما« الفزغ « :-

زَمَنَكْ كُلُّوُ تَاكُل بَارْدَةْ ما ضُقْ حَارَةْ

. . . . الخ

و يرد عليه طه الضرير بقوله :-

زَمَنِي كُلُّوُ باكُل حَارَة ما ضُقْ بارْدَة ماكْ دَارِيني ؟

. . . . الخ

فلفظ « باردة » فى الإستعمال العام هو من الفعل « برد » أى صار بارداً . ولفظ « حارة » يعنى فى الإستعمال العام عكس « باردة » أى من « حر » صار حاراً . ولكن إستعمالهما هنا فى غير هذين المعنيين . فالباردة عندهم هى الكسب الذى لا يسبقه قتال . والحـارة هى الكسب الذى يكون بعد قتال . وفى شعر آخر يقول أحدهم :-

ألنَيلَة أم هِلال (١) أمسَت سَرَاتِك (٢) تَارّة (٣)

أسيَادك سَوَاويق لىَ الرّدوف (٤) ألدَارَة (٥)

إنْ بَرَدَن نَكَافِيبن سَوالف السَارَة (٦)

وإنْ حَرّن صَنَاديداً نَقَابْل الحـــارَة

والشاهد فى قوله « سوالف السارة » فالسوالف جمع سالف » . والسالف فى الإستعمال العام هو ما تقدم من مودة وعرف وإحسان . ولكنه فى مجتمع الهمبته ضرب من التعاون بينهم على نحو ما أوضحناه فى حديثنا عن نظم الهمبته . وقد رأينا كيف أن المرأة مـن « ستات المجالس » يمكن أن تقوم مقام العميل فى تقديم ما يقدمه للهمباتى ، ولذلك فان سوالفها مثل سوالفه . فكان إستعمال « سوالف السارة » هنا إستعمالا خاصاً . وهنـاك الكثير من الألفاظ التى تحمل معان خاصة فى قاموسهم - وربما لا توجد فى غيره - أو إذا وجدت فانها تحمل معنى مغايراً للذى هو فى قاموسهم ، كلفظ « العملة » ويقصدون به الإبل المنهوبة وكذلك « العمال » - و « الخترة » أو « الخطرة » عند بعضهم ويقصدون بها السفر بغرض النهب والسلب - « والرزق » ويعنون به ما ينهبونه من الإبل - وكثير غير هذا - يقول أحد شعرائهم :-

١ - ام هلال : اسم الناقه .
٢ - السراه : السنام وهى ما علا ظهر البعير من نتوء معروف وبعضهم يرى ان السراه غير السنام وهى خلفها .
٣ - تاره : من تر ، رجع .
٤ - الردوف : مرادفة أى ذات أرداف وهى أيضا الرديفه .
٥ - داره : حامل .
٦ - الساره : احدى الغوانى .

كتلناهِن عِشاء وْ قوز (برة) ميتيامِنْنو (١)

كَشيَ (٢) أب ترمة (٣) قِدّامنا ومَرَقْ لنا جِنو

كَمْ فزَعاً (٤) لحتنا خَمَّدْنا بِيَضة سنو

يا ريت ألسيوف كان تحكي بيَ الفاعِلنو (٥)

فالشاهد هنا فى « كتلناهن » . أى « قتلناهن » من « قتل والضمير فى « هن » يرجع للابل . ولكن المقصود هنا ليس هو القتل المعروف أى إزهاق الروح . أن المقصود السرقة أو النهب . أى إننا قد نهبنا هذه الإبل وسرنا بها يمين القوز المذكور . وجاء فى « قاموس اللهجة العامية عن الفعل « كسب » ما يلى : « كسب (ف س) المال طلبه وربحه . وعند الهمباته تعنى أخذهم المال بالقوة » . فشعر الهمباته إذن يحوى ألفاظاً تمثل قاموساً قائماً بذاته وخاصاً بالمجتمع الذى راجت فيه .

(٤) الواقعيــــــة :—

نقل شعر الهمباته الواقع كما عاشوه . وصور حياتهم بكل ما فيها من جوانب إيجابية وسلبية ، مشرقة وقاتمة وجادة ومازحة . ولذلك إبتعد شعرهم عن الإمعان فى الخيال وخلق الصور التى لا تعبر عن الواقع . وقد كان لهذه الواقعية عدة مظاهر فى شعرهم . فاذا حكى هذا الشعر لحظات النعيم التى يحيونها ، رسم إلى جانبها صورة المعاناة التى يتعرضون لها فى طريق رحلة الغزو هذه :—

يوم جالسين مع الحزم (٦) القصار مربوعة (٧)

يُوَم ماسكين نقيب (٨) صايندانا (٩) عطشة وْجوعة (١٠)

١ — متيامننو : سرنا عن يمينه ٢ — كشى : طردها أمامه

٣ — أب ترمه : الصديق ود التركاوى البطحانى أحد الهمباته المشهورين .

٤ — فــزع : النصره وطلب اللص والغاصب .

٥ — جريدة « الصحافة » ، عدد ٢٣ ديسمبر ١٩٧٤م ص ٧ .

٦ — الحزمه : ما حزم من حطب وغيره وتستعمل الحزمة مجازا فى معنى الخصر والضمير ، وتوصف الحسناء بأنها ام حزم قصار .

٧ — المربوعه : المربوع ، الوسيط القامة .

٨ — نقيـــب : الطريق فى الجبل .

٩ — صايدانا : من صاد : أصاب .

١٠ — عطشه وجوعه : يعنى عطشا وجوعا .

يُوَم فى رقابنا حبال المرس (١) مَدْروعــــة (٢)

يُوَم تابعين رفيق زَىْ صيدة مْمروعــة (٣) (٤)

فهم يوماً مع النساء ذوات الخصور الضامره ، الوسيطات القامة ، ويوماً فى الخلاء يعضهم الجوع ويفتك بهم الظمأ ، وفى يوم آخر مشدودة أعناقهم بالحبال حين يقعون فى أيدى رجال الأمن . فهذه صورة من واقع حياتهم وهى تلخيص لهذا النوع من الحياة . فالشاعر لم يتحرج حتى من أن يذكر مظاهر الجبن والضعف التى قد تظهر أحياناً على بعض رفاقه (الصيدة الممروعة) .

إن لحظات المرح والإنتشاء التى يحبونها ، تقابلها دائماً لحظات معاناة قاسية يعيشون تحت وطأتها وهم يشقون الفيافى والقفار عبر الصحراء ببردها و « سمومها » :—

يُوَماً فى بَسِط عند المِقَسِّم نُوَمنا

وْ يُوَم نبضّارى من لفحْ السَمُوم بىَ هدُومنا

يُوَم بنْوجَب العِملة ونْجيبه لزومنا

نحنَ أن عبنا يا كيقّة أم خدود بتلومنــا

وعلى هذا النمط يجىء شعر الهمباته حاكياً واقع حياتهم بكل جوانبها الخيرة والشريرة . فيتحدثون عن القيم التى تتميز بها حياتهم : الكرم والمروءة والشجاعة . . . . الخ . وفى الناحية الإخرى الجوع والظمأ وسفك الدماء . كذلك وصف شعرهم صنوف الناس الذين كانوا على صلة بهم بكل تباينها وإختلافها . ومن هذه الشخصيات من كان صديقاً متعاوناً ، ومنها من كان عدواً متربصاً (البلابيس) ومنها من كان خاملا لم ينحو نحوهم فى الحياة . وقد رسمنا صورة ذلك فى حديثنا عن حياتهم القلقة المضطربة وفى حديثنا عن علاقاتهم بالسلطة فهم عموماً لا يكتفون بتصوير الجوانب المشرقة بل حكوا الجانب الآخر من هذه الحياة :—

١ — المرس : حبل

٢ — مدروعــه : من درع ، لبس الثوب أو وضع الثوب على الرقبه أو علق

٣ — ممروعه : المرعه ، الجبان . وممروعه تعنى هنا مخوفه أو خائفة .

٤ — الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/٣٥٨ .

يا شَايِل (١) أم شِلِيَخ قُول' لِيَها مَزْلُولين (٢)
وْ سَايِقْنا الغفير (٣) مِتْوَجّة الكَامْلين (٤)
كَلْبِش (٥) يا حَرَس وأمْكِن حَد يَدَك زيَن' (٦)
صنْديد يا عُمَر (٧) ما تَقُول دا قَلْبُو بْلِين

وهكذا نرى أن شعر الهمباته قد قام فى بنائه الفنى على هذه الأسس من الحياة الواقعيــة فجاءت الصورة الشعرية عندهم مطابقة تماماً لأصلها فى الحياة .

(٥) خلوه من الغـــزل :ـ

ذكرنا فى موضع غير هذا أن المرأة حاضرة دائماً فى حياة الهمباته وشعرهم . فمن أجلها هاموا فى البلاد وجندوا أنفسهم للكسب وأخذ الإبل بالقوة غير عابئين بالنتائج ولذلك فاض شعرهم بذكرها فاذا سموها قالو : «السارة» و «شمة» وسالمة » و «البقيت» و « بت عمر » و « فاطمة » و « الزينة » و « عايدة » . و . . . الخ . وإذا كنوا عنها فهى : « المزند عاجه » و « أم روبة » و « أم خراس » و « أم خدود » و « السمتانه » و « المتبرة» . . . أو « الديغة » :ـ

ألْوَلد ألْبِدور ألْشَكْرَة (٨) بِتْحكُوبه (٩)
يِبْعِد ردُوكَوْ (١٠) يِنْطَح (١١) بْلُود (١٢) زَنُوبَة
أمَا يجِيب رُضَى الْدِيغَة (١٣) الْبِصِر (١٤) مَرْكُوبَة (١٥)

١ – شال : ذهب
٢ – مزلولين : من زل ، أزل
٣ – غفــير : خفير .
٤ – الكاملين : مدينة مسيرة ساعة بالعربة من الخرطوم جنوبا .
٥ – كلبش : كرتش الشيء أخذه وربطه .
٦ – زين : جيد وباحكام (٧) عمر : أحد رفاق الشاعر .
٨ – الشكره : الشكر . من شكر الرجل أى أثنى عليه .
٩ – حكى : أتى بحكاية (١٠) كــو : لا .
١١ – الديغه : الصيده البكــر (١٢) نطح : اتجه نحــوه .
١٣ – بلــود : جمع بلد وهو القطر والمكان .
١٤ – صرت الأذن : سمع لها طنين . (١٥) المركوب : حذاء يصنع محليا

ولا أبْ رِسْوه (١) فُوَق ضَلاعُو (٢) سَوّى الْهُوبَة (٣)

والذى نود أن نلاحظه فى موضوع المرأة هو أنهم لم يتعرضوا لوصف محاســنها وإبراز مفاتنها أو إظهار الوله والهيام بها أو الوقوف فى ديارها ومناجاة طيفها وذرف الدموع فى ذكراها. ولتفسير ذلك لا بد أن نضع فى حسابنا طبيعة حياتهم القلقة المضطربة التى تصلح للتعبير السريع غير المتأنى والإشارة العابرة فى غير إسراف . فهذا النوع من الحياة لا يعطى مجالا للوصف الدقيق وتفصيل الصورة ، لأنها حياة سريعة الدوران محفوفة بالمخاطر والأهوال . فلا غرو إذن إذا جاء شعرهم مشيراً إلى المرأة من حيث هى إمرأة بصرف النظر عن المميزات الجمالية التى تتمتع بها إمرأة دون الأخرى . وعلى هذا النحو يكون شعرهم ، فليس فيه وجود للغزل بمعناه المعروف ، بل هو شعر يدخل فى دائرة الهمبته وما جاء فيه ذكر للمرأة لا يخرج عن هذه الدائرة .

(٦) خلوه من الشعر القبــلى :ـ

إن القبيلة بقيمها وتقاليدها تعد سبباً رئيسياً من أسباب الهمبته . وقد صور الهمباته ذلك فى شعرهم على النحو الذى فصلنا الحديث فيه عند إختيارنا للاسباب والدوافــع . فالهمباته إمتهنوا هذه المهنه تفادياً للوم القبيلة ــ أو على الأصح المجتمع القبلى ــ وكسب ثنائها .وتبعاً لهذا فأن صلة الهمباته بقبائلهم لم تنقطع ، والمجتمع القبلى لم يلفظهم بل ظلت مكانتهم فيه على حالها . ولكن الناظر فى شعرهم يلاحظ خلوه من الشعر القبلى . ونعنى بالشعر القبلى هنا ، ذلك الشعر الذى يعنى بمدح القبيلة وذكر أمجادها وإظهار مآثرهــا وصفاء نسبها .

إن السبب فى ذلك يرجع ــ فى نظرنا ــ إلى أن هذه الجماعة بحكم المهنة المشتركة قد كونت لنفسها مجتمعاً متميزاً له قيمه وتقاليده ومثله ، وله نظمه الخاصة التى تحكمه قواعده التى تسيره على نحو ما رأينا . وفى هذا المجتمع يجد الفرد منهم الحماية والضمان الإجتماعى من غوائل الزمن. وهذه الظروف لا يوفرها له مجتمع القبيلة. وتبعاً لذلك إنصهرت روح الفرد فى روح الجماعة ، وصار الإنتماء لهذه الجماعة الجديدة أقوى من الإنتماء إلى

١ – رسوه : الرسغ ، ويكنون فى البادية عن الأسد بأبى رسوة .
٢ – ضلاع : جمع ضلعيه وأصلها ضلع جمع ضلعه وهى عظام الصدر .
٣ – الهوبه : قلب الهوبه : انقلب على ظهره واضعا رأسه على الأرض .

القبيلة . لذلك نجد أن شعر الهمباته يبتعد ، من حيث موضوعاته من الموضوعات القبلية التى تهتم بالتغنى بأمجاد القبيلة وتعدد إنتصاراتها وتصور مكانتها وسط القبائل وعراقة نسب أفرادها وتفتخر بمآثرها وتسجل أيامها . وفى مقابل هذا جاء شعرهم مصوراً لقيم جماعتهم ومفتخراً ببطولاتهم ومادحاً لسلوكهم . وفى ذلك يقول عبد الله ود المقدم :—

نحنَ المابنَعيش بى الزُّلْ (١) مَعيشَةْ ميَلْ (٢)
نحن بتركب ألدُّرشى (٣) الْقفَاهُو بْسيــــل
ألبِنقْصدُو بِشبَع طَرْطَشَة (٤) وبهديَل (٥)
بَرايُو (٦) الصح بيبِن فِى الصبّة (٧) يُوم الكيْل (٨)

(٧) الحديث إلى الجمـــل :—

الجمل هو وسيلة الرحلة فى طلب المال ، وهو رفيق الطريق وشاهد المخاطــــر والمغامرات . فهو يقاسم الهمباتى حياته بكل ما فيها من إحساس بالخطر وترد فى المهالك . وإذا نعم الهمباتى بلحظات من السرور كان الجمل على مقربة منه يرتاح ويتناول (علوقة) فان إهتمام المرأة التى يحط الهمباتى رحلة عندها بالجمل لم يكن يقل عن إهتمامها به هو — فانها تفكر فى الإثنين معاً فى نفس اللحظة . فلا غرو إذن إذا تحدث الشاعر الهمباتى عنه أو تحدث اليه . وطرب الإبل للحداء والغناء أمر معروف فقد ذكر مؤرخو الأدب العربى أن حداء الإبل كان معواناً لها على متابعة السير ومثيراً لنشاطها : « ويقال أن هذا الحداء كان يتفق فى إيقاعه مع وقع أخفاف الجمال فى مسيرتها من جهة ، وأنه قد تطور من جهة أخرى إلى شعر الرجز » • .

وظاهرة الحديث إلى الجمل تتكرر بصورة واضحة فى شعر الهمباته . فالشاعـــر

١ — الزل : الذل .
٢ — ميــل : الشىء المايل الذى يسقط العزيمة . والمايل : الحقير والهين .
٣ — الدرشى : الجمل . والدرشى : ضرب من جرى الجمال .
٤ — طرطشه : عدم الاستقرار على حال .
٥ — البهديل : البهدله ، وهى الخفة والطيش وعدم النظام .
٦ — برايو : من برا ، أى لوحده .
٧ — الصبه : الصب والصبة : ما صب من طعام ونحوه . ومنها صبة العيش .
٨ — الكيل : الكيــل .

يصف له ما يعانيه ، مثلا ، فى بعده عن محبوبته ويقارن بين حاليهما :—

بَالك (١) فَاضى (٢) فِى رُوبَة (٣) الْفرُوع بِتنْقدْ (٤)
وْ نحنَ نهاتِى (٥) لا بنْرقُد ولا بِنرقَدْ
ألحلاّنى يا السّاحِر (٦) تَملّى (٧) مْسقَدْ (٨)
فُرْق الْعُنْقُو بَاهِى (٩) وْ دُوفُو (١٠) مُو مِتْعقّدْ (١١)

وبهذه الطريقة يحكى الشاعر حاله للجمل ويبثه شكواه ويؤكد له مدى إعتماده عليه . وإذا أحس الشاعر أن الجمل يبطىء فى حركته أثناء سيره ، فانه يوجه الحديث اليه حاثاً إياه على الإسراع لطى المسافات التى تحول بينه وبين محبوبته :—

يا أبْ تَقَزى (١٢) إنْدرج (١٣) مِنّك فِلانَة فَريقه (١٤)
وأرفِق بى القُران (١٥) شِينَات (١٦) مَطَابْق (١٧) الضِيقَة (١٨)

وفى كثير من الأحيان يأخذ الحديث إلى الجمل شكلا آخر . فلا يكتفى الشاعـــر بالحديث إلى الجمل ، بل يدير معه حواراً يكون الشاعر هو الذى يحكيه — وذلك ما يمكن

١ — البال : القلب والخاطر . × الشعر القومى فى السودان ص ٢٢٦
٢ — فاضى : خـــال .
٣ — روبــه : الروبة : الشعر . وتستعمل مجازا بمعنى أطراف الأشجار .
٤ — نقده : نقول نقدته الدجاجة : ضربته بمنقارها .
٥ — هاتــى : لمله .
٦ — الساحر : اسم جمل الشاعر . وهو أحد جمال الطيب ود ضحوية المعروفة .
٧ — تمـــلى : دائما .
٨ — سقد : سقد وسقده : طائر احمر اللون مشهور بعدم النوم .
٩ — باهى : طويل . (١٠) دوف : اللحم دون عظام .
١١ — عقد الحبل نقيض حله .
١٢ — اب تقزى : اسم جمل وهو من جمال الطيب ود ضحويه
١٣ — اندرج : شد فى سيره
١٤ — فريقه : تصغير فرقه وهى المسافه .
١٥ — القران : حبل يقاد به البعير أو الفرس . وقران ايضا قران الابل .
١٦ — شينات : الشين القبيح .
١٧ — مطابق : جمع مطبق . ومطبق الوادى : مضيقه .
١٨ — الضيقه : اسم قرية وهى التى ولد بها الطيب ود ضحويه بين مدينتى ام على والمحميه .

أن نسميه « إستنطاق الجمل » . ويبدو من خلال مثل هذا الحوار تجاوب الجمل مع صاحبه ويصل ذلك إلى درجة أن الجمل يحتج على صاحبه إذا أحس أنه يوجه اليه بعض الإتهامات ،وفى هذا الحوار يستعمل عبارتى قلت له وقال لى (١) .

ومن ذلك قول الطيب ود ضحويـة :–

قُتْ ليـَك يا جـَمـَل ماكْ (٢) عارف الغَبِي نيـِتى (٣)
نـَاوى (٤) بـَكْ مـَبيت ربـَه (٥) دكـَكْ (٦) مِيكـْنـِيتِى (٧)
قالْ لِى أسـْعَلـْنى (٨) جـَمـْع الواسـْعـَة (٩) مُو هـِمـِيـَتِى
قُتْ لُو النّايْـرة فى قـَلـْدـَة (١٠) وَرِيدـَهـَا (١١) هـَنيـِتـِى

وتجاوب الجمل مع صاحبه وتفهمه لظروفه من الأشياء التى يعكسها الشاعر فى الحوار الذى يديره معه . فاذا راح الشاعر يتغنى باثاً شكواه وحرارة شوقه وتلهفه إلى المكان الذى يقصده ، رد عليه الجمل مؤكداً له أنه قوى على تحمل مشاق الرحلة وقادر على إيصاله فى الوقت الذى يريـــد :

قالْ لى الجمـَل لا تـَكـْتـَرْ الوَليف (١٢)
وْ بيتـْهاد دنى بى جـَمـْع العتـَامـِير (١٣) كـَيـْف ؟
قـِرْبـَت (١٤) بَـلـْدـَتـُو الزُّول أبْ جِلِيـدَاً هـِيف (١٥)

١ – الشعر القومى فى السودان ص ٥١ .
٢ – ماك : ما أنت أو لست .
٣ – نيتى : من نوى الشىء اذا قصده وعزم عليه
٤ – ناوى بك : أيضا من نوى والضمير فى « بك » يرجع الى الجمل .
٥ – الربه : الخليط وموضع القزازة من الحرب .
٦ – دكك : جمع دكه وهو منزل العرب الرحل ، وهى أيضا المرتفع من الوادى .
٧ – مكنيتى : من المكنيه وهى مدينة تقع غرب « ام على » والضيقه قرية الطيب ود ضحوية
٨ – اسعلنى : اسألنى ويقولون سعال يعنون به سؤال .
٩ – الواسعه : الأرض .
١٠ – قلده : من قلده : عانقه .
١١ – وريدها : الوريد عرق فى العنق . يصفون المرأة بأم وريد ويعنون الجيداء ذات العنق الطويل .
١٢ – الوليف : الغناء (١٣) العتامير : جمع عتمور وهو الصحراء .
١٤ – قربت : من قرب : دنا .
١٥ – هيف : من أهيف وهو الضامرة البطن ، الرقيق الخصر .

وْ قالْ لى وْصِلْنـَا داك (١) جـِبـَل أبْ عـَصـَاةْ سـِيـَف (٢)

وإذا تحدث الشاعر إلى الجمل وأستنطقه ، فانه كذلك تحدث عنه ، فوصــف مكانته فى حياته وإختار له الأسماء التى تدل على القوة وشدة البأس والمراس . وتعرض الشاعر كذلك لوصف قدرة الجمل الخارقة على تحمل الرحلات الطويلة وصبره عليهـــا وتحدث عن إصالة نسبة وصلابة عوده :–

مقل (٣) وإنكلب (٤) راح يلقم (٥) القواد (٦)
وساحراً (٧) عادى (٨) من سهم (٩) النقط حواد (١٠)
يا جد القرارى (١١) أل لى البحر خـــــواد
ما يقســن دروب ناس عايــدة بت عــواد (١٢)

وكان من الطبيعى ألا تقف العلاقة بين الشاعر والجمل عند هذا الحد . ولذلك كان الشاعر يتأثر بكل ما يصيب الجمل من المرض أو الإصابات، وهو يتألم لفراقه إذا حكمت المقادير بأنفصاله عنه ، ويرثيه إذا مات ويأسو لمرضه إذا مرض :–

ما تـَسْتـَاهـَل الـْعـَوَرَة (١٣) وْخـَسـَار الـْعـِين
وْ كـَمْ مـِنْ قـِيـجـَة فُوق ضـِهـَرَك محاحِل دِيـَنْ
كـَتِير مـِنْ فـَارَق الـنّزْهـَةْ وْرَضَى الـوَالـْدـِيـَنْ
ألـْبَاقـِىْ اللهْ يا هـَجـّام فـَرِيق (١٤) أمُ زِيـَنْ (١٥)

١ – دلك : من دا بمعنى ذا ويقولون هدا وهداك .
٢ – جبل اب عصاة سيف : هو جبل الشيخ حامد أحد الأولياء المعروفين فى منطقة الجعليين .
٣ – مقل : صارت له مقله وهى العنق .
٤ – انكلب : صار كالكلب فى ضموره .
٥ – راح : صار . ولقم : هاجم (٦) القواد : الذى يقوده
٧ – ساحر : اسم الجمل (٨) عادى : قوى .
٩ – سهم : جمع سهمه وهى الجهة والمكان
١٠ – حواد : من حاد عن الشىء اذا تجنبه .
١١ – جد القرارى : ولى من الأولياء من منطقة القراى .
١٢ – عايده بت عواد : أحد « العملا » وعايده بنته .
١٣ – عور : ذهب حسن احدى عينيه فهو أعور .
١٤ – فريق : حى . ١٥ – ام زين : ذات الحسن والجمال .

شعراء الهمبتـه ومشـاهيرها

نحاول هنا ان نعطى نبذة عن بعض شعراء الهمبته وغيرهم من مشاهيرها ممن جاء ذكرهم فى حديثنا عن شهرة الافراد فى هذا المجال :

طه الضرير :—

هو طه محمد أبو زيد . يعرف احياناً باسم « ود اب زيد » . ويكنى بـ « ابو الزينه» وهى ابنته . ومن شعره فى ذلك :

أبوك يا الزينه عكاهن قبض فى روسهن
الهوج والشرق فوق العواتى بكوسهن
أمسوا الليله فى الغوب الكتير جاموسهن
نووا العوده لى الغالى ورفيع ملبوسهن

ويلقب بـ « الضرير » وذلك لضعف فى بصره . ينتمى الى قبيلة البطاحين ، والده من فرع « العلاماب » ووالدته من فرع « العركشاب» ويقول انه من ناحية جدته أم أبيه « شرحابى» أى من فرع « الشرحاب» والضرير من شعراء الهمبته المعروفين فى كل بقاع البادية السودانية . يبلغ الضرير من العمر حوالى الثمانين عاماً ويقيم الآن بمنطقة «أبو دليق» شرق الخرطوم . مارس الهمبته منذ شبابه الباكر يذكر انه اشتغل بها فى سن السابعة عشر أو الثامنة عشر . وبرغم ما عرف عنه من ضعف البصر فقد كان خبيراً بالدروب والمسالك والنواحى . وقد عرف عنه انه كان يعرف الموضع الذى هم فيه بشم ترابه . ولعل هذا هو السبب وراء تقديم مجموعته له فى غزواتها . وهذه المجموعة كانت تضم الى جانبه كل من الطيب ود ضحويه والصديق ود التركاوى وكيقه ود عمران. وقد ورد كثير من الشعر الذى يدل على أنه كان قائداً لمجموعته أو على الاقل خبيرها ودليلها . ومن ذلك قول ود ضحويه :—

انعقدوا الصناديد والضرير قدامهم
نووا العوده لى الماسكات عداد أيامهم

ومن أراد المزيد عن حياة هذا الشاعر الهمباتى وشعره يمكنه مراجعة ارشيف معهد الدراسات الافريقية والآسيوية الأشرطه (٣٥٠—٣٥٩) .

الطيب ود ضحويــة :—

إسمه الطيب عبد القادر سليمان ، ويقال له « الطيب ود ضحوية » كما يقال له « ود ضحوية » . والإسم ضحوية يقال إنه لجدته أم سليمان ويرى أخرون إنه إسم لأحد جدوده. ولد الطيب بقــرية صغيرة يقال لهــا « الضبقة » بامالة الياء بالقرب من محطة سكة حديد « أم على » فى طــريق الخرطوم — بورتسودان على الضفة الشرقية لنهر النيل. ينتسب الطيب إلى أب « مسندابى » وأم « سرورابية » . والمسنداب والسروراب مــن أفرع قبيلة الجعليين ، والجعليون المعنيون هنا هم الجعليون الأصليون الذين يقطنــون المنطقة بين ملتقى نهر عطبرة والنيل وخانق السبلوقه — وهم يجمعون فى طريقه حياتهــم بين الرعى والزراعة . دخل الطيب الخلوه لدى أخواله السروراب حيث أتم حفظ القرآن وتزوج الطيب فى سن التاسعة عشر من بنت خاله الفكى سرور . وبعد هذا التاريخ تذكر الروايات أنه إنخرط فى العمل فى نهب وسلب الإبل . عمل الطيب فى الهمبته رغم مــا عرف عن والده من ثراء وسعة فى الرزق . وقد بذل والده محاولات كثيرة لإثنائه عن الإستمرار فى هذا النوع من الحياة — ولكن يبدو أن الطيب كان ذا ولع شديد بها فكان شعره يعكس التعلق بهذه الحياة فى المرات القليلة التى إستجاب فيها لوالده ومكث معه فى الديار بعضاً من الوقت . ولم يترك الطيب العمل فى الهمبته تماماً إلا عندما تقدم به العمر وأقعده المرض عن الحركة . ويذكر أنه أخيراً تاب وقضى بقية حياته منقطعاً للصــلاة والعبادة وتلاوة القرآن . وفى آخر أيام حياته أصيب الطيب بمرض نقل على أثره إلــى مستشفى الخرطوم للعلاج ، ولكن الطب عجز عن إستئصال الداء فنقل مرة أخرى إلــى منزله بمدينة كبوشية حيث توفى فى حوالى عام ١٩٤٣م . وقد خلف الطيب بنتيــن أحداهما تدعى « فاطمة » وتقيم الآن بقرية الشقالوه بالقرب من شندى — وقد ذكرها كثيراً فى شعره معتزاً ومفتخراً . والطيب من أميز شعراء الهمبته ويعتبر شعره مرجعــا مفيداً لدراسة كل ما يتصل بهذه الظاهرة . قال وهو يحتضر مسترجعاً ذكرى أيامه التى خلت وداعياً نفسه إلى الصبر على ما تلاقى من حشرجة الروح لأنها لم تترك باباً للمتعة لم تلجــه :—

يُوَم بِنْداور البكرة و نمصُروْ ثديهـــا
ويُوم بِنْشق عتاميراً بعيدة وْ تيهَــه

يا نفس السواد المتعة كملتيهـــــا
أبقى لزومه وكت القرعة وقعت فيهـــا

عبد الله ود المقدم :-

من شعراء الهمبته المجيدين الذين ما زالوا على قيد الحياة يحملون ذكرى أيـــام ودعوها ولكنهم سجلوها شعراً باقياً على مر الأيام . وأسمه عبد الله المقدم فضل الله . ينتمى إلى فرع « الشدايدة » من قبيلة الكواهلة التى تنهى نسبها إلى الصحابى الجليل الزبير بن العوام . يبلغ الشاعر من العمر خمسة وستين عاماً . وقد ولد بقرية « جبل مويا » إلى الغرب من مدينة سنار وقضى معظم فترة صباه بها . أما الآن فانه يقيم بقرية « نور الهادى » غربى نهر الدندر .

عمل ود المقدم فى الهمبته وهو فى الخامسة والثلاثين وأقلع عنها منذ حوالى عشرين عاماً . يعمل الآن مزارعاً بمشروع السوكى . وهو شاعر معروف فى المنطقة ما أن يجىء ذكر للشعر المشعبى إلا وكانت الإشارة اليه — وله عدة مسادير كما له شعر فى أغراض غير الهمبته .

شرف ود المحرب :-

هو شرف المحرب من أشهر الهمباته بمنطقة بادية البطانة . وهو من قبيلة الكواهلة فرع « الحميدانية » يقيم الآن بقرية المحرب غربى نهر الدندر داخل منطقة مشروع السوكى حيث يعمل الآن مزارعاً به . عمره الآن خمسة وسبعون عاماً . والقرية الـتى يقيم بها الآن سميت على إسم جده وتعرف الآن باسم « حلة شرف » وشيخها هو إبنـه الصديق . عمل فى الهمبته منذ أن كان فى الثالثة والعشرين من العمر وتركها قبل عشرين عاماً على ما يذكر . ومعنى هذا أنه عمل فيها . لمدة تربو على الثلاثين عاماً . وعمنا شرف رجل فكه وصاحب نكته وله طريقة جميلة فى القاء الشعر وإعطاء المعلومات .

ود عايـــس :-

من الهمباته المعروفين فى قبيلة الكواهلة . هو محمد عايس شيخ قرية « ود عايس » التابعة لريفى سنار . يبلغ من العمر الخامسة والسبعين ويعمل مزارعاً بمشروع السوكى . عمل فى الهمبته فى سن الثالثة والعشرين وترك العمل بها قبل مدة طويلة وهو يرى أنـه

بذلك قد إهتدى إلى الصواب وإنها الآن بالنسبة له فضيحة وعيب كبير . ينتمى إلى فرع « الحميدانية » من قبيلة الكواهلة . يحفظ كثيراً من شعر الهمباته .

أبو جيب أبو زيـــد :-

همباتى معروف عرفته بادية كردفان وعرفها عندما كان يجوب أنحاءها بحثاً عن الإبل . وهو من الرواة المفيدين حيث أنه ملم بالكثير جداً من جوانب الهمبته وحيـــاة الهمباته فى منطقة كردفان ونظم وقواعد الهمبته وقيمها عموماً . ومن ناحية النسب فانه ينتسب إلى قبيلة حمر من ناحية أبيه وإلى قبيلة « الهبابين » من ناحية أمه . ولد بقريـــة « عيال ركاب » بالقرب من مدينة النهود حيث يقيم الآن ويعمل ضامناً بزريبة المواشى بها وعمنا « أبو جيب » رجل مرح يحب الدعابه ويتحدث بانطلاق ووضوح . وهـــو متزوج وله أبناء يذكر منهم بالفخر إبنه « أبو زيد » الذى سار على نهج أبيه فأصبح اليوم من أشهر الهمباته الشباب فى وسط قبيلة حمر خاصة بادية كردفان عموماً .

حـــامد أم بده :-

من الهمبـــاته الشباب حيث يبلـــغ من العمـــر الثـــلاثين عامـــاً . ولد بقـــرية « الصُقُـــع » بمنطقة غرب دار حمر حيث يقيم . ويقول بأنه بدأ يعمل بالهمبته منذ عام ثمانية وستين وتسعمائة وألف وكان آنذاك فى الثالثة والعشرين من عمره . أما الآن فانه يقضى فترة سجن قدرها ثلاث سنوات فى سجن مدينة النهود حيث تم لنا معه اللقاء . وهذه المدة هى عبارة عن عقوبة صدرت ضده فى إبل نهبها هو وإثنان من رفاقه ، ولما قبض عليه لم يفصح عن شركائه فى الجريمة فتحمل النتيجة وحده . وهذا يعتبر من أكبر واجبات الهمباتى فى مثل هذه المواقف والظروف وفى مقابل ذلك فان للآخرين أيضـــاً واجبهم نحو رفيقهم على نحو ما ذكرنا فى حديثنا عن صور التعاون فى مجتمع الهمبته .

عبد الله حريكـــة :-

شاب فى التاسعة والعشرين من العمر . من الهمباته المشهورين فى منطقة قبيلة حمر فى الوقت الحاضر . وهو ينتمى إلى فرع « بنى بدر » من قبيلة حمر . ولد بـ « وادى الغنّام بالقرب من مدينة « أبو زبد » وهو يعمل — كما يقول — مع السعية . أما الآن فانه أحـــد نزلاء سجن مدينة النهود وهو أمى وغير متزوج .

عوض الكريم إبراهيم :-

إسمه عوض الكريم محمد إبراهيم . ويلقب بـ « عز العرب » . من الهمباته الشباب بباديه كردفان حيث يبلغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً . ولد بقرية « أم قفلة » فى منطقة دار حامد مركز باره . وهو من قبيلة « المعاقلة » إحدى قبائل مجموعة دار حامد . يعمل مزارعاً إلى جانب عمله فى نهب الإبل . وهو متزوج وله أبناء .

أبو سريج :-

من الهمباته المشهورين جداً فى منطقة كردفان وغيرها من أنحاء البادية الرعوية فى مختلف بقاع السودان . إسمه موسى ود كوكو ، وأبو سريج لقبه . ويقولون له أيضاً « أبو سريجاً بره » كناية عن إستعداده الدائم لإعتلاء ظهر بعيره وجوب البادية سعياً وراء الإبل . وسريج تصغير سرج وهو تصغير تعظيم . وأبو سريج من قبيلة الهبابين التى هى إحدى قبائل مجموعة دار حامد . كان يقيم بالقرب من مدينة باره وتوفى لبضع سنين خلت . وقد كانت إبنته حفصه ، على ما تذكر الروايه ، تتغنى بمدحه كثيراً ، ومن ذلك قولها :

الضهّب النّصاره (١)
خاتنُوا فى السحّارة (٢)
أبو سريج ركب ،
يجيب المال شطاره (٣)

١ - الضهب : الذهب . والنصاره جمع نصرانى : مسيحى .
٢ - خت : وضع . والسحاره : صندوق كبير لحفظ الملابس والأشياء .
٣ - شطاره ، الشطاره : الدهاء والذكاء والشجاعة .

بين الهمبتة والصعلكة العربية

- الصعلكة والصعاليك
- بين الهمبة والهباتة والصعلكة والصعاليك

الصعلكة والصعاليك

نتحدث هنا عن ظاهرة الصعلكة والصعاليك فى تاريخ الأدب العربى . ونود أن نشير منذ البداية إلى أن الغرض هنا ليس هو تقديم دراسة مفصلة ومسهبة لظاهرة الصعلكة على نحو ما فعلنا فى حالة الهمبته . إنما نود فقط أن نضع أمامنا الصورة التى رسمها الكتاب والباحثون العرب لهذه الظاهرة لنستعين بها فى ما ننوى إجراءه من مقارنة بين الظاهرتين . ولذلك فاننا سوف نهتم - بالملامح الأساسية لظاهرة الصعلكة من حيث نشأتها وعوامل تلك النشأة ، والمسرح الذى شهد أحداثها ، وموقف المجتمع آنذاك منها . ثم نتعرض لأبطالها من الصعاليك لنرى مزاياهم وأخلاقهم وأسلوب حياتهم ، وطوائفهم ثم نتطرق أخيراً لشعر الصعاليك من حيث مضمونه وخصائصه .

ما هى الصعلكة ومن هم الصعاليك ؟ :-

تحدث عدد من الكتاب العرب عن ظاهرة الصعلكة والصعاليك محاولين توضيح معناها ورسم أبعادها ومكانة الشعر المرتبط بها فى تاريخ الشعر العربى . يقول الأستاذ أحمد الشايب عن الصعلكة : « هى ثورة على النظام القبلى أو على النظام الإقتصادى والإجتماعى كله » (١) . ويقول عن الصعاليك : « هم جماعة فقراء من قبائل شتى جمعت بينهم الخصاصة والحاجة وأعوازهم من مال هو عند غيرهم فخرجوا على قبائلهم وتحللوا من نظمها وأنكرهم قومهم وأخذوا هم أنفسهم بالإغارة والنهب وسلب القبائل والأفراد ما لهم ثم توزيعها فيما بينهم » (٢) . فهم بذلك يمثلون الخروج على النظام القبلى بتقاليده وقيمه إلا ما إرتضوه لأنفسهم من عطف على الفقراء والمرضى والضعاف وكرم وجود وسخاء . « فهم لصوص كرام شجعان يعفون عن المحارم » (٣) .

ويقول الدكتور يوسف خليف وهو يتحدث عن الصعلكة فى المفهوم اللغوى : « فالصعلكة فى مفهومها اللغوى الفقر الذى يجرد الإنسان من ماله ، ويظهر ضامراً هزيلا

---

١ - أحمد الشايب ، تاريخ الشعر السياسى ، القاهرة ١٩٤٥م ص ٣٤

٢ - نفس المصدر ٣٤ .

٣ - نفسه ٣٤ .

بين الأغنياء المترفين الذين أتخمهم المال وسمنهم » (١) . والصعلوك فى نظره هو من يواجه الحياة منفرداً وهو لا يملك وسائل العيش فيها . ويقول عن معنى الصعاليك فى الإستعمال الأدبي : « هم أولئك المغيرون أبناء الليل الذين يسهرون لياليهم فى النهب والسلب الإغارة بينما ينعم الخليون المترفون المسالمون بالنوم والراحة والهدوء » (٢)

أما الدكتور شوقى ضيف فيقول : « الصعلوك فى اللغة الفقير الذى لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة ، ولم تقف هذه اللفظة فى الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة ، فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق » (٣) .

وذكر جرجى زيدان أن الصعاليك : « هم طائفة من الشعراء إشتهروا بالعدوان الإغارة على القبائل للنهب » (٤)

ويقول الدكتور الحوفى : « أما الصعلكة فهى الفقر ، والصعاليك هم الفقراء ، وتصعلك الرجل إذا إفتقر » . ثم يمضى فيقول « إن الصعلكة هى الفقر ، وإن كانت دلالة الكلمة قد تطورت فأطلقت على الفقر المقترن بتروع ثورى » (٥) .

نخلص من كل ما مضى إلى أن الصعلكة هى طريقة فى الحياة تقوم على النهب والسلب عن طريق الغزو والإغارة . والصعاليك : « هم طائفة من قطاع الطرق كانوا منتشرين فى أرجاء الجزيرة العربية ، ينهبون من يلقونه فى صحرائها الموحشة الرهيبة ويتلعبون به ويتخطفونه ويأكلون ماله » (٦) .

مزايا الصعاليك وأسلوب حياتهم :-

كان الصعاليك جميعهم من الفقراء المعدمين . ولذلك تتردد الشكوى من هذا الفقر كثيراً فى شعرهم وتضيق بها نفوسهم . ففى أخبارهم تتجلى حقيقة فقرهم ؛ ومن شعرهم تنبعث صيحات الجوع يقول السليك بن السلكة :-

---

١ – الشعراء الصعاليك ص ٢٠-٢١ .
٢ – نفس المصدر ٢٣ .
٣ – الدكتور شوقى ضيف ، تاريخ الأدب العربى ، دار المعارف بمصر ، ص ٣٧٥
٤ – جرجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، دار الهلال ١٩٥٧م ص ١٦١
٥ – الدكتور سيد حنفى حسنين ، الشعر الجاهلى : مراحله واتجاهاته الفنيه ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١ ص.٣٠٠
٦ – الشعراء الصعاليك.٢٤ .

وما نلتهـا حتى تصعـلكت حقبة
وكدت لأسباب المنية أعرف
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرنـى
وإذا قمت تغشانى ظلال فأسدق

ولكن الصعاليك لم يستسلموا لوضعهم فى المجتمع ولم يرضوا حياة الذل والهوان التى فرضتها عليهم ظروف مجتمعهم ، فثاروا على هذا الوضع وعملوا لكسب ما إفتقدوه فى حياتهم العادية . وتلفتوا فلم يجدوا ما يعينهم على تبديل حالهم غير القوة . ومن هنا كانت فلسفة ثورتهم تقوم على أساس أن الغزو والإغارة للسلب والنهب هى السبيل الوحيد للغنى وتبديل الحال . فليس أمام الفرد منهم إلا أحد أمرين أما أن يرضى بحياة الذل هذه ، وأما أن يشق طريقه بالقوة نحو حياة يرى هو أنها حياة كريمة أبيه .

وكان لابد لهذه الثورة من قوة تسندها . وتلك كانت هى قوة النفس والجسد فمن ناحية قوة النفس كان الصعاليك يستهينون بالحياة فى سبيل الوصول إلى غايتهم وهم بذلك يؤمنون بالفناء فى سبيل المبدأ . ومن الناحية الأخرى كان الصعاليك يأنفون من القيام بتلك الأعمال التى كان يقوم بها العبيد وأشباههم كخدمة الإبل والقيام بأمرها . أما الجانب الثالث لهذه القوة النفسية التى تميز بها الصعاليك فهو الكرم . فقد كان الصعاليك على الرغم من فقرهم وفاقتهم ، كرماء حتى ليضرب بهم المثل فى الكرم . وهذا يؤكد أن الغنى لم يكن هدفاً فى حد ذاته بالنسبة للصعاليك ، بل كان وسيلة لأشياء أخرى . ولعل بعضاً من هذا يظهر فى أبيات عروة بن الورد التالية :-

دعينى للغـنى أسعى فانـى
رأيت الناس شرهم الفقيـر
وأبعدهم وأهونهـم عليهـم
وأن أمسى له حسب وخـير
ويقصيـه الندى وتزدريـه
حليلتـه وينهره الصغـير
ويلقى ذا الغـنى وله جـلال
يكاد فؤاد صـاحبه يطـير

قليل ذنبـه والذنــب جـم
ولكن للغنى رب غفــــور

والجانب الرابع من جوانب قوتهم النفسية هو أنهم كانوا ذوى نفوس عالية تأبى الضيم ، وتعف عما فى أيدى الناس . ولذلك ما كانوا ليطلبون عوناً من أحد حتى لا يتطاول عليهم متطاول . يقول الشنفرى :ـ

أديم مطال الجوع حتى أميته
وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
وأستف ترب الأرض كى لا يرى له
على من الطول أمرؤ متطول
ولو لا إجتناب الذم لم يلق مشرب
يعاش به إلا لدى ومأكــل
ولكن نفساً حرة لا تقيم بى
على الضيم إلا ريثما أتحــول

وكما كان الصعاليك أقوياء نفس ، كانوا كذلك أقوياء جسد . فقد كانوا يتمتعون بقدر وافر من الشجاعة والجرأة وشدة المراس ومضاء العزيمة والصلابة والصمود . وكان الصعاليك بجانب ذلك يملكون مقدرة فائقة فى الهروب من وجه أعدائهم . فقد ذكر أنهم كانوا عدائين لا تلحق بهم الخيل . وأعتمدوا فى حركتهم على ما تميزوا به من سرعة العدو . فقد قيل عن السليك بن السلكة : « هو أحد الصعاليك العرب العدائين الذين كانوا لا يلحقون ولا تعلق بهم الخيل إذا عدو . . . . وهم السليك بن السلكة والشنفرى وتأبط شرا وعمر بن براق ونفيل بن براقه » (١) .

هؤلاء هم الصعاليك جماعة من الفقراء المنبوذين حرمهم المجتمع كل وسيلة للعيش وأظلمت الدنيا حولهم . ولكنهم كانوا أقوياء نفس وجسد فثاروا فى وجه هـذا المجتمع الظالم وأشعلوها حرباً عليه لا تبقى ولا تذر . لم يرضوا أن يعيشوا يتكففون الناس فرفضوا الضيم والأعمال الوضعية وشمخوا بأنوفهم وشقوا طريقهم فى الحياة بقوة

١ - الأغانى ، مجلد ٩ ج ١٨ ، دار الفكر بيروت . ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠م ص ١٣٣

نفس والجسد وقوة السلاح من سيف ورمح وغيرهما . وهم بذلك يمثلون ثورة على المجتمع وخروجاً عليه وتحدياً للاغنياء الموسرين الذين كدسوا الأموال وتمكن البخل فى نفوسهم . وهم فى ثورتهم هذه لم يلينوا ولم يستكينوا ، بل مضوا ولم يخشوا ضغط المجتمع عليهم ، هذا المجتمع الذى فقدوا توافقهم الإجتماعى معه وأهدرت دماؤهم فيه كما سنرى فى الحديث عن العوامل المؤثرة فى نشأة الصعلكة .

ومضى الصعاليك خلف الأغنياء ، وخاصة البخلاء منهم يسلبون وينهبون ولا يتورعون من القتـل . ولذلك كانت أخبار الصعاليك وشعرهم يحفلان بذكر أحاديث الغزو والإغارة والسلب والنهب . بل كانوا يصفون تلك الغارات ويذكرون دور المشتركين فيها من رفاقهم وما قاموا به أثناء المعركة . وكان الصعاليك فى صراع دائم من أجل العيش . وهو صراع بين الحياة والموت . ذلك لأنهم إذا قصروا دون أخذ حقهم بأيديهم فانهم يصبحون عرضة للموت جوعاً .

والواقع أن الصعاليك لم يكونوا يقتصرون فى نهبهم على الأغنياء وحدهم . ففى بعض الأحيان كانوا يتعرضون لكل إنسان بصرف النظر عن فقره أو غناه . فهم قد يتحولون فى أحيان كثيرة إلى مجرد متمردين يسلبون كل من يسوقه حظه العاثر إلى أماكن تربصهم . وتدل أخبارهم على أنهم أحياناً قد يناصبون قبيلة معينة العداء فيذيقونها الويل بتكرار الإغارة والغزو . وكان الصعاليك فى كل الأحوال يرددون أقاصيص هذه الغارات فى فخر وإعتداد بأنفسهم وبطولتهم .

وكان الصعاليك يجوبون الآفاق ويتربصون فى طرق القوافل فرادى أحياناً وفى جماعات أحياناً أخرى . أما وسيلتهم فى هذه الغارات فكانت هى أرجلهم فى الغالب على أن بعضهم كان يغير على الخيل وكانت أبرز سمات هذه الجماعة العدو . وهذا جعل الذين يتحدثون عنهم بغرض تعريفهم يصفونهم بـ « العدائين » . وفى كثير من الأحيان ، بل فى كل الأحيان كانت سرعة العدو هى المنقذ الوحيد لهم من خطر الأعداء .

وإلى جانب قوة النفس والجسد وسرعة العدو . كان للصعاليك قوة أخرى تعينهم على تحقيق النصر فى غزواتهم ، وتلك هى قوة السلاح . وقد أعد الصعاليك لتحقيق هدفهم كل ما عرفته الجزيرة العربية من ضروب الأسلحة بوظيفتيها : الهجومية والدفاعية ،

فكانت هى سندهم حين يدلهم الأمر ويحيط بهم الخط .

شمل نشاط الصعاليك كل أرجاء بادية الجزيرة العربية ، فانتشروا فى صحرائها ، يصعدون التلال ويهبطون فى السهول والوديان ، ينشرون الرعب فى ربوعها ، ويهددون القبائل والقوافل ويقطعون الطرقات على المسافرين . فهم فى حركة دائبة لا تعرف السكون ولا تقتصر غاراتهم على جهة دون الأخرى . فهم يوماً يغيرون على نجد ويوماً على أهل الجبل . وهكذا تدور بهم الحياة وهذا هو دأبهم فيها :-

فيوماً على نجد وغارات أهلهـــا
ويوماً بأرض ذات شث وعرعر

طوائفهـــم :-

يميز مؤرخو الأدب العربى ثلاث طوائف من الصعاليك . وكل طائفة من هذه الطوائف لها ما يميزها عن الأخرى . ولكن جميع هذه الطوائف تلتقى أخيراً على الهدف ونوع السلوك . ويرى شوقى ضيف أنهم يكونون ثلاث طوائف حيث يقول : « ويمكن أن نميز منهم ثلاث مجموعات : مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الأزدى وقيس بن الحدادية وأبى الطمحان القينى . ومجموعة من أبناء الحبشيات السود ، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السليك بن السلكة وتأبط شرا والشنفرى ، وكانوا يشركون أماتهم فى سوادهم فسموا وأضرابهم بأسم « أغربة العرب » . ومجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات ، غير إنها إحترفت الصعلكة إحترافاً وحينئذ قد تكون أفراداً مثل عروة بن الورد العبسى ، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتى هذيل وفهم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالى » (١) . وإذن فقد كان الصعاليك ينقسمون إلى ثلاث طوائف هى :-

١ - طائفة الأغربة السود ممن لم يعترف بهم آباؤهم فعاشوا غرباء فى مجتمع أنجبهم ثم لفظهم وأنكرهم .
٢ - طائفة الخلعاء الشذاذ الذين أنكرتهم قبائلهم وتبرأت منهم وأهدرت دماءهم .
٣ - طائفة الفقراء المتمردين الذين تصعلكوا نتيجة للاختلال الإقتصادى فى المجتمع

١ - تاريخ الأدب العربى ٣٧٥

الجاهلى . وسنرى فى حديثنا عن دوافع الصعلكة كيف تكونت كل طائفة من هذه الطوائف وبرزت إلى الوجود .

وكانت هذه الطوائف جميعاً يجمعها الفقر والتشرد والتمرد والكفر بالأوضاع الإجتماعية والإقتصادية التى تسود المجتمع . فهؤلاء جميعاً فقدوا توافقهم مع المجتمع فثاروا عليه وكفروا بأوضاعه وجردوا أنفسهم لأخذ حقهم الضائع بالقوة من مجتمع حرمهم وسائل العيش بالطرق السلمية . وبذلك كون الصعاليك مجتمعهم الخاص لينتقموا لأنفسهم ويحققوا عن طريق القوة بعضاً مما فقدوه فى الحياة العادية .

أشهرهـــم :-

تجمع كتب الأدب وتاريخ الأدب العربى على أن أشهر الصعاليك هم : عروة بن الورد العبسى ، والشنفرى الأزدى من اليمن ، وتأبط شرا من قيس عيلان والسليك بن السلكة من تميـــم

وقد كان عروة بن الورد أشهر الصعاليك جميعاً وذلك لأنه كان يجمعهم ويتولى أمرهم حين تضيق بهم الحال وتحلك الظروف . وفى ذلك جاء عنه فى الأغانى : « . . . . شاعر من شعراء الجاهلية وفارس من فرسانها وصعلوك من صعاليكها المعدودين المقدمين الأجواد. وكان يلقب عروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم ولم يكن لهم معاش ولا مغزى » (١) . وقيل لقب عروة الصعاليك لقوله :-

لحى الله صعلوكاً إذا جن ليلــه
مضى فى المشاش آلفاً كل مجزر
يعد الغنى من دهره كل ليلـــة
أصاب قراها من صديق ميسر
ولله صعلوك صفيحـة وجهــه
كضوء شهاب القابس المتنـــور

ويقال كذلك أنه لقب عروة الصعاليك لأنه كان « . . . . إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف وكان هو يجمع هؤلاء من

١ - الأغانى ، المجلد الأول ج ٢ ، ص ١٩٠ .

دون الناس من عشيرته فى الشدة ويطعمهم ويكسيهم حتى يبرأ المريض وتثوب قـوة الضعيف ، ثم يغزو بهم حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت الشدة ألحق كل إنسان بأهله وقسم له نصيبه من غنيمته إن كانوا غنموها فربما أتى الإنسان منهم أهله وقـد إستغنى » (١) .

وقد كان عروة مشهوراً بالكرم والسماحة ، حتى إن عبد الملك إبن مروان قال : « من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد » (٢) وقال صاحب الأغانى : « بلغنى أن إبن معاوية قال : لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج اليهم » (٣). وتحفل أخبار عروة وأشعاره بكل ما يؤكد تمكن فضيلة الكرم فيه إلى درجة المبالغـة أحيانـاً !

السلـيك بن السلكة :ـ

هو السليك بن عمرو من بنى تميم . والسلكة أمه وهى أمة سوداء . وهو أحد الصعاليك الشعراء العدائين الذين كانوا يسبقون الخيل إذا عدوا . ومما يوصف به أنه كان من أشد الرجال العرب وأنكرهم وأشعرهم وكانت العرب تدعوه سليك المقانب . كما أنه كان أدل الناس بالأرض وأعلمهم بمسالكها . وجاء فى الأغانى أنه « كان إذا كان الشتاء إستودع ببيض النعام ماء السماء ثم دفنه فاذا كان الصيف وإنقطعت إغارة الخيل أغار . وكان أدل من قطاة يجيء حتى يقف على البيضة » (٤) . وقد كانت له أخبار طريفة فى الغزو والإغارة (٥) .

تأبط شرا :ـ

إسمه ثابت بن جابر بن سفيان من قيس عيلان . وأمه إمرأة يقال لها أميمه من بنى القين وهم بطن من فهم . وتأبط شرا لقبه . ومما يروى فى سبب هذا اللقب أنه وجد كبشاً فى الصحراء فأحتمله تحت إبطه . ولما قرب من الحى ثقل الكبش عليه فرمى به فاذا هو

١ — لويس شيخو اليسوعى ، شعراء النصرانية ، دار المشرق بيروت بدون تاريخ ص ٨٩٢
٢ — الأغانى المجلد الأول ج ٢ ص ١٩١
٣ — نفس المصدر ص ١٩٠ .
٤ — الأغانى ، مجلد ٩ ج ١٨ ص ١٣٣-١٣٤
٥ — راجع الأغانى ص ١٣٣-١٣٩

الغول فقال له قومه ما تأبطت يا ثابت ؟ قال : الغول . قالوا : لقد تأبطت شرا فسمى بذلك . وقيل أنه لاقى الغـول فقتله وحمله تحت إبطه وأتى به لأصحابه فقالوا له لقد تأبطت شراً .

وقد رووا عنه أنه « كان أعدى ذى رجلين وذى ساقين وذى عينين . » وكان إذا جاع لم تقم له قائمة فكان ينظر إلى الظباء فينتقى على نظره أسمنها ثم يجرى خلفه فلا يفوته حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ثم يشويه فيأكله » (١) . وقيل إنه كان أسمع العـرب وأكيدهم . وقد روى هو عن نفسه أنه كان إذا لقى رجلا صاح فيه : أنا تأبط شرا ، فينخلع قلبه حتى ينال منه ما أراد . ويروى عن جريه أنه له ثلاثة إطلاق أولها كالريـح الهابة والثانى كالفرس الجواد والثالث يكبو فيه ويعثر . ومن أخباره أنه فى مرة لقـى رجلا فقتله وأستاق غنماً كثيرة (٢) . . . . ويقول البعض إنه إنما سمى تأبط شرا ببيت قاله هـو :ـ

تأبط شرا ثم راح وإغتـدى
بوائم غنماً ويسيف على ذخل

عوامل نشأة الصعلكـة :ـ

أثرت عدة عوامل فى نشأة ظاهرة الصعلكة . وكانت هذه العوامل تكمن فى تركيب المجتمع البدوى الإقتصادى والإجتماعى وظروف بيئته الطبيعية .

أما من الناحية الإقتصادية فقد كان المجتمع البدوى يتكون من طبقتين : طبقـة أصحاب الإبل وطبقة الصعاليك المعدمين . وتنحصر ثروة البادية فى قطعان من الإبـل والمعز والغنم . وقد كانت الإبل هى مقياس الثراء عندهم . وكان فى هذا المجتمع طبقة تملك أعداداً ضخمة من هذه الإبل بينما توجد طبقة لا تملك شيئاً . فكان البون بـين الطبقتين شاسعاً . ولم يكن أمام الطبقة المعدمة إلا أن يعمل أفرادها فى خدمة الأغنياء فى أعمال رعى الأبل والقيام بأمرها ، وما إلى ذلك من الأعمال التى لا يقوم بهـا الأثرياء ، وأما أن ينخرطوا فى أعمال الغزو والإغارة للنهب والسـلب .

١ — الأغانى ، مجلد ٩ ج ١٨ ص ٢١٠ .
٢ — الأغانى : مجلد٩ ج ١٨ ص ٢١٢

ونتيجة لهذا التوزيع غير العادل للثروة فى البادية ، فقد كان هناك صراع بين أصحاب الإبل والصعاليك . وكانت الإبل هى المادة التى دار عليها هذا الصراع لأنها هى الثروة الأساسية فى البادية . فكان الصعاليك يجردون أنفسهم للاغارة على أماكن الإبل يسلبون وينهبون ويقتلون . والواقع أن الإبل لم تكن هى المادة الوحيدة التى دار حولها هذا الصراع . « فأن أيدى الصعاليك لم تكن تمتنع عن أية غنيمة تعرض لهم » (١) . ومن ذلك ما جاء فى أخبار السليك بن السلكة أنه فى مرة قتل رجلا وأستاق غنماً كثيرة (٢) . وفى أخبار عروة بن الورد أيضاً أنه سلب هذلياً فرسه (٣) . وإذن لم يكن عمل الصعاليك قاصراً على نهب وسلب الإبل ، بل كانت الحاجة تدفعهم إلى نهب كل شىء ، يجردون كل من تسوقه الظروف إلى أماكن ترصدهم من ماله أياً كان هذا المال .

ومن الناحية الإجتماعية ، كان المجتمع الجاهلى يقوم على أساس قبلى ، لكل قبيلة فيه كيانها الخاص . وتمتاز القبيلة بوحدة أساس التمسك بها والإصرار عليها أن جميع أفراد القبيلة يؤمنون بانحدارهم من أب واحد ينتسبون اليه . فهم بذلك يكونون أسرة واحدة متحدة ويعمل الجميع على الحفاظ على هذه الوحدة وحفظها قوية دائماً . وحفاظاً على هذه الوحدة ، فقد إعتبر كل من يحاول تفتيت هذه الوحدة خارجاً على القبيلة . وترتب على ذلك منظومة من التقاليد الإجتماعية التى كانت بمثابة الدستور الذى يحدد المهام فى هذا المجتمع المتماسك . وكانت العصبية هى أساس هذا الدستور . وهى تعنى إحساس الفرد برابطته القبلية والعمل على تأمين مصالح القبيلة والذود عنها .

وكفلت هذه التقاليد الإجتماعية لكل من القبيلة والفرد حقوقه وواجباته . فأفراد القبيلة متضامنون فيما يجنيه الفرد منها وعلى الفرد أن يحترم رأى القبيلة ويتجنب الخروج عليه . كما عليه ألا يأتى بتصرف يسىء إلى القبيلة أو يحط من قدرها وسط القبائل . هذا الإيمان بوحدة القبيلة نشأ عنه ما عرف بالخلع . وهو أن تتبرأ القبيلة من الفرد فيسقط عنه التزامها بحمايته والذود عنه ويصبح طريداً . وهو يعنى عزل الفرد عرفياً وسياسياً وإجتماعياً . وهناك لا يبقى أمام الفرد غير التمرد بحكم الضرورة . ونتيجة لهذا تكونت

١ – الشعراء الصعاليك ١٤٨ .
٢ – الأغانى مجلد ٩ ج ١٨ ص ٢١٣
٣ – نفس المصدر ج ٣ ص ٨٤ .

فى المجتمع الجاهلى طائفة كبيرة من الخلعاء والشذاذ كانوا يؤلفون أحدى طوائف الصعاليك كما رأينا .

وبجانب الإيمان بوحدة القبيلة كان هناك إيمان بجنسها ينبع من إحساس أفراد القبيلة برابطة الدم . وهذا الإيمان بالجنس نشأ عنه إيمان بامتيازه ـ فأعتقد أفراد كل قبيلة بأنهم أشرف نسباً من الآخرين وهم لذلك يفضلونهم . ونتيجة لهذا كانت القبيلة تنقسم إلى عدة طبقات : الصرحاء والعبيد والموالى ـ وقد تزوج بعض من ذوى الدم النقى من طبقة الإماء وأنجبوا منهن أولاداً . ولكنهم رفضوا الحاق هؤلاء الأبناء بهم وأستعبدوهم ونسبوهم إلى إمهاتهم . ورفض هؤلاء الذين سموا بالأغربة هذا الوضع الذليل الذى فرض عليهم وخرجوا على أوضاع القبيلة وثاروا فى وجهها من أجل تحقيق حياة حرة كريمة ومن أجل إطفاء نار الغبن المتأججة فى نفوسهم . ومن هؤلاء كانت طائفة من صعاليك العرب .

نرى من هذا أن المجتمع الجاهلى بتركيبه الإجتماعى القائم على القبيلة كوحدة إجتماعية لها تقاليد تنظم العلاقة بين أفرادها وتؤكد إنتماءهم اليها ، هذا المجتمع أفرز جماعات من الصعاليك هم أولئك الخلعاء والأغربة . وفقد هؤلاء إحساسهم بالعصبية القبلية وآمنوا بعصبية مذهبية معتمدين على قوتهم فى سبيل العيش عن طريق الغزو ، والإغارة للسلب والنهب . ولم يكتف هؤلاء الخلعاء والأغربة بالخروج على القبيلة ، بل ناصبها بعضهم العداء وأغاروا عليها .

وقد كانت ظروف البيئة الطبيعية أيضاً عاملا مؤثراً فى نشأة هذه الظاهرة . فالبيئة التى عاش فى كنفها هؤلاء الأعراب كانت بيئة صحراوية يعتمد الناس فيها على ما تجود به السماء والسماء شحيحة فى معظم شهور السنة . ولذلك كان إحساس الناس بالفقر كبيراً . فالثروة عندهم محصورة فى قطعان الإبل والغنم والمعز وهى ثروة مهددة دائماً نسبة للجفاف وضعف المراعى . وإنحصرت حياة البدو فى الرعى وهو ثروة غير مضمونة ومن ناحية أخرى كانت توجد بجوار هذه الاراضى المجدبة أراضى خصبة جعلت هؤلاء يشعرون بأن الطبيعة لم تحرم الناس جميعاً . وعموماً نستطيع القول بأن العاملين الإقتصادى والإجتماعى كانا أقوى من عامل الظروف الجغرافية . ولكن هذه العوامل تكاثفت جميعاً فى تكوين هذه الطبقة فى المجتمع الجاهلى التى عرفت بالصعاليك .

شـعر الصعاليـك :ـ

كان للصعاليك شعرهم الخاص . وهو الشعر الذى يمكن أن نطلق عليه « شعر الصعلكة » . ذلك لأن هذا الشعر كان خاصاً بالصعلكة ، معبراً عنها ، ومتحدثاً عن كل ما يتعلق بها . ويأخذ الحديث عن شعر الصعاليك جانبين : الجانب الأول خاص بمضمون هذا الشعر ، والجانب الثانى يتعلق بخصائصه .

(١) المضمـون :ـ

نستطيع أن تقول فى هذا الجانب أن شعر الصعاليك كان صدى لما يدور فى نفوسهم وتصويراً لحياتهم ومذهبهم وتعليلا لسلوكهم الذى سلكوه . وبذلك يصبح هذا الشعر مثل المرآة التى تنعكس على صفحتها حياتهم بكامل تفصيلاتها . ويؤيد هذا الرأى عدد من الذين كتبوا عنهم ومن هؤلاء عبد الله عبد الجبار (١) ويوسف خليف (٢) والدكتور سيد حنفى (٣) . أما الجوانب التى أظهرها شعر الصعاليك فهى :ـ

أـ المغامـرات :ـ

تقوم حياة الصعاليك على المغامرات . ولذلك كان من الطبيعى أن يصور شعرهم هذا الجانب الهام فى حياتهم . ويصف الصعاليك هذه المغامرات بكل تفصيلاتها . فوصفوا الغارة فى كل مراحلها بدءاً بالإعداد لها وحتى نهايتها . وهم يتحدثون عن هذه المغامرات ، إيماناً بها وإعجاباً وفخراً ببطولتهم فيها ومقدرتهم على النجاة إذاضيق عليهم الخناق وسدت عليهم السبل فى غزوة من غزواتهم . وهم كذلك يسجلون معالم الطرق إلى الهدف وأخيراً يصورون ما ترتب على الغزو من نتائج كسْبِهِم وانتصارهم وفزع مقاتليهم .

ب ـ الرفـاق :ـ

وإذا تحدث الشعراء الصعاليك عن مغامراتهم فانهم لم يغفلوا الحديث عن الرفاق الذين كانوا يصحبونهم فى تلك المغامرات . وهم يتناولون فى هذا الجانب مظاهر قوة

١ ـ عبد الله عبد الجبار ومحمد عبد المنعم خفاجة ، قصة الأدب فى الحجاز ، القاهرة ١٩٥٨ م ص ٤٢٩ .
٢ ـ الشعراء الصعاليك ١٥٥ .
٣ ـ الشعر الجاهلى : مراحله واتجاهاته الفنية ص ٩٢ .

أولئك الرفاق وشجاعتهم وثباتهم وأدوارهم فى المعركة . والشاعر منهم حين يتحدث عن رفاقه فأنه يتحدث عنهم « حديث المعجب بهم ، والمعتز برفقتهم ، المقدر لقيمتهم فى حياته المغامرة ، تلك الحياة التى يحياها وحيداً إلا منهم ، فهم عونه على هذه الحياة ، يستعين بهم عليها ، ويستغيث بهم إذا أفزعه أمر ، وهم دائماً أبطال شجعان شعث لكثرة إشتغالهم بالغزو والكفاح والضرب فى أعماق الصحراء وجوب آفاقها ، وهو يأسى لهم ، وفقد أحدهم أضعاف للجماعة » (١) وهكذا تقوم علاقة الصعلوك مع رفيقه على التعاون فى ساعات الشدة ولحظات الموت . وفى ذلك يقول تأبط شرا :

إذا راع روع الموت وأن حمى
حمى معه حر كريم مصابـر

جـ ـ الفرار وسرعة العـدو :ـ

تحدث الصعاليك فيما تحدثوا عن كيفية تخلصهم من الأعداء اذا لم يستطيعـوا الوقوف أمامهم ورأوا فيهم قوة ومقدرة تفوق قوتهم ومقدرتهم . وقد فاض شعرهم بأحاديث الفرار هذه . وهم يعتمدون فى فرارهم على أرجلهم . ولذلك أهتم الصعاليك بوصف سرعة عدوهم وكيف أنها كانت فى كثير من الأحيان وسيلة خلاصهم من قبضة أعدائهم وهى إحدى القوى التى إعتمدوا عليها فى مسلكهم هذا .

د ـ وصـف الأسـلحة :ـ

قلنا بأن الأسلحة كانت بالنسبة للصعاليك القوة الثالثة ، الى جانب شجاعتهم وسرعة عدوهم ، التى إعتمدوا عليها فى مغامراتهم . أما هذه الأسلحة فقد كان منها ما هو هجومى وما هو دفاعى . وقد تحدث الصعاليك عن ذلك جميعاً . وهذه الأسـلحة هى عموماً الأسلحة التى كان يعرفها العرب فى العصر الجاهلى كالسيف والرمح والقوس والدروع وماإليها . وقدوقف الصعاليك عند هذه الأسلحة وقفة فاحصة متأملة ووصفوها وصفاً دقيقاً وشاملا . « ويصف الشعراء الصعاليك أسلحتهم المختلفة وصف المفتون بها الذى يهتم بكل أجزائها ، ويحرص على أن يسجل فى حديثه عنها كل شىء فيها : لونهـا وشكلها وصوتها ، وطريقة صنعها وطريقة إستخدامها ، وقيمتها فى حياته وفعلها فى أعدائه »(٢)

١ ـ الشعراء الصعاليك ٢٠٤ .
٢ ـ الشعراء الصعاليك ١٩٤ .

هـ— آراؤهـــــم :—

أبرز الصعاليك فى شعرهم آراءهم الإقتصادية والإجتماعية وكانوا بذلك يحاولون تفسير الدوافع وراء حركتهم . ومن أهم المواضيع التى طرقوها فى هذا المجال ما يلى :

إنقطــاع الصلة بقبائلهـــم :—

قلنا آنفاً أن الصلة بين هؤلاء الصعاليك وبين قبائلهم قد كانت مقطوعة تمامـــا . وقد تحدث الصعاليك عن هذه الظاهرة فى حياتهم . « ومن الطبيعى أن يتحدث الصعاليك عن إنقطاع الصلة بينهم وبين قبائلهم ، تلك الظاهرة التى كان لها أكبر الأثر فى تصعلكهم والتى تعد نقطة التحول أو الحد الفاصل بين حياتهم القبلية بما فيها من توافق إجتماعى وبين حياتهم المتصعلكة بما فيها من شذوذ » (١) . وكان هؤلاء الصعاليك عندما تخلعهم قبائلهم يلجأون إلى قبائل أخرى يستجيرون بها . فتكفل لهم تلك القبائل حق الجـــوار وترعاهم . ولذلك كانوا يتحدثون عن تلك القبائل التى ينتسبون اليها بعد إنفصالهم من قبائلهم ويمدحونها ويدعون لها بالخير . ومن ذلك قول قيس بن الحدادية :—

جزى الله خيراً عن خليع مطـــرد

رجالا حموه آل عمر بن خالد

و— الفقـــــر :—

كانت عقدة الفقر مما إشترك فيه الصعاليك بمختلف طوائفهم . فهو — أى الفقر — كان من أقوى أسباب تصعلكهم ، ولذلك كثر حديثهم عنه . وقد شمل الحديث عن الفقر عدة جوانب . فمن ناحية تعرضوا لأسباب هذا الفقر وذكروا تأثيره عليهـــم وأثره فى حياتهم الإجتماعية ثم كيفية الخلاص منه . أما عن تأثير الفقر عليهم فيقـــول عنه الســليك بن السلكة :—

وما نلتها حتى تصعلكت حقبـــة

وكدت لأسباب المنية أعـــرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرنى

وإذا أقمت تغشانى ظلال فأسدف

١ — الشعراء الصعاليك ٢٢٨ .

سبب فقرهم يرجع — فى نظرهم — الى جودهم وكرمهم وإيثارهم أحيـــاناً . يقول عروة بن الورد :—

وقد علمت سليمى أن رأيـــى

ورأى البخل مختلف شـــتيت

وأنى لا يرينى البخـــــل رأى

سوى أن عطشت أو رويـــت

وإذا كان هذا الفقر قد تمكن منهم ، فلابد من وسيلة تخلصهم منه . وكانت هذه الوسيلة هى الثورة على المجتمع وأخذ حقوقهم منه . ومن ذلك قول عروة بن الورد :—

ومن يكن مثلى ذا عيال ومقترا

من المال يطرح نفسه كل مطرح

ز— إحتقار الخاملـــين :—

إحتقر الشعراء الصعاليك تلك الفئة من الفقراء الذين قبلوا بالواقع وعاشوا حياة الذل والقعود الذين لم تنهض بهم همة ولم تقو لهم عزيمة . وصورة الفقير الذى يعيـــش على فتات الموائد وفضلات الأغنياء هى ليست الصورة التى يجب أن يظهر فيها الصعلوك . أن الصورة للصعلوك — فى نظرهم — صورة مشرقة — والصعلوك هو الذى يتعفف عما فى أيدى الناس ويثور فى وجه المجتمع ويسعى لتحقيق غايته بالقوة ومن ذلك قول السليك بن الســلكة :—

ألا عتبت على مصارمتـــــنى ... وأعجبها ذوو اللمم الطـــــوال

فانى يا أبنـــة الأقـــــوام أربى ... على فعل الوضيء مـــن الرجـــال

فلا تصـــلى بصعلـــوك نؤوم ... إذا أمســـى يعد مـــن العيـــال

ولكن كل صعلـــوك ضروب ... بنصـــل الســيف هامات الرجال

ح— الدعوة إلى مذهبـــهم :—

آمن الصعاليك بعملهم هذا وأنغمسوا فيه . ولكنهم رأوا أن يقرنوا ذلك بالدعوة لهذا المذهب الذى إعتنقوه . فأنطلق صوتهم داعياً ومحبباً هذا المسلك للآخرين . ذلك لأن هذا السلوك فى الحياة هو الوسيلة وهو الطريقة المثلى للعيش الأبى الكريم . وهو الوسيلة

الوحيدة للغنى ، والغنى هو الوسيلة لكسب مكانة إجتماعي رفيـع في المجتمع القبلي . أما الفقر فأنه يجلب المذلة والإحتقار . يقول عروة بن الورد :ـ

خاطر بنفسك كي تصيب غنيمـة
إن القعود مع العيال قبيــح
المال فيه مهابـة وتجلـــــه
والفقر فيه مذلة وفضــوح

ويقول في بيت آخـر :ـ

متى تطلب المال الممنع بالقــنا
تعش ماجداً أو تخترمك المحارم

(٢) خصائص شعـرهم :ـ

تحدث عدد من الكتاب عن خصائص شعر الصعاليك. وقد كانت تلك الخصائص ـ على نحو ما سنرى ـ نتاجاً طبيعياً لنوع حياتهم وما إكتنف تلك الحياة من ظروف جعلت لشعرهم مذاقاً خاصاً يختلف عن شعر غيرهم من الشعراء الجاهليين . ويكاد يجمع أولئك الكتاب على أن أهم خصائص شعر الصعاليك تتمثل في الآتي :ـ

شعر مقطوعـات :ـ

كان أكثر شعر الصعاليك يجيء في شكل مقطوعات . وهو لم يكن يخلو مـن القصائد، ولكن ذيوع المقطوعات كان أكثر من ذيوع القصائد . ولابد أن يكون لذلك سبب ، فقد عاش هؤلاء الشعراء في زمن كان الشعر فيه ينظم في شكل قصائد غاية في الطول ، فما هو إذن السبب في تميز شعرهم بهذه الخاصية ؛؟

يرى الدكتور يوسف خليف أن هذا يرجع إلى أن حياة الصعاليك كانت مشغولة بالكفاح في سبيل العيش وليس فيها فراغ للتطويل والتجويد وأعادة النظر كما كان يفعل الشعراء القبليون . ويرى آخرون أنه ربما كان السبب في ذلك هو أن هذا الشعر قد وصل الينا مفرقاً في مصادر مختلفة أكتفى كل منها برواية ما يتفق مع الغرض الذى أورد الشعر من أجله . ويقول الدكتور الحوفي في تعليله لهذه الظاهرة في شعر الصعاليك : « ولعل مرد هذا إلى أنهم ذوى خفة وسرعة وإختلاس ، لم يألفوا التمهل والتروى والتنسـيق ،

فجاء شعرهم صورة من حياتهم » (١) . والواقع أن هذه الحياة القلقة المضطربة الـتى يغمرها الشعور العميق بقرب النهاية لا تدع مجالا للتأمل والإطالة والفن يتأثر بالحياة .

الوحـدة الموضـوعية :ـ

المقصود بالوحدة الموضوعية هو خلو شعرهم مما كان يزين الشعر الجاهلي مـن المقدمات التمهيدية من غزل وبكاء أطلال ووصف لرحيل أو رواحل أو إستطراد إلى موضوع آخر . فقد جاء شعر الصعاليك خالياً من كل ذلك . إذ أن الشاعر منهم يعبر تعبيراً مباشراً عما يعتمل في نفسه ، وما يريد أن يصفه أو يطرحه من آراء وأفكار . وهذا ما لم يألفه الشعر الجاهلي . يقول الدكتور سيد حنفي عن الوحدة الموضوعية في شـعر الصعاليك : « . . . كذلك نجد الوحدة الموضوعية في مقطوعات الصعاليك وهي خاصة لا تتحقق في القصائد الطوال للشعراء الآخرين ، فكل مقطوعة تصور موضوعاً واحداً دون مقدمات أو تمهيدات ، قد يكون وصفاً لمغامرة أو حديثاً عن الفرار وسرعة العدو ، أو حملة على وضع إجتماعي » (٢) . وذلك أيضاً من آثار نوع الحياة التى يحيونها .

التحلل من الشـخصية القبليـة :ـ

قلنا في حديثنا عن العامل الإجتماعي لنشأة هذه الظاهرة أن الصلة بين هـؤلاء الصعاليك وبين قبائلهم قد إنقطعت . ولم يعد هناك ما يجعل الشاعر مطالباً بالدفاع عـن القبيلة أو المفاخرة بها وتعديد ، مآثرها وأمجادها والمباهاه بأصالة نسبها . وليس من المتوقع أن يقف الشخص مدافعاً أو مباهياً بعشيرة لفظته وقبيلة خلعته . « وما دامت الصلة بين الشعراء الصعاليك وبين قبائلهم قد إنقطعت إجتماعياً ، فمن الطبيعي أن تنقطع فنياً . ونعني بانقطاعها فنياً تحلل الشاعر الصعلوك من ذلك « العقد الفني » الذى نراه بين الشاعر القبلي وقبيلته ، فلا يكون الشاعر الصعلوك « لسان عشيرته » لأن ما بينه وبين عشيرته قد إنقطع ، ولا يكون شعره صحيفة قبيلته لأنه لم تعد له قبيلة ، وإنما يصبح شعره صورة صادقة كل الصدق من حياته هو . . . » (٣) . ولكن يجب أن نشير هنا إلى أن صفـة

١ ـ الدكتور أحمد محمد الحوفي ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، مطبعة نهضة مصر بالفجالة ١٩٦٢م ، ص ٣٠٦ .
٢ ـ الشعر الجاهلي : مراحله واتجاهاته الفنية ٩٨ .
٣ ـ الشعراء الصعاليك ٢٧٥ .

الجماعية لم تنتف من حياة الصعلوك . فهؤلاء الصعاليك كونوا لأنفسهم جماعة يجمعها مذهب واحد وتدين بعصبية مذهبية واحدة . ومع ذلك فقد كان لكل صعلوك شخصيته الفردية إلى جانب الشخصية الجماعية . وعموماً فقد جاء شعر الصعاليك نتيجة لتلك الظروف الإجتماعية التى عاشها الصعاليك ، خالياً من مدح القبيلة أو التغنى بأمجادها والإعتداد بأصلها وتعديد مآثرها .

خلوه من الغزل :-

يقول الدكتور الحوفى : « ليس فى شعرهم غزل ، وكيف يتغزل من يقضى نهاره يترقب وليله يترصد ولا يستقر فى مقام » (١) . كانت المرأة موجودة فى حياة الصعاليك وشعرهم . وكان الصعاليك يكثرون من توجيه الخطاب إلى زوجاتهم فى شعرهم لأنهن كن يحاولن أثناءهم عما هم فيه لخوفهن عليهم من الأعداء . يقول عروة بن الورد :-

أرى أم حسان الغداة تلومنى
تخوفنى الأعداء والنفس أخوف
تقول سليمى لو أقمت لسرنا
ولم تدر أنى للمقام أطوف
لعل الذى خوفتنا من أمامنا
يصادفه فى أهله المتخلف

وإذا إستمرت زوجته تلومه وتعتب عليه وتطلب منه أن يقلع عن سعيه وراء مال الآخرين دفع اليها بسبب تمسكه بهذا النوع من الحياة وإصراره عليه :-

دعينى للغنى أسعى فانى
رأيت الناس شرهم الفقير

هذا وقد عد بعضهم ظاهرة الحديث إلى الزوجات هذه من الخصائص الأساسية لأدب الصعاليك (٢) . فالمرأة إذن لها وجود فى شعر الصعاليك ، ولكنها ليست تلك التى

١ - الحياة العربية من الشعر الجاهلى ٣٠٦ .
٢ - الحياة العربية من الشعر الجاهلى ٣٠٦ .

يهيم الشاعر بها ويتدله فى حبها ويقف على أطلالها باكياً ما إنقضى من أيامه معها ، شاكياً لصاحبيه قسوة فراقها وتباريح شوقه اليها . ولكن المرأة عند الصعاليك « هى الزوجة المحبة الحريصة على فارسها ، التى تدعوه إلى المحافظة على حياته إن لم يكن من أجل نفسه فمن أجلها هى » (١) . والواقع أن حياة الصعاليك غير المستقرة على حال ، لا تسمح لهم بالوقوف والتأنى لرسم صورة المرأة أو التغنى بصفاتها ووصف مفاتنها وإبراز محاسنها . ذلك لأنها حياة مشغولة بالكفاح فى سبيل العيش . هذه الحياة الصعاليك برزت فى شعرهم فصاروا أداة تعبير مباشر عنها وإنشغلوا بها عن غيرها .

الواقعية :-

شعر الصعاليك يصف واقعهم كما عاشوه . فوصف جوانب حياتهم المختلفة حكى عن أسباب خروجهم على المجتمع وإنتشارهم فى بادية الجزيرة العربية سعياً وراء المال . وومغاصمف راتهم التى كانوا يدخلونها والغزوات التى كانوا ينظمونها والمعارك التى كانوا يخوضونها . فكانوا يصفون الغزوة منذ بداية التخطيط لها ثم الطريق إلى الهدف ، وإذا دارت معركة وصفوها ووصفوا دور كل واحد منهم فيها . وكانوا فى كل ذلك يبتعدون عن الإمعان فى الخيال والتهويم فى عالم غير واقعى . ولم تكن حكاية المعارك هذه تقتصر على أخبار بطولتهم وصمودهم ، بل كانت إلى جانب ذلك تتحدث عن فرارهم فى وجه العدو إذ أحسوا فيه قوة تفوق قوتهم .

وصور شعرهم كذلك مظاهر البيئة البدوية التى كانوا يعيشون فيها . فوصفوا ظروف الصحراء بحرها وبردها وظلامها ، كما وصفوا ما فيها من حيوانات ووحوش رابضة فى أرجائها وحشرات سارية فوق رمالها . ولم يغفلوا عن وصف مظاهر الطبيعة كالبرق والرعد والمطر والندى المتساقط فى أول الليل . وباختصار صوروا كل مظاهر تلك البيئة تصوير المتأثر بها والمتفاعل معها .

وأهم من ذلك أن الشعراء الصعاليك صوروا الحياة الواقعية التى يحيونها بكل تناقضاتها . فوصفوا كرمهم ومروتهم وعطفهم على الفقراء والمرضى والضعفاء . وفى الجانب الآخر تحدث الصعاليك عن سلبهم ونهبهم وفتكهم وسفكهم دماء الناس . وبنفس المستوى تعرض الصعاليك بالحديث لصفاتهم الكريمة فوصفوا شجاعتهم وبطولتهم

١ - الشعراء الصعاليك ٩٨ .

وقوتهم ومغامراتهم وتعرضهم للأخطار . وصور شعر الصعاليك كذلك فقرهم المدقع والجوع الذى كان يمزق أحشاءهم والهزال وهوان منزلتهم فى مجتمعهم . ولكنهم مع ذلك « صوروا الشخصيات الإنسانية التى يتصلون بها كما يرونها فى الواقع المحسوس بكل ما بينها من تباين وإختلاف : الأعداء والأصدقاء ، والصعاليك العاملين والصعاليك الخاملين ، والنساء المشجعات والنساء المثبطات ، والأغنياء المترفين والصعاليك المعوزين » (١) . وهكذا جاء شعر الصعاليك مصوراً لكل تلك الجوانب من الحياة الواقعية و كانت هى الأساس الذى قام عليه شعرهم .

الخلاصـــة :-

تقودنا تلك المناقشة لموضوع الصعلكة والصعاليك إلى النتائج الآتية :-

(١) الصعلكة طريقة فى الحياة تقوم على نهب وسلب أموال الأغنياء عن طريق الغزو والإغارة . وكان محترفو هذه الصعلكة جماعة من الشعراء من مختلف القبائل فى الجزيرة العربية عرفوا فى تاريخ الأدب العربى بالصعاليك .

(٢) كان مسرح أحداث هذه الظاهرة هو بادية الجزيرة العربية منذ عهود ضاربة فى القدم ، وبوضوح أكثر منذ أكثر من ألف وخمسمائة عام من الزمان .

(٣) كان أولئك الصعاليك منبوذين من قبل المجتمع القبلى آنذاك . وكان من أسباب تصعلك طوائف منهم خلعهم بواسطة قبائلهم أو أنكار أبوتهم . والمهم أن مجتمعهم لم يكن يقرهم على عملهم هذا ولم يكونوا هم فى توافق مع هذا المجتمع .

(٤) رغم إشتغال هؤلاء الصعاليك بالنهب والسلب وما يتبع ذلك من سفك للدماء وتعرض للابرياء فقد كانوا على قدر كبير من الاباء والكرم والمروءة ، يعطفون على الفقراء ويعينون الضعفاء ويبذلون ما فى أيديهم غير آبهين بنفاده ، فكان فيهم كثير من الإيثار .

(٥) كان لهؤلاء الصعاليك شعرهم الذى يحمل طابعهم ويعبر عن معتقداتهم ونوع حياتهم ويصف دقائق تلك الحياة وتفصيلاتها . وهو شعر ذو خصائص تميزه عن

١ - الشعراء الصعاليك ٢٨١ .

نوع الشعر الذى كان موجوداً آنذاك . وتتلخص هذه الخصائص فى :-

(١) قصر القصيـــدة .

(٢) الوحدة الموضوعيـــة .

(٣) التحلل من الشخصية القبلية .

(٤) خلوه من الغـــزل .

(٥) الواقعيـــــة .

بين الهمبتة والهمباته والصعلكة والصعاليك

تحدثنا فيما مضى — عن ظاهرة الهمبته . وقد تضمن حديثنا كل الجوانب المتصلة بها ، بدءاً بمعناها وأصولها ونشأتها ، مروراً بعوامل تلك النشأة ، وقواعد الهمبته ونظمها وقيمها وإنتهاء بشعرهما ، موضوعاته وخصائصه .

وتعرفنا أيضاً على الملامح الأساسية فى ظاهرة الصعلكة . وقد تناول الحديث هنا : المعنى ، عوامل النشأة ، مزايا الصعاليك وأسلوبهم فى الحياة ، ثم شعر الصعاليك ، مضمونه وخصائصه .

والآن وقد تكشفت لنا كل الجوانب المتعلقة بالظاهرتين ، فانه يمكننا أن نجرى ما نزمعه من مقارنة بينهما . أما الدوافع لإجراء هذه المقارنة فأحدها هذا التشابه بين الظاهرتين فى كثير من النواحى . ثم أن بعض الذين تطرقوا لظاهرة الهمبته — إنطلاقاً من هذا التشابه — قد حاولوا إلحاقها بظاهرة الصعلكة وكأنما هى إمتداد لها أو هى صورة واحدة تتكرر بعد آلاف السنين فى بادية السودان . والواقع أن هناك الكثير من نقاط الإلتقاء بين الظاهرتين ، بيد أنه هناك أيضاً عدد من الإختلافات الجوهرية بينهما .

وحتى نتمكن من خلق مقارنة مفيدة ، رأينا أن نحدد نقاطاً بعينها لنرى صورة كل منها فى كل من الظاهرتين ، وهذه النقاط هى — فى رأينا — المكونات الأساسية لكل من الظاهرتين ، وهى :—

(١) الدلالة والمعنى : نتعرض هنا لمعنى كل ظاهرة لنرى ما إذا كان هناك تطابق فى الدلالة والمعنى .

(٢) المسرح : نعنى به الحيز المكانى الذى دارت عليه أحداث كل ظاهرة .

(٣) نظرة المجتمع القبلى : نهدف هنا إلى التعرف على رأى القبيلة فى الحالتين فى هذا الضرب من السلوك .

(٤) الدوافع : نتحدث عن دوافع كل ظاهرة ومسبباتها لنرى ما إذا كان هناك إختلاف أو تطابق بينهما .

(٥) النظم : نتطرق للقواعد والنظم التى تقوم عليها كل ظاهرة ومدى قوة تلك النظم وفعاليتها فى كل حالة .

(٦) المزايا والقيم : نناقش قيم ومزايا كل جماعة لنتأكد من إتفاق تلك القيم والمزايا أو إختلافها فى الحالتين .

(٧) الشعر : ننظر فى موضوعات وخصائص الشعر المرتبط بكل من الظاهرتين والمميزات الأساسية التى يتصف بها كل شعر ومدى إنطباقها على الآخر .

(١) المعنى والدلالة :—

عرفنا الهمبته بأنها : « طريقة فى الحياة تقوم على نهب وسلب الإبل عن طريق الغزو والإغارة » . وخرجنا مما كتب عن الصعلكة أنها : « طريقة فى الحياة تقوم على نهب وسلب أموال الأغنياء عن طريق الغزو والإغارة » .

وتدل الممارسة اليومية لجماعة الهمباته أنهم لم يكونوا ينهبون غير الإبل . ومن قواعد الهمبته الأساسية الأقتصار على نهب الإبل . وهذا هو الأساس الذى يقوم عليه التفريق بين الهمباتى وغيره . وقد كان لهذا الإقتصار على نهب الإبل أسباب ومبررات تحدثنا عنها فى الفصل الأول من الباب الثانى من هذا البحث . ولا أرى أننا فى حاجة للتكرار ، إذ يمكن الرجوع إلى ذلك فى موضعه .

أما الصعلكة فأنها لم تقتصر على نهب نوع معين من المال . بل كان الصعاليك ينهبون كل ما يصادفهم ويسلبون كل من تقوده ظروفه إلى أماكن ترصدهم ماله أياً كان ذلك المال — وقد ذكرنا آنفاً فى أخبار السليك بن السلكة أنه قتل رجلا وسلب غنماً كثيرة . وفى أخبار عروة بن الورد أنه سلب هذليا فرسه . وقد رأينا كيف أن الهمباته كانوا لا ينهبون الماعز ويحتقرون من يسرق « الزاملة » وذلك ما أشرنا اليه بـ « جمل الشيخ عبد القادر » أى الجمل الوحيد عند صاحبه . والسبب فى إقتصار الهمبته على نهب الإبل وإتساع الصعلكة لتشمل بالنهب كل شيء يرجع — فى رأينا — إلى أن الحاجة والفقر والفاقه القاتلة لم تكن سبباً رئيسياً للهمبته . وقد ذكرنا آنفاً أن من الهمباته من كان من أسرة ثرية كما هو الحال بالنسبة للطيب ود ضحوية مثلا . فالهمبته كانت ضرباً من التفاخر فى بعض صورها ، وكان لابد أن تكون الإبل هى مادة هذا الصراع لأنها مقياس الثرا فى المجتمع الرعوى فى البادية .

وإذا إختبرنا الموقف فى حالة الصعلكة فأننا نلاحظ أن الشعور بالفقر كان حـاداً حتى أن الظاهرة نفسها عرفت بالصعلكة وهى تعنى فى الإستعمال اللغوى الفقر كما رأينا . المهم أن الفقر كان سبباً رئيسياً وراء ظاهرة الصعلكة وكانت الحاجة تشتد بهم والجوع يعتصر أمعاءهم ، فلا يجدون بدأ من السطو على أى شيء ونهب كل ما يقيهم قسـوة الجوع ويخفف عليهم عمق الإحساس بالحرمان .

إذن فالطريقتان تقومان على النهب والسلب عن طريق الغزو والإغارة وما يتبع ذلك من معارك وسفك دماء وفتك بالناس ، ولكن الهمباته تخصصوا فى نهب الإبل ولم تمتد أيديهم إلى غيرها مهما كانت الظروف . وكان الإعتقاد لديهم أن السارق هو الذى يتعرض لغير الإبل وأن عملهم ليس سرقة . يقول أحدهم فى ذلك : « فى ناس بسوقوا غير أليل لكن ديلا ما هو سراجة ، ديلا بى صفتهم سراريق ، السراق دا بسرق البيت ، بسرق العنز ، بسرق الدكان » (١) .

(٢) مسرح الأحـداث :ـ

كانت بادية الجزيرة العربية هى المسرح الذى شهد أحداث الصعلكة ، حيث كان الصعاليك ينتشرون فى ربوعها وبقاعها ينهبون ويسلبون . وهذه البادية بطبيعتها وظروفها الإقتصادية والإجتماعية هى التى أفرزت هذه الجماعة التى عرفت بـ « الصعاليك » . وفى السودان كانت البادية الرعوية كذلك بظروفها الخاصة المتميزة هى مصدر جماعة الهمباته وهى المسرح الذى أدوا فيه دورهم . ففى كلا الحالين كانت البادية هى مسرح الأحداث وهذا ربما دفع على الإعتقاد بأن حياة البوداى تساعد على نشأة ونمو مثل هذه الظواهر . يقول الدكتور عز الدين إسماعيل فى ذلك : . . . . ولكن يبدو من تكرار هذه الظاهرة (يعنى الهمبته ويسميها الصعلكة) فى بوادى الجزيرة العربية وبوادى السودان أن حياة البوداى تساعد على ظهور هذا الطراز من الحياة ، حيث يقيم بعض الناس من أنفسـهم قوامين على العدالة الإقتصادية فيسلبون وينهبون لكى يعطوا الفقير والمحروم ، ويجدون فى هذه المغامرة ، وبكل ما يرتبط بها ويترتب عليها أحياناً ، متعتهم الشخصية » (٢) .

ونحن نرى أن إرتباط مثل هذه الظواهر بالبادية يرجع إلى الأسباب الآتية :

١ – الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٨٩٦ .
٢ – الشعر القومى فى السودان ٢٧ .

أ ـ ينقسم المجتمع البدوى إلى عدة قبائل ترى كل قبيلة أنها أعرق نسباً وأرفع مكانة من غـيرها . أما أنجع وسيلة لإثبات ذلك فهى الإحتكاك المباشر بالقبائل الأخرى عن طريق الحرب . وذلك أحد مظاهر العـداء القائم بين القبائل فى البادية . ولهذا العداء مظهر آخر وهو أن تغـير قبيلة ما على قبيلة أخـرى بغرض تحقيق عائد إقتصـادى . وبذلك أصبح السلب والنهب أحدى القيم التى يقدسها المجتمع البدوى ويقوم عليهـا . ولابد أن نذكر أنه توجد فى المجتمع البدوى ضوابط على كل شيء حتى النهب والسلب والخروج على القانون . وحتى الحروب بين القبائل لها آداب مرعية .

ب ـ البادية فى إتساع أراضيها ، وترامى أطرافها ، ووحشية طرقها ، وإمتداد سهولها ، تشكل مجالا رحباً لممارسة مثل هذا النوع من النشاط . لأن نهب الشيء يستلزم الإبتعاد نجاة به من إحتمال تتبع صاحبه لأثره ، ولابد أن يضع الناهب بينه وبين مطارده مسافة يعجز معها المطارد من مواصلة المطاردة . والبادية لذلك هى أنسب مكان لمثل هذا النوع من العمل .

ج ـ البادية بحكم طبيعة حياة سكانها غير المستقرة تجعل من الصعب فرض السيطرة عليهم بواسطة الدولة . فقد كان البدوى ـ إلى وقت قريب ـ فى مأمن من كل سيطرة وبعيداً عن قبضة القانون . فهو أقدر على الحركة ، ويعيش فى عزلة لا تمكن من متابعته ومعرفة نواياه وأعماله والحد من تصرفاته غير القانونية ـ كما أنه من الناحية الأخرى مقاتل مجيد . ولكن لابد أن نشير هنا أنه نسبة للتطور التكنولوجى ، فقد البدوى كل هذه هذه المميزات وأصبح فى متناول يد الحكومة لأنها أصبحت أقدر على الحركة منـه ، وتملك من وسائل القتال ما يفوق وسائله البدائية .

د ـ حصرت الطبيعة عمل البدو فى الرعى . وبذلك أوجدت فى حياة البدوى فراغاً هو فى حاجة إلى أن يملأه . وقد كانت أحدى وسائل ملء هذا الفراغ هى الحروب وكان النهب والسلب هو وسيلة أخرى لسد هذا الفراغ .

هـ ـ توزيع الثروة فى البوادى الرعوية غير عادل . إذ أنه يوجد فى البادية طبقتان طبقة تملك ثروات طائلة من الماشية ، وطبقة لا تملك شيئاً . وهذه الطبقة الأخيرة تعيش فى حالة نفسية سيئة من جراء ما تعانيه من البؤس والشقاء والحرمان تصل بها إلى حد حمل السلاح لتحقيق عدالة حرمتها إياها الطبيعة .

(٣) نظرة المجتمع القبلـي :-

رأينا فى مناقشتنا لدوافع الهمبته وأسبابها أن القبيلة لم تكن بمعزل عنها ، بل كانت بتقاليدها وقيمها وعاداتها دافعاً قوياً من دوافعها . فهى ترى أن الهمبته تقليد يجب أن يراعى ، ولذلك كان الهمباتى مكان حفاوة وتقدير ، والمقصر عن الهمبته مكان تعنيف وتحقير . والهمبته من الناحية الأخرى أسلوب فى الحياة كفيل بتوفير المال عندما تشح السماء وتمسك الأرض ثمرها فى جوفها وتصبح غير قادرة على العطاء . وليست الهمبته ، فى نظر القبيلة ، سرقة أو حراماً ، بل هى حلال طيب وباب مشروع من أبواب الرزق بل هى مجال لإبراز صفات الشجاعة والفروسية والقوة . ذلك باختصار هو موقف القبيلة من الهمبته ونظرتها للهمباتى . وما دامت التقاليد القبلية ، وهى بمثابة الدستور ، تبيح مثل هذا العمل وتحض عليه ، فقد وجب على الفرد ، تمشياً مع هذه التقاليد والتزاماً بالدستور أن يسلك هذا السلوك وينحو هذا النحو فى حياته لئلا يعد شاذاً عن المجتمع الذى تحكمه تلك التقاليـــد .

ولم تكن القبيلة تكتفى بتوجيه الفرد منها لمثل هذا السلوك فقط ، ولكنها كانت تدافع عنه وتحميه وتقدم له المساعدة إذا كان فى موقف يستدعى أن تمـــد له يد المساعدة فاذا وقع فى جريمة بسبب هذا النهب والسلب ، فأنها لا تألو جهداً فى سبيل تخليصه ودفع ما يقرر عليه غرامة مثلا إذا لم يكن فى مقدوره دفعها . وفى سؤال عن موقف القبيلـــة إذا وقع بعض أفرادها من الهمباته فى قبضـــة السلطة يقول أحدهم : « بتفكهم » ويقول آخر : « بتفكهم بى قرشهم وبتفكهم بى أيديهم » (١) .

ذلك كان هو موقف القبيلة فى السودان من الهمبته والهمباتى . فما هو موقـــف القبيلة العربية قديماً من الصعلكة والصعلوك ؟

حين تحدثنا عن العوامل المؤثرة فى نشأة الصعلكة وضح لنا فى الجانب الإجتماعى أن من ضمن الأسباب القوية لنشأة الصعلكة فقدان الإنتماء إلى القبيلة . ورأينا أن الصعلكة هى فى الواقع ثورة على أوضاع المجتمع الجائرة . فالذى يرتكب مخالفة تضر بوحـــدة القبيلة تخلعه القبيلة ويصبح طريداً ، فيجند نفسه للانتقام من هذا المجتمع الذى لفظـــه . ومن ناحية أخرى كان هناك الأغربة الذين كانوا نتاج زواج غير متكافىء فرفضهـــم

١ - الارشيف شريط رقم م/د/أ/أ/١٩٠٥ .

المجتمع بسبب سواد لونهم فأنطلقوا فى الآفاق يسلبون وينهبون ويقتلون إنتقاماً لأنفسهم من هذا الظلم الإجتماعى الذى لم يكن لهم فيه يد ، إذ هم لم يكونوا مسئولين من عـــار ولادتهم . المهم أن هؤلاء وغيرهم لم يكونوا فى توافق مع مجتمعهم ، وكانت القبيلـــة والمجتمع الجاهلى عموماً يشجب سلوكهم هذا لأنه يشكل تحدياً لأمنه وإطمئنان أرجائه .

وهكذا نرى أن الهمبته كانت تتمتع بالدعم الإجتماعى من جانب القبائل نفسها . فالهمباته يحتفظون بعضويتهم فى مجتمع القبيلة . والمجتمع نفسه يشجع إنخراطهم فى هذا العمل ويدعوهم للنهوض وترك حياة الدعة والخمول والقعود . ليس ذلك فحسب . بل أن القبيلة لا تقف مكتوفة الأيدى إزاء أفرادها العاملين فى الهمبته إذا أحست أنهم فـــى حاجة لمساعدتها أو دعمها . فهذا يضاف إلى الضمانات الأخرى التى يقدمها مجتمع الهمبته نفسه لأعضائه . والهمباتى لا ينهب قبيلته قط لأنه يشعر بانتمائه لها ويدعمها له . ولكن القبيلة العربية فى الجاهلية لم تكن لها أية علاقة الصعلوك ، بل هو منبوذ من جانبها لا تقره على عمله بل وتبيح دمه . فنحن إذن أمام نظرتين : نظرة مؤيدة وحامية ونظرة معارضة وشـاجبة .

(٤) الدوافـــــع :-

إن الدوافع القوية ذات الأثر العال فى الحالتين لا تعدو أن تكون دوافع إجتماعية تتعلق بمفاهيم المجتمع وقيمه وعاداته وتقاليده ، وإقتصادية تتعلق بتركيبه الإقتصـــادى وتوزيع الثروة فيه . وطالما أننا نتحدث عن ظاهرتين أساس فلسفتيهما النهب والسلب عن طريق الغزو والإغارة ، فاننا نتوقع أن تكون هناك بعض الدوافع المشتركة ولكن هـــذا لا ينفي وجود بعض الدوافع التى تنفرد بها ظاهرة دون الأخرى ، وذلك بسبب إختلاف ظروف المجتمع الذى نشأت فيه .

الدوافـــع الإجتماعية :-

أ- إذا فحصنا دوافع الهمبته الإجتماعية ، فاننا نلاحظ أن القبيلة بتقاليدهـــا وعاداتها وقيمها تقف فى مقدمة هذه الدوافع . ونحن حين نقول القبيلة فاننا فى الواقـــع نعنى المجتمع البدوى الرعوى عموماً ، لأن القبيلة تمثل الوحدة الإجتماعية التى يقوم عليها المجتمع البدوى . فقد رأينا مثلا ، أن من عادات بعض القبائل أنه لكى يبرهن الفرد منها

على بلوغه قدر الرجال ، فأن ذلك يتطلب منه أن ينهب إبل الغير . ورأينا أيضاً أن بعض القبائل نرى فى شخصية الهمباتى الزوج المثالى . وتعليلهم لذلك أن طبيعة البيئة الصحراوية غير مضمونة، فهى تعتمد على ما تجود به السماء . وإذا شحت السماء وجد الإنسان نفسه فى حالة من البؤس لا يملك معها حولا ولا قوة . أما العمل فى النهب والسلب فهو مصدر دخل مضمون لا يتأثر بعوامل الطبيعة وتقلباتها . ومن هنا كانت الهمبتة فى مجتمع القبيلة قيمة من قيمه وتقليداً من تقاليده يجب أن يراعى . وبذلك تأخذ الهمبته بعدها الإجتماعى

وإذا حاولنا أن نطبق ذلك على مجتمع الصعلكة فاننا نجد أن الصورة تختلف تماماً فالصعاليك أنكرتهم قبائلهم وجردتهم من عضويتها فخرجوا على نظمها وقيمها وتقاليدها وسلكوا طريقهم فى الحياة بما يضمن لهم فرص العيش . فليس فى المجتمع إذن ما يجعل الصعلكة عملا مثالياً . بل هى عمل محتقر لا يلتحق به إلا أولئك الذين وقع عليهم ضرر إجتماعى . فأرادوا أن يعوضوا ما فقدوه عن طريق القوة وأقاموا لأنفسهم مجتمعاً ذا كيان خاص . وهو مجتمع مستقل إستقلالا تاماً كأستقلال أفراده ، ليس هناك ما يشده إلى المجتمع الأول أو يربطه به . والعلاقة بين المجتمعين علاقة عداء مستحكم ودائم . وقد وصل بعضهم درجة كان يغير فيها على قبيلته وينهب مالها . وذلك – فى نظرنا – أمر طبيعى لأن هذا الشخص المخلوع والمنبوذ لم يعد ينتمى إلى تلك القبيلة التى يرى أنها جنت عليه حين خلعته أو أنكرت عليه . ولذلك فأن الإغارة عليها هى من باب الإنتقام للظلم الإجتماعى الذى وقع عليه .

ب– تعتبر المرأة دافعاً قوياً من دوافع الهمبته ، وذلك بتشجيعها وأعجابها بالمشتغلين بها. فمن أجل هذه المرأة المشجعة والمعجبة ومن أجل الأمةالتى يقصدها الهمباتى لقضاء لحظات اللهو والمرح ، من أجل هذا يعتلى الهمباتى ظهور جمالهم ويهيمون فى الصحراء متعرضين للاخطار والمغامرات وأهمية المرأة هنا تنبع من الوظيفة الإجتماعية التى تتمتع بها فى المجتمع البدوى فى السودان – كما أوضحنا فى موضع غير هذا. فقد كانت المرأة تغنى للهمباتى وتمدحه وتبدى إعجابها به من خلال ذلك الغناء . ولا أظن أننا فى حاجة لأن نعيد ما فصلنا القول فيه فى الباب الثانى من هذا البحث.

ذلك كان هو موقف المرأة من الهمبته فى السودان ودورها فى توجيه أنظار الناس اليها . فماذا كان موقف المرأة من الصعلكة فى العصر الجاهلى ؟

إن الصورة الواضحة فى هذا الموضوع هو صورة المرأة الزوجة . فقد كان لهؤلاء الصعاليك زوجات يشاركنهم الحياة التى يعيشونها ويقاسمنهم الآلام التى يحسونها والحرمان التى يكتوون بناره . ورغم الجوع والفتك والحرمان كن يتخوفن كثيراً من تعرض أزواجهن للاخطار . ولذلك كن يبذلن غاية ما فى وسعهن لأثناء أزواجهن عن المضى فى هذا العمل ويطالبنهم بالكف عن حياة التشرد فى أرجاء الصحراء الموحشة . ولم يكن الصعاليك يستجيبون لهذه الرجاءآت المتكررة من هؤلاء النساء . ولكنهم كانوا يحاولون إقناعهن بأن هذا السلوك لابد منه لأنه المخرج الوحيد أمامهم من الظلم الواقع عليهم وهو ضمان الحياة والوسيلة للابتعاد من شبح الجوع الماثل دائماً أمامهم . ولذلك يكثر فى شعرهم توجيه الخطاب إلى زوجاتهم وذكر لومهم لهم وعتابهن . وكان هؤلاء النساء يكتفين باللوم والرجاء . ولذلك كانت محاولاتهن تتسم بالكثير من السلبية :

ألا عتبت علــى فصارمتنــى
وأعجبها ذوو اللمم الطوال

فهى تعاتب وتبدى رأيها فى إقامته وشعورها إذا هو إستجاب لها فأقام ، ولكنها لا تملك غير ذلك . ولعلها أن تكون فى ذلك مواجهة بالواقع . ففرصة الحياة أمامهم ضيقة إلا من هذا العمل ، وترك هذا العمل يعنى الموت جوعاً . فلا مفر إذن من التشبث بـه والإصرار عليه . فهى إذن لا تستطيع أن تتشدد فى موقفها أو تصر على رأيها لأن البديل أخطر مما تعاتب وتلوم عليه .

الدوافع الإقتصـادية :

ذكرنا أن المسرح الذى شهد أحداث الظاهرتين هو مسرح بدوى ذو طبيعة رعوية. وإقتصاد البادية يقوم على كميات الماشية بأصنافها : المعز والغنم والإبل . والإبل هـى أساس الثروة فى هذا المجتمع . ولذلك كانت هذه الإبل تشكل مادة الصراع الدائر بين الطبقتين الإقتصاديتين اللتين يتكون منهما المجتمع الرعوى فى البادية : طبقة أصحاب الإبل وطبقة المعدمين الذين يفتقرون إلى بعير يرتحلون عليه ويحملون عليه متاعهم . وأحس الفقراء المعدمون بالغبن الواقع عليهم من جراء سيطرة أصحاب الإبل على الحياة الإقتصادية والإجتماعية . فسعوا إلى خلق نوع من التوازن وكانت وسيلتهم إلى ذلك هو

الغزو والإغارة للنهب والسلب بغيــة سد الحاجة وتجريد أولئك المتحكمين فى شــئون المجتمع من هذا المظهر من مظاهر السلطان الذى يتمتعون به .

على أننــا يجب أن نلاحــظ أن حدة الشعور بالفقر والإحساس بالحرمان كانت أقوى فى حالة الصعاليك منها فى حالة الهمباته . فقد كان الفقر هو أحد الأسباب الرئيسية وراء ظاهرة الصعلكة . ولذلك كثر الحديث عنه فى أخبار الصعاليك وشعرهم . ولم يكن أمام الصعاليك إلا أن يحاولوا الحصول بالقوة على ما يقيهم عائلة الفقر . فهناك الزوجــة والأطفال الذين يتلفتون بحثاً عن لقمة العيش . فلا مفر إذن من أن يجازف الفرد منهــم فالموت خير من حياة يلفها الفقر والحرمان .

وهكذا نرى أن الغرض فى كلتا الحالتين هو الحصول على المال . ولكن المــال لم يكن هدفاً فى ذاته وإنما كان وسيلة لغيره . وهنا يأتى الإختلاف . فالصعاليك أرادوا المال ليتقوا به غوائل الجوع المسيطر على حياتهم وحياة غيرهم من الضعفاء والمحرومين بيد أن الهمباته أرادوا المال ليشبعوا عن طريقة هوايتهم فى اللهو والمجون فى المجالــس التى يرتادونها . ولذلك كثر الربط فى شعرهم بين المغامرة لجلب ما يرضى المرأة وبين الموت كبديل لعدم ذلك . ولابد أننا نلاحظ أن الدافع الإقتصادى فى حالة الصعاليك هو بلا أدنى شك أهم الدوافع ، ولكنه بالنسبة للهمباتى ليس كذلك ، فقد ذكرنا سابقــاً أن بعض الهمباته من أسر ذات ثراء واسع . فنحن نلاحظ أن الصعلوك يضع فى إعتباره إحتمالين : الغنى أو الموت ، ويضع كذلك الهمباتى إحتمالين : رضاء المرأة أو الموت . لذلك فــأن الغنى فى حياة الصعاليك يقابله رضاء المرأة فى حياة الهمباته . وفى الحالين لم يكن المال هدفاً فى ذاته ولكنه وسيلة إلى غاية .

على أننا يجب ألا نغفل هنا حقيقة ذكرناها عن الفقر كسبب من أسباب الهمبته ودافع من دوافع الإشتغال بها . هذه الحقيقة هى أن الفقر قد برز فى وقتنا الحاضر هذا كسبب رئيسى من أسباب الإنخراط فى هذا النوع من الحياة . وكما ذكرنا آنفاً ، فــان الكثيرين من الهمبــاته ، خاصة فى منطقة حمر ، يتحدثون عن الفقر كسبب قوى من أسباب إمتهانهم الهمبته وسعيهم الدائب وراء الإبل . وهو ، أى الفقر ، لم يكن بارزاً فى الصورة فى مراحل الهمبته الأولى كما هو اليوم .

(٥) النظــــم :

سبق أن حددنا النظم والقواعد التى تسير مجتمع الهمبته . ورأينا إلى أى مدى كان هذا المجتمع يتمتع بصور من التعاون بين أفراده نذكر منها : واجب الرفيق نحو رفيقه « والسالف » وهو واجب الهمباتى نحو الهمباتى الآخر دون أن يكون هناك سابق معرفة ، ثم التعامل بين الهمباتى والعميل . وقد شرحنا هذه الصور عندما تحدثنا عن نظم الهمبته . وهذه الصور من التعاون ، والتى هى بمثابة الضمانات الإجتماعية ، تنفذ بصورة دقيقة . وإذا شذ أحدهم عن الإلتزام بهــا عاقبه هذا المجتمع بالعزل وذلك بأن يمتنع الجميع عن تقديم أى عون له . وهكذا يتميز مجتمع الهمبته بهذا التماسك القوى الــذى تتوفر فيه كل الضمانات الإجتماعية فى حالات المرض والعجز والسجن والحاجة .

إن هذا التنظيم الدقيق لمجتمع الهمبته ليس له نظير فى مجتمع الصعلكة ، أو على الأقل لم يصل الينا ما يعين على تصوره فى الدراسات التى قدمت عن الصعلكة . صحيح أن هناك الكثير من صور التعاون فى مجتمع الصعلكة ولكن الضمانات التى يوفرها مجتمع الهمبته للفرد فيه لا تتوفر للفرد فى مجتمع الصعلكة ـ وصحيح أن الصعاليك كانوا يعطون إخوانهم الذين أقعدهم المرض والشيخوخة والعجز إلى درجة حرمان أنفسهم القــوت الضرورى . ولكن لابد أن نلاحظ أن الناحية الإلزامية فى حالة الهمبته أقوى . وعموماً نستطيع أن نقول أن مجتمع الهمبته أكثر تقدماً من الناحية التنظيمية من مجتمع الصعلكــة وهو أكثر التزاماً بهذا التنظيم وأدق تنفيذاً للاسس التى يقوم عليها هذا التنظيم .

(٦) القيــم والمزايــا :

ليست هناك إختلافات جوهرية تذكر فى هذه الناحية . فالقيم التى تتمســك بها كل من الجماعتين هى القيم المشهورة والمعروفة للعرب فى كل زمان ومكان كالشجاعة والشهامة ، والكرم والجود والسخاء ، والمروءة والإغاثة ، ومراعاة الجار والعشير والوفاء للصديق والرفيــق .

أما الشجاعة فهى تظهر فى ثباتهم وأقدامهم حين يتصدى لهم أصحاب المــال المنهوب أو فى قطعهم للفيافى والقفار والتعرض لوحشها الرابض فى أرجائها . وفى كل هذه الحالات فأنهم لا يتزحزحون ولا ترتج أوصالهم ولا ترتعد من الخوف قلوبهــم .

وذلك ناتج بالطبع من إيمانهم بالمبدأ وتمسكهم بالمذهب الذى أختاروه لأنفسهم ثم أن الشجاعة من الصفات المنسوبة إلى العرب منذ القدم .

واتصفت الجماعتان بكرم النفس واليد . فالصعاليك يروى عنهم أنهم كانوا يبذلون كل ما فى أيديهم إذا وجدوا أن هناك من هو فى حاجة له « بل يفيض الكرم حتى يسميه عروة (شركة)» . يظهر ذلك فى أبياته التى تمنى من أجلها الخليفة عبد الملك بن مروان أن يكون أبوه عروة بن الورد والتى يقول فيها :ـ

وإنى أمرؤ عافى أنائى شركة
وإنت أمرؤ عافى أنائك واحد
أتهزأ منى إن سمنت وإن ترى
بجسمى شحوب الحق والحق جاهد
أفرق جسمى فى جسوم كثيرة
وأحسو قراح الماء والماء بارد

فالكرم قيمة متأصلة فى الجماعتين قولا وفعلا . ومن هنا كان الغنى البخيل هو هدف الجماعتين (الزول العلى كمش النقود متعلم) .

وما يقال عن الشجاعة والكرم ، يقال كذلك عن المروءة ويقال أيضاً عن مراعاة الجار والعشير ، والوفاء للصديق . فهذه صور تتكرر فى شعر الجماعتين . ومن ذلك قول عروة بن الورد فى مراعاة الجار :ـ

وإن جارتى ألوت رياح بيتها
تغافلت حتى يستر البيت جانبه

وجاء فى شعر الهمباته على لسان عبد الله ود المقدم :ـ

نحنَ المَا بِسَمُّونا الْعِرَيِب وين جِيتو
نحنْ بْنركَب الْدُّرشِى (١) الْبِجابد خيتو (٢)

١ ـ الدرشى : الجمل
٢ ـ خيت : خيط ويعنى به الرسن

نحنْ عَشيرنا ما بِنْخُونوا نخرب (١) بيتو
نحنْ عَدُونا بِنْعَصرُوا (٢) وْنَطَلّع زيتو

وبجانب هذه القيم التى تشترك فيها الجماعتان ، كان للهمباته قيم أخرى لم ترد نظائرها عن الصعاليك . ومنها أنهم لا ينهبون بعض أنواع الإبل من مثل ما يسمونه بـ« جمل الشيخ عبد القادر » و « جمل القيد » على نحو ما ذكرنا . كذلك فهم لا ينهبون « الهامل » أى الإبل التى لا يجدون معها راعياً أو مالكاً . كما أنهم لا ينهبون مال اليتيم ومال المرأة .

(٧) الشعر :ـ

أن أميز ما يجمع بين ظاهرتى الهمبته والصعلكة هو قدرة العاملين فيهما على التعبير عن أنفسهم وأسلوب حياتهم وقيمهم بالشعر . أما الشعر فانه يتفق هنا وهناك فى موضوعاته وخصائصه .

(١) الموضوعات :ـ

لم تكن موضوعات شعر الهمباته تختلف عن موضوعات شعر الصعاليك ، إذا إستثنينا حديث الهمباته عن علاقتهم بالسلطة . وما عدا ذلك فانهم تناولوا نفس الموضوعات وهى :ـ

أ- الحديث عن الدوافع وراء سلوكهم .
ب- الحديث عن الرفاق ومواقفهم وموقف الفرد منهم نحو رفيقه .
ج- توجيه التهديد والوعيد إلى الذين يقصدونهم للنهب والسلب .
د- وصف الأسلحة التى يستعملونها فى مغامراتهم .
هـ- شرح موقفهم إزاء غيرهم ممن لم ينتهجوا نهجهم فى الحياة .
و- تصوير القلق والإضطراب الذى تتسم به حياتهم .
ز- وصف المغامرات التى يخوضونها ووصف المعارك التى تدور مع خصومهم

وبذلك نرى أن شعر كل من الجماعتين هو عكس للواقع كما عاشوه وحكاية لما مر بهم فى الحياة دون إمعان فى الخيال .

١ ـ خرب : ضد عمر (٢) عصر : ضغط وألزم .

هذه هى الصورة العامة . ولكنا إذا تمعنا الشعر فى كل حالة ودققنا النظر فيه ، لوجدنا أن شعر الجماعتين لم يكن يحتوى على تفاصيل مشتركة . ففى حالة الحديث عن الدوافع ، مثلا ، نجد أن الصعاليك يركزون على الفقر وتكثر فى شعرهم صيحات الجوع ، وذلك لأن الفقر هو سبب تصعلكهم الرئيسى . بينما نلاحظ أن هذه النغمة خافتة فى شعر الهمباته . وفى مسألة الحديث عن الأسلحة ، نجد أن الصعاليك قد وقفوا عند تلك الأسلحة وقفة طويلة ورسموا صورتها بتفصيل دقيق : وصفوا لونها ، وشكلها وطريقة صنعها . . . . . الخ . ولم يتعد الهمباته فى حديثهم عنها مجرد الإشارات ، فلم يصفوها ذلك الوصف الذى وصفه لها الصعاليك . هذا على سبيل المثال لا الحصر . وهذا يرينا أن الصورة العامة للموضوعات فى كلا الحالين واحدة ، ولكن التفاصيل تختلف أحياناً .

(٢) الخصائص :-

يتفق شعرا الجماعتين فى كثير من خصائصهما . وذلك مرده إلى نوع الحياة ذات الطابع الواحد التى جاءت الخصائص تتفق معها وتتأثر بها .

قلنا عن شعر الصعاليك أنه كان يأتى فى شكل مقطوعات . وذلك يعنى خلوه من القصائد . ولاحظنا فى شعر الهمباته خلوه من المسادير ، وهى قصائد تتألف عن عدد من المربعات . والسبب فى ذلك فى كلا الحالين واحد . فقد ذكرنا فى تعليلنا لظاهرة خلو شعر الهمباته من المسادير أن السبب فى ذلك يرجع — فى رأينا — إلى طبيعة الحياة التى يحيونها ، تلك الحياة التى يشوبها القلق والإضطراب . وهذا النوع من الحياة غير المستقرة على حال ، لا يتناسب مع التطويل والتنسيق والتأنى . ولذلك جاء شعرهم فى شكل رباعيات تعبر تعبيراً مباشراً عن مكنون نفوسهم وتطرح قضيتهم فى الحياة فى بساطة ووضوح . وعن هذه الظاهرة فى شعر الصعاليك يقول الدكتور خليف : « والعلة عندى هى طبيعة حياتهم نفسها ، تلك الحياة القلقة المشغولة بالكفاح فى سبيل العيش التى لا تكاد تفرغ للفن من حيث هو فن يفرغ صاحبه لتطويله وتجويده وإعادة النظر فيه كما كان يفعل الشعراء القبليون . . . الخ » (١) .

١ - الشعراء الصعاليك ٢٥٩ .

الخاصة الثانية التى يشترك فيها الشعران هى خلوهما من الشعر القبلى ، أى الشعر الذى يتغنى بأمجاد القبيلة ويعدد مآثرها . وفى حالة الصعاليك تكاد تكون هذه الظاهرة أمراً طبيعياً لما نعلمه من إنقطاع صلتهم بقبائلهم وفقدانهم الإنتماء اليها . فليس من المتوقع — كما ذكرنا آنفاً — أن يقف الشخص مدافعاً أو مباهياً بعشيرة لفظته وقبيلة خلعته . أما فى حالة الهمباته فأن الصلة بقبائلهم قائمة ، ولذلك فلابد من وجود علة غير هذه . وهذه العلة هى — أنهم قد كونوا لأنفسهم مجتمعاً متميزاً له قيمه وتقاليده ومثله كما رأينا . وهو مجتمع يوفر للفرد الحماية والضمان الإجتماعى من غوائل الزمن . وتبعاً لذلك إنصهرت روح الفرد منهم فى روح الجماعة ، وأصبح إنتماؤهم إلى الجماعة الجديدة أقوى من إنتمائهم إلى قبائلهم . ولذلك عبر هذا الفرد فى شعره عن قيم جماعته ومدح أسلوبها فى الحياة .

جاء شعر الصعاليك خالياً من الغزل . وكذا الحال بالنسبة لشعر الهمباته . وقد كانت المرأة حاضرة فى حياة الجماعتين وشعرهما . ولكنهم جميعاً لم يلتفتوا إلى وصف محاسنها وإظهار الوله بها والتدله فى حبها . ومرة أخرى تتدخل طبيعة حياتهم لتفسر لنا هذه الظاهرة فى شعر الجماعتين . فالحياة المشغولة بالكفاح فى سبيل العيش أو فى سبيل اللهو ، حياة لا تصلح للوصف وتفصيل الصورة وإنما للتعبير السريع غير المتأنى والإشارة العابرة فى غير إسراف . وهذه الحياة نفسها شديدة الدوران محفوفة بالمخاطر والأهوال فأنشغلوا بها عن غيرها . هذا بالإضافة إلى أن علاقة الهمباتى (والصعلوك) بالمرأة كانت علاقة حسية وجنسية غايتها المتعة إلى حد كبير . فهو لا يهيم بحبها ولا يملأ الأرجاء غناء بغزلها ووصفها .

كانت لغة شعر الصعاليك هى اللغة الأدبية التى عرفها العصر الجاهلى بكل خصائصها . وهذه الخاصية — أى تمثيل هذا الشعر للغة الأدبية لذلك العصر — أعطت هذا الشعر وزنة خاصة فى مجال الدراسات اللغوية . وهذا الأمر ينطبق كذلك على شعر الهمباته . فلغة شعرهم هى لغة البادية العربية فى السودان بكل مميزاتها . وهذه الخاصية جعلت لشعر الهمباته أهميته ، خاصة فى مجال الدراسات التى تتعلق بمعانى وخصائص اللغة العامية فى السودان وإستعمالات مفرداتها وألفاظها .

وأخيراً إتصف شعر الجماعتين بالواقعية . فقد إستطاعوا أن يعبروا عن أنفسهم تعبيراً حكى الواقع كما عاشوه . فتعرضوا لجوانب حياتهم المختلفة وطرحوا آراءهم الإجتماعية والإقتصادية وأسباب إشتغالهم بهذا العمل . كما صوروا مظاهر البيئة البدوية التى كانوا يعيشون ويمارسون عملهم فيها . وأهم من ذلك أنهم لم يتغاضوا عن سلبيات حياتهم وعيوبها . ولا أحسب أننا فى حاجة إلى تكرار ما تحدثنا عنه من جوانب هذه الواقعية ومظاهرها فى شعر الجماعتين . فذلك ما يمكن مراجعته فى موقعة .

ومن هذه المقارنة بين ظاهرتى الصعلكة فى الجزيرة العربية والهمبته فى السودان نخرج بالنتائج التالية :-

(١) أساس الظاهرتين هو فكرة النهب والسلب عن طريق الغزو والإغارة .

(٢) المسرح الذى شهد أحداثهما هو البادية الرعوية فى كلتا الحالتين مما يدفع على الإعتقاد على أن حياة البوادى تساعد على ظهور مثل هذه الظواهر .

(٣) المجتمع الذى شهد أحداث الظاهرتين هو مجتمع عربى فى كلا الحالين .

(٤) لم يكن المجتمع القبلى فى العصر الجاهلى يقر تلك الأعمال التى كان الصعاليك يقومون بها والتى بنوا عليها حياتهم ، بينما نجد أن المجتمع القبلى فى بادية السودان يقر الهمباتى على عمله ويؤيده بل ويحرضه للقيام به .

(٥) أن قيم ومزايا الجماعتين واحدة . إلا أن الهمبته بالإضافة للقيم العامة ، قيم خاصة تنفرد بها . وتلك القيم من طبيعة الهمبته نفسها وظروفها الخاصة .

(٦) كانت الدوافع القوية فى الحالتين أما إجتماعية تتعلق بمفاهيم المجتمع ومعتقداته وقيمه وتقاليده . وأما إقتصادية تنبع من خصائصه الإقتصادية وتوزيع الثروة فيه . والإختلاف فى حالة الدوافع الإجتماعية أوضح منه فى حالة الدوافع الإقتصادية .

(٧) كانت الهمبته ومجتمع الهمبته أكثر تنظيماً من الصعلكة ومجتمع الصعلكة .

(٨) كان لكل جماعة منهما القدرة على التعبير عن نفسها وقيمها وأسلوب حياتها بالشعر وكان الشعران يتطابقان فى موضوعاتهما وخصائصهما إلى حد كبير .

خاتمة

من هذا نخلص إلى الآتى :

أولاً :-

إن الهمبته فى معناها ودلالتها هى : طريقة فى الحياة تقوم على سلب ونهب الإبل عن طريق الغزو والاغاره ، والجماعة « همباته » والمفرد « همباتى » . واصل التسميه من غرب السودان . ورغم أن لفظ « الهمبته » « والهمباته » إشتهرا للدلالة على هذه الظاهرة والمشتغلين بها إلا أن هناك ألفاظاً أخرى تختلف باختلاف البيئات وتستعمل للدلالة على هذا الأسلوب فى الحياة وسالكيه . ومن ذلك إنهم فى البطانة يطلقون على هذه الجماعة « المهاجرة » وعلى الطريقة نفسها « المهجر » كما يقولون « النهاضين » والطريقة « النهيض » . ومن ذلك أيضاً أنه فى وسط قبيلة حمر تعرف هذه الجماعة بـ « السراجة » .

ثانياً :-

هذه الظاهرة شهدتها مناطق البادية الرعوية فى السودان ، وخاصة مناطق تربية الإبل فى باديتى كردفان والبطانة .

ثالثاً :-

من الناحية التاريخية نستطيع الرجوع بهذه الظاهرة ، كما تدل على ذلك النصوص التى بين أيدينا ، الى الحكم التركى فى السودان الذى بدأ فى الربع الأول من القرن التاسع عشر .

رابعاً :-

كانت بعض القبائل أكثر شهرة من غيرها بممارسة الهمبته . ومن القبائل البطاحين والشكرية فى البطانة وحمر ودار حامد والكبابيش فى كردفان . وهذه القبائل ، أى التى إشتهرت بالهمبته ، هى من القبائل ذات الأصل العربى . كما أن بعض الأفراد أكثر شهرة من غيرهم فى إنتهاج هذا الأسلوب من أمثال الطيب ود ضحوية وطه الضرير .

خامساً :-

كان لهذه الظاهرة أصلها فى المجتمع البدوى فى السودان . فقد سبقتها إلى الوجود ظواهر شبيهة بها إلى حد كبير . إلا أن تلك الظواهر كانت ممارسات جماعية تقوم بها القبيلة كلها ، بينما الهمبته ممارسة فردية وأن كانت القبيلة تدعمها . ولكن العنصر الأساسى . الذى يربط الهمبته بتلك الظواهر هو أن الأساس فى الحالين هو النهب والسلب عن طريق الإغارة والغزو ، كما أنهما يلتقيان فى الناحية « التاكتيكية » . ومن تلك الظواهر « النهيض » فى كردفان « والقيمان » فى بادية البطانة وغيرها .

سادساً :-

كانت الهمبته تتم برضاء القبيلة وموافقتها بل بأثارتها وتحريضها . وذلك نابع من ضرورة التزام الفرد فى المجتمع القبلى فى البادية بالتقيد بتقاليد القبيلة وعاداتها وقيمها والتصرف وفقاً لمفاهيمها ومعتقداتها .

سابعاً :-

وراء هذه الظاهرة أسباب ودوافع إقتصادية وإجتماعية نابعة من طبيعة الحياة فى البادية ومرتبطة بظروفها . فمن الناحية الإقتصادية مثلا ، نجد أن الهيكل الإقتصادى فى البادية يرتكز على طبقتين أساسيتين : طبقة تملك كل شىء وطبقة لا تملك شيئاً . وكان من الطبيعى أن يحدث صراع بين الطبقتين كانت الهمبته إحدى ظواهره . ومن الناحية الإجتماعية نجد أن موقف المرأة ووظيفتها الإجتماعية تشكل عاملا مؤثراً فى نشأة هذه الظاهرة وإستشراها وإستمرارها . وبجانب ذلك كانت هناك دوافع خاصة نابعة من ظروف الفرد نفسه كحب المغامرة وتعويض المال المنهوب .

ثامناً :-

للهمبته نظمها الخاصة التى تحكمها وتنظم العلاقة بين أفراد مجتمعها . ومجتمع الهمبته نفسه مجتمع متماسك ومتحد تحف به ضمانات إجتماعية تدفع الفرد إلى التمادى فيها وعدم الإكتراث للنتائج مهما كانت صورتها القاتمة . ومن هذه الضمانات ما تمثل فى « قوانين المرافقة » و « السالف » .

تاسعاً :-

إرتبطت بظاهرة الهمبته بعض القيم والمثل العليا . وبعض هذه القيم عبارة عن قيم العربى فى كل زمان ومكان كالشجاعة والكرم والمروءة . . . . . . الخ . ومن هذه القيم جزء خاص بها نابع من طبيعتها . من ذلك أن الهمباته لا ينهبون مال اليتيم و « الهامل» و « الزاملة » وغير ذلك مما فصلنا الحديث فيه .

عاشراً :-

للهمبته شعرها الخاص بها والمعبر عنها . وقد إستطاع الهمباته عن طريق هذا الشعر تسجيل تفاصيل حياتهم ومكونات مجتمعهم من حيث التنظيم والإلتزام بالقيم . كما عبر الهمباته من خلال هذا الشعر عن أفكارهم وآرائهم ودافعوا عن مذهبهم فى الحياة ووضحوا الأسباب الكامنة وراء هذا السلوك . كما أنهم دعوا لهذا المذهب وإفتخروا به وهجوا المقصرين عنه . وقد كان لهذا الشعر عدة ظواهر موضوعية وفنية . فمن الظواهر الموضوعية أن هذا الشعر إتسم بالواقعية ، إذ أنه حكى الجوانب المشرقة والمظلمة فى حياتهم . ومن الناحية الفنية يمثل هذا الشعر لغة البادية العربية فى السودان ويشكل فى بعض ألفاظه قاموساً خاصاً بهم .

حادى عشر :-

وهناك بعض نقاط الإلتقاء والإتفاق بين الهمبته والصعلكة العربية. وأول هذه النقاط هو أن كلتا الظاهرتين تقومان على فكرة الغزو والإغارة للسلب والنهب . على أنه هناك بعض الإختلافات الجوهرية بين الظاهرتين .

ثبت المراجع والمصادر

١ – يوسف فضل حسن (محقق) ، كتاب الطبقات لابن ضيف الله ، دار الطباعة ، جامعة الخرطوم ١٩٧١م.
٢ – عبد المجيد عابدين ، تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، بيروت ، دار الثقافة ١٩٦٧م .
٣ – عبد الله على ابراهيم وأحمد عبد الرحيم نصر : من أدب الرباطاب الشعبى ، شعبة ابحاث السودان ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم ١٩٦٨م .
٤ – يوسف فضل : دراسات فى تاريخ السودان ج ١ ، دار التأليف والنشر ، جامعة الخرطوم ١٩٧٥ م.
٥ – نعوم شقير : جغرافية وتاريخ السودان ، بيروت ، دار الثقافة ١٩٦٧م .
٦ – أحمد عبد الرحيم نصر : تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية ، شعبة ابحاث السودان ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم ١٩٦٩م .
٧ – عبد المجيد عابدين : فى الشعر السودانى ، بيروت ١٩٧٢م .
٨ – محمد محمد حسين : أساليب الصناعة ، القاهرة دار المعارف ١٩٦٠ .
٩ – عزالدين اسماعيل : الشعر القومى فى السودان ، بيروت ، دار العودة ، بلا تاريخ .
١٠ – التيجانى عامر : السلالات العربية السودانية فى النيل الأبيض ١٩٧١ .
١١ – الشيخ أحمد الاسكندرى : الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه ، المطبعة السلفية بمصر ١٩٢٤ .
١٢ – عبد الله عبد الجبار ومحمد عبد المنعم خفاجه : قصة الأدب فى الحجاز ، القاهره ١٩٥٨ .
١٣ – شوقى ضيف : تاريخ الادب العربى « العصر الجاهلى » ، القاهره ، دار المعارف ١٩٦٥ .
١٤ – سيد حنفى حسنين : الشعر الجاهلى : مراحله واتجاهاته الفنيه ، القاهره ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١ .
١٥ – أحمد محمد الحوفى : الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، القاهره ، مكتبة نهضة مصر ١٩٦٢ .
١٦ – ديوان عروة بن الورد ، شرح ابن السكيت ، مطابع وزارة الثقافة والارشاد القومى ، سوريا ١٩٦٧ .
١٧ – سيد حامد حريز : فن المدار ، الخرطوم ، دار التأليف والترجمة والنشر جامعة الخرطوم ١٩٧٦ .
١٨ – الطيب محمد الطيب : دوباى ، الخرطوم ، دار الطابع العربى بلا تاريخ .
١٩ – تاريخ ابن خلدون ج ١ ، بيروت ، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ١٣٩١هـ ١٩٧١م .
٢٠ – جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة ، دار الهلال ١٩٥٧ .
٢١ – مصطفى صادق الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ٣ ، القاهره ، مطبعة الاستقامة ١٣٥٩هـ ١٩٤٠م .
٢٢ – ابن عبد ربه : العقد الفريد ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦١هـ ١٩٤٢م .
٢٣ – أحمد كمال زكى : شعر الهذليين فى العصر الجاهلى والاسلام ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م .
٢٤ – محمد بديع شريف (محقق) : لامية العرب ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ١٩٦٨م .
٢٥ – المفضليات : أنظر المفضل الضبى .
٢٦ – المفضل الضبى : المفضليات (تحقيق) أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، الطبعة الثالثة ، القاهرة دار المعارف ، ١٩٦٤ .
٢٧ – عون الشريف قاسم : قاموس اللهجة العامية فى السودان ، بيروت ، دار الفكر والدار السودانية ١٩٧٢

٢٨ – صلاح الدين على الشامى : السودان ، دراسة جغرافية ، الاسكندرية ، ١٩٧٢ .
٢٩ – عبد المجيد عابدين والمبارك ابراهيم : الحاردلو شاعر البطانة ، الطبعة الثانية ، الخرطوم، مطبعة مصر ، يونيو ١٩٥٨
٣٠ – أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى ، ج ٢ و ٣ و ١٨ ، بيروت ، دار الفكر ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠م .
٣١ – المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد الكامل فى اللغة والأدب ، ج ١ و ٢ ، دار العهد الجديد للطباعة بالخرنفش ، بلا تاريخ .
٣٢ – أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسى ، القاهرة ، ١٩٤٥ .
٣٣ – ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ج ١ و ٢ ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٩ .
٣٤ – لويس شيخو اليسوعى : شعراء النصرانية قبل الاسلام ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار المشرق . بلا تاريخ
٣٥ – عبده بدوى : الشعراء السود ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ .
٣٦ – بطرس البستانى : الشعراء الفرسان ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار المكشوف ، ١٩٤٤ .
٣٧ – صلاح مصطفى الفوال : علم الاجتماع البدوى ، من سلسلة علم الاجتماع والتنمية ، القاهرة دار النهضة العربية ١٩٧٤ .
٣٨ – يوسف خليف : الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩ .
٣٩ – محمد احمد ابراهيم : ملامح من التراث الشعبى لقبيلة حمر ، شعبة أبحاث السودان ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم ، مارس ١٩٧١ .
٤٠ – الطيب محمد الطيب : التراث الشعبى لقبيلة البطاحين ، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية : جامعة الخرطوم ، يونيو ١٩٧١ .
٤١ – سيد حامد حريز : من مسادير الشكرية ، شعبة أبحاث السودان ، جامعة الخرطوم ، كلية الآداب ، ١٩٦٩
٤٢ – محمد محمد الزلبانى : تجديد التقاليد ، سلسلة الثقافة الجماهيرية ، وزارة الثقافة والاعلام السودانية ، الخرطوم مايو ١٩٧١ .
٤٣ – عز الدين اسماعيل : الشعر العربى المعاصر ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦٧ .
٤٤ – على أحمد صديق : الطيب ود ضحوية ، مقال بمجلة الاذاعة والتلفزيون والمسرح ، الخميس ١١ يوليو ١٩٧٤ .
٤٥ – على أحمد صديق : الطيب ود ضحوية من الشعراء الصعاليك ، مقال بمجلة الخرطوم ، ٢١ رمضان ١٣٨٩هـ ديسمبر ١٩٦٩ م .
٤٦ – مجذوب محمد الحاج : الهمباتة ، مقال بجريدة الصحافة عدد الاثنين ٢٣ ديسمبر ١٩٧٤ .
٤٧ – أحمد عبد الله أحمد مساعد : الهمباتة ، مقال بجريد الصحافة ، عدد الأربعاء ١٨ ديسمبر ١٩٧٤ .
٤٨ – مصطفى احمد عوض : دراسات فى الأدب الشعبى ، مجلة الخرطوم ، المجلد أول نوفمبر ١٩٦٦م .
٤٩ – على أحمد صديق : الهمباتة رجال ومواقف ، مجلة الخرطوم ، عدد أول سبتمبر ١٩٧٤ .
٥٠ – فهرس الفلكلور العام ، شعبة الفلكلور ، معهد الدراسات الافريقية والآسيوية ، جامعة الخرطوم ، مطبعة جامعة الخرطوم يوليو ١٩٧٦م .

تسجيلات صوتية

توجد هذه التسجيلات في ارشيف معهد الدراسات الافريقية والآسيوية

م/د/أ/أ/١٠٩

م/د/أ/أ/٣٥٠ – م/د/أ/أ/٣٥١ – م/د/أ/أ/٣٥٢ .

م/د/أ/أ/٣٥٣ – م/د/أ/أ/٣٥٤ – م/د/أ/أ/٣٥٥ .

م/د/أ/أ/٣٥٦ – م/د/أ/أ/٣٥٧ – م/د/أ/أ/٣٥٨ .

م/د/أ/أ/٣٥٩ .

م/د/أ/أ/٦٦١ .

م/د/أ/أ/١٨٩٣ – م/د/أ/أ/١٨٩٤ – م/د/أ/أ/١٨٩٥ .

م/د/أ/أ/١٨٩٦ – م/د/أ/أ/١٨٩٧ – م/د/أ/أ/١٨٩٨ .

م/د/أ/أ/١٨٩٩ – م/د/أ/أ/١٩٠٠ – م/د/أ/أ/١٩٠١ .

م/د/أ/أ/١٩٠٢ – م/د/أ/أ/١٩٠٣ – م/د/أ/أ/١٩٠٤ .

م/د/أ/أ/١٩٠٥ – م/د/أ/أ/١٩٠٦ – م/د/أ/أ/١٩٠٧ .

م/د/أ/أ/١٩٠٨ – م/د/أ/أ/١٩٠٩ .